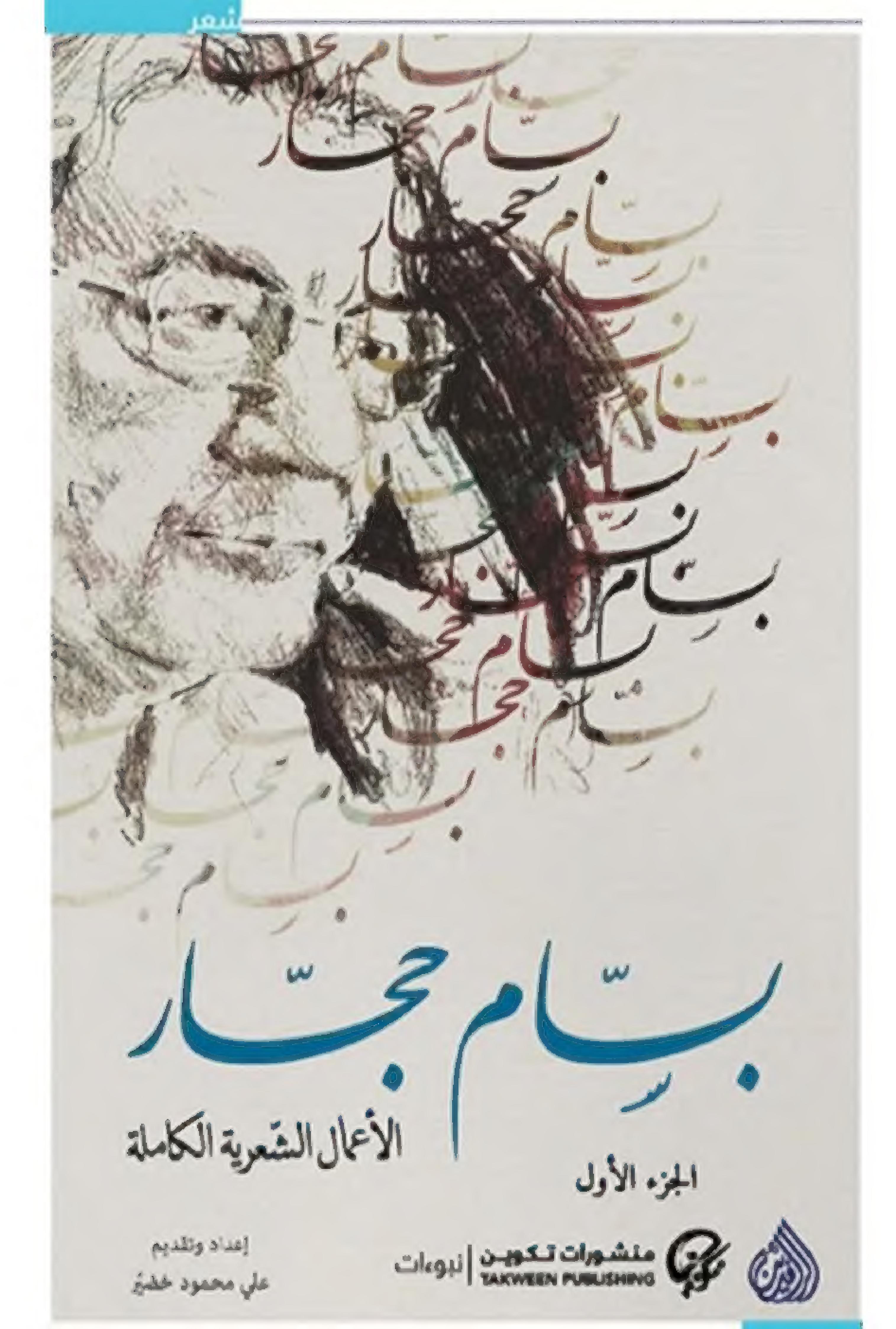

شعر
بسّام حجّار
الأعمال الشّعرية الكاملة
الجزء الأول
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
نبوءات
إعداد وتقديم
علي محمود خضيّر

علي محمود خضير

بسام حجّار

الأعمال الشعرية الكاملة

الجزء الأول



دار الرافدين للطباعة والنشر

تفسيرُ صاحبِ الظِّلال

علي محمود خضيّر

«وما أريد فعلًا أن أستكشف فيه ليس الاتساع بل العمق، حتى لو راوحت في متر مربع واحد.»

بسّام حجّار

(١)

أن تحملَ العالم وتسعى به. أن تخبّئ الجمرة في قلبك، جمرة السّؤال الذي بعده الصّمت، لأن لا جواب يُشفي. أن تستنطق الصّمت حتى تُلبسه شكلًا وتمنحه روحًا، أن تصيره، عابرًا في أصقاع المكان وبُرَه الزمان وأنت في بيتك الصّغير، تنتقل من غرفة إلى غرفة، أو ترتاح إلى كرسيك أمام النافذة تراقب المساء والمارّة. أن تجعل من ألمك الشّخصيّ قميصًا يستر جرح العالم، أو تكثّف الفقدان ليكون تنويمة للّحظة المندحرة رغمًا عنك، أن تقيم «على العتبة، عند المفترق من كلّ شيء»، أن تكون بسّام حجّار فحسب، لا أكثر ولا أقل من ذلك، بكل ما للاسم من دلالة وبرهان بأن الفن بلسمٌ لعذاب أن تكون مرئيًا... إلخ

يمكن لهذه الكلمة بين يدي القارئ ألّا تنتهي أبدًا، ليس لأنّها مُقدّمة عن شاعرٍ استثنائي، مرّ كشهاب خاطف في سماء عتمتنا، أو محاولة في طلب رأي تغلفه الرؤية الذاتيّة، بل لكونها ببساطةِ رسالة في الحب، حب كاتب

بذلَ عمره في ترسيخ فن الشعر أسلوبًا وسلوكًا في حياته، وتركَ على ساحل مُحبّيه آثارًا أبعد من طاقة الموج على المحو والنسيان، وهي بعد ذلك، محاولةٌ بين حشد المتكلمين عن الشاعر وأعماله على الرغم من مشقة الإحاطة بكامل مضامين الشاعر ودلالات تجربته الواسعة.

جمع بسّام حجّار في شعره خصائص ظلت علامةً دلاليةً على فرادة لطالما نشدها كشافو الجوهر الإبداعي الذين قدموا برهانهم في الكتابة. كتب بسّام عن الهشاشة والصمت، عن الغياب والعائلة، وصعّد عمارة شعره على لبنة الفكر والفلسفة والإرث العالمي للشّعر، مُستندًا إلى ثقافة ورؤيا لا تعوزها اليقظة. هو شاعر القلة بمعنى أنه شاعر العمق لا الوفرة، الهمس لا الصراخ. قد تكون موضوعاته محدودة، لكنه عالجها بأنماط متنوعة من قصيدة النثر جعلت قصيدته حيوية ومرنة إزاء قارئ متباين المستوى. كان يتعامل مع اللغة بوصفها تجربة عيش. شعرُ بسّام فرصة لمراقبة التجربة المعاشة وهي تتحول إلى لغة. ولهذا فهي تجمع بين البساطة والعمق في آنٍ واحد.

على نحو ما، يمكن تقسيم تجربة بسّام إلى مراحل ثلاث، الأولى هي المرحلة التي اشتغل فيها على موضوعة العائلة والبيت وتكويناته، ولتكن مرحلة «**البيت**»، وقد تجلّت في أعمال حوّل فيها الشاعر موضوعات البيت ومفرداته إلى شكل شعري. وظهرت

في أعمال «لأروي كمن يخاف أن يرى»، «فقط لو يدك»، «مهن القسوة» وبانت تضاعيف لها في كتب أخر. أما المرحلة الثانية، **«النثر الخالص»**، فهي مرحلة الصعود بالشعر عبر تجريب إمكانات النثر الخالصة محققًا أنماطًا متنوعة في شكل قصيدة النثر وفق الشروط الفرنسيّة مُستفيدًا من الانفتاح على الفكر والفلسفة، وقد تركّزت أغلب أعمال هذه الفترة في تسعينيات القرن المنصرم وضمّت: «صحبة الظلال»، «مجرّد تعب»، «معجم الأشواق»، «كتاب الرمل». لتكون المرحلة الأخيرة، مرحلة **«الغياب»** التي جمع فيها الشاعر بين قصيدة النثر بشكلها الحرّ وبين الشكل الفرنسي، وقد طفحت موضوعات هذه المرحلة بالموت وحملت إيذان الشّاعر بسفره المبكر، وأُغرقت النصوص بطابع رثائي تميّز بتوتر لغويّ مرهف، شديد الإيحاء، كأن الشاعر وصل حينها للخلاصة وأدرك مراده فشفَّ وأمعن في الاختزال. وقد ضمّت كتب: «بضعة أشياء»، «ألبوم العائلة...»، «تفسير الرخام». على الرغم من تداخل بعض الأعمال وأزمنة كتابتها مثل كتابَي «بضعة أشياء» و«مجرّد تعب» اللذين يمثلان تجربتين مختلفتين فنيًا لكن الشاعر أشار في حوار بأنه كتبهما في فترة واحدة. مع ملاحظتين: أن كتابه الأوّل يُشكّل تجربة اختلفت لاحقًا كما يشيرُ بسّام نفسه، لذا فمن الصّعب إدراجه ضمن المراحل. والشيء الثاني أن بعض المراحل كانت مُمتدة وتتداخل أصداء لها في أعمال مراحل لاحقة،

خاصةً مواضيع البيت والعائلة والغياب/الموت التي شكّلت جوهر اشتغالات الشاعر ومُحترفه الذي ظلّ يعود إليه، حتى كأنك تجدهُ يكمل كتابة بعض النصوص التي كتبها سابقًا في كتب لاحقة أو أنه ينوّع ويستأنف الحديث عن مفردات كرّسها وعمق الكلام فيها مع الوقت، وقد حددها بنفسه في كتابه «كتاب الرمل»، وهي: «مفردة، غريب، درب، حكاية، ظل، أبي، صحراء، رمل، بئر، أثر، كتاب، معجم». ويمكن إضافة مفردات أُخرى تكررت في شغله ولم يذكرها مثل: «النافذة، الجدار، الزوجة، البنت، اليد» .

القارئ لأعمال بسّام كلّها سيشعر أنه يكتبُ حكايةً واحدة فحسب، كلّ كتابٍ جديد كان فصلًا جديدًا منها، غير أن الحكاية واحدة ومُستمرة، هل كان بسّام حجّار على تصورٍ مُسبق، إجمالي، من تجربته الشعريّة التي سيكتبها على مدار اثني عشر كتابًا في 26 عامًا؟

ما ميّز الشاعر، أنه انطلق من زاويته الخاصة، من حياته اليوميّة وشؤونه العائليّة، خوفه وأحلامه، توثبه وانكساره، ليرتفع بنصّه لمستويات من معالجة موضوعات شائكة وأسئلة مُلتبسة، وعاد لموضوعات بعينها مرّات ومرّات، وكان بإمكانه أن يقول فيها شيئًا جديدًا. لم يعجب بسّام بالشاعر الذي ينظر إلى العالم من فوق، لم يطلق «طريقة» أو أسّس «مشروعًا»، بل كانَ شاعرًا «أرضيًا» يتحركُ ضمن الحيز الذي يُرى ويُسمع ويُشم، الحيز العاديّ الذي نألفهُ ونتعايشُ معه

ونسناهُ لفرط الألفة، وكوّن منه نظامًا يستوعب أصعب الأسئلة وأكثرها غموضًا.

ركون بسّام إلى محيطه القريب لم يكن عن محض مُصادفة. كان يكتبُ عمّا يعرفه، بل يُدفع للكتابة استجابةً لآخر «لا أكتبُ إلّا وفي ذهني شخص ما يدفعني إلى المخاطرة في التعبير له عن أحاسيس»[1].

من يقرأ لبسّام يُحس بأنّه في دعوة لمناسبة عائليّة خاصّة، بأنّه دخل بسلاسة في لحم وعظام علاقات منزليّة شخصيّة قد لا تعنيه بشيء في بادئ الأمر، «سعال أب»، «حادث عرضي لأخت»، «حوارات جانبيّة مع ابنته»، شجن بشأن نافذة وستارة، نصوصٌ عن مفردات بيت متكررة وعاديّة ومحدودة، ولكنك وبالسلاسة نفسها ستجدُ نفسك بعد عدد من الصفحات مأخوذًا بالعالم الصّغير الذي انفتح أمامك، وأنك ـ بلا شعور مُتعمد ـ تتفاعل معه وتنفعل، تنسجم وتتأثر، تبكي حينًا وتتنفس الصّعداء حينًا آخر، تصيرُ جزءًا من هذه المنظومة، وتكتشفُ بعد نهاية القراءة بأن هذا العالم يُمكن أن يكون عالمك، أو أنه عالمك بالفعل، وأن بسّامًا، بشكل ما، كان يكتبُ حكايتك، أو أنك صاحب هذه الخطاطات وحدث أمر جعل هذه الأوراق تذهب مُصادفة لبسّام حجّار.

(٢)

جاءت مرحلة بسّام المميزة الأولى بعد صمت خمس

سنوات من إصدار كتابه البكر «مشاغل رجل هادئ جدًا» والذي أشار بأنه «منطلق تجربة اختلفت كثيرًا عنها الآن» وقد ضمّ نصوصًا مُثقلةً بالهمّ الإنساني وتقصّي خفايا الوجود وتصاريف العزلة كتبها شاعر في مقتبل تجربته، وأشرت على موهبة قادمة، جاءت المرحلة مع إصدار كتاب «لأروي كمن يخاف أن يرى» سنة (1985)، وهنا بدأ بسام يطرقُ بعض المواضيع الأثيرة التي رافقته حتى النهاية، مبتدئًا المرحلة التي أسميها مرحلة **«البيت»** في شعره، حيث المنزل وأشياؤه العينيّة محور يدور حوله عالم الشعر ودهشته، وقد اتخذ بسام شكل الشعر الحرّ للكتاب الذي استهله برثاء عمره «الثلاثون» الذي لم يعرف كيف وصله، مريضًا بالدهشة من الأيّام وهي تنقضي خاطفةً، بصمتٍ مُرعب:

«والذي لا أقوله هنا

يجده الأصدقاء في الأمثال

والحكم

في الأعوام

التي تسقط في الصندوق

كما يسقط رجل في النافذة».

عرف الشّعر العربي قصائد قليلة في تلك الفترة عن (الرواق، المائدة، الجدار، البئر، النافذة) غير أن الشاعر رفعها لمقام البطولة، جعلها مركزًا لنصوصه وحرّك العالم من حولها، تعامل معها بحواسه ولم يركن إلى الأفكار

المجرّدة، لقد مازجت تجاربه الكتابية حياته اليومية أو العكس، كان يرى كلّ واحدة في مرآة الثانية، البيت كانَ معبده، يهرع إليه حالما يقضي ساعات عمله، ويبتكر الأعذار في التمسّك به على الخروج إلى الشوارع الصاخبة، البيت يصنع الحياة، أو هو رحمها الآمن:

«كأن فكرة البيت تصنع المساء

كأن فكرة الملح تصنع

المائدة».

يميل الشاعر في قصائد هذا الكتاب، وأغلب نصوص المرحلة، لاستخدام لغة تجوس الموضوعات بتكثيف وتوتر يرقى أحيانًا إلى التأمّل والتجرد. اللغة صلبة متخلية عن البهرج ومُتاحة بقدر كافٍ لتلقٍّ يستفاد من تنوع الأنماط المستعملة في القصيدة.

هذه العوالم تواصلت في «**فقط لو يدك**» الذي هو بحق كتابُ العائلة، تحضر فيه مشاعر الأب تجاه الابنة والزوجة والمنزل. الابنة تحديدًا يفردُ لها فضاءً واسعًا ليستعير من عالمها إمكانات مُبتكرة للقول الشعري، جارى بسّام طفولة ابنته عبر نصوص بدت من فرط براءتها و«بكريّتها» كأن كاتبها طفل أيضًا، ولا عجب، فقد حافظَ هو على صفاء طفولته وحرسها بحجر العزلة وحجاب التواري.

«هل نقيمُ في السحابة الزرقاء

التي ترسمها مروى قرب اسمي

(...)

أسألك إذن

لماذا لا ترسمين العالم كله

لكي يتاح له أن يشبه شيئًا».

في عالمٍ عنيف، قاسٍ وعدواني، نهرعُ إلى حنيننا للطفولة، لتلك الجهالة البريئة ونعيمها، نندسّ في عوالمهم، نقلدهم وننسى معهم أسى الخارج ورعبه. وقتها، يضيعُ القياس، فلا نعرف أكنّا نحن من نحمي أطفالنا، أم إننا نحتمي بهم من خوفنا وغربتنا؟

وستظل الابنة طيفًا يُؤنس غرفَ نصوص الشاعر، وسترد في غير موضع بقادم كتبه:

«ترى الغبطة في عيني ابنتك الجميلتين وتقلد الغبطة». «مجرّد تعب».

بل سترافقه البنت لآخر اللحظات التي تخيّل فيها الشاعر مشهدَ موته في كتابه الأخير:

«وناديتُ ابنتي

لكي تطفئَ الضّوءَ

وتترك الباب مواربًا

لكي أسمع - إذا غفوتُ -

جلبة البيت من حولي

لكي لا أكون

على السرير

مَلكًا يموتُ

بمفرده»

اعتمد بسّام شكل الشعر الحرّ في الكتاب، ما عدا قصيدتين هما «فقط لو يدك» التي استخدم فيها المناجاة نمطًا وكشف عن بصيرة في مشاركة فكرة جوانية مع القارئ، فيما القصيدة الثانية «غرفة الخادمات» يختار وصفًا مشهديًا لغرفة ينتهي بتوتر سوريالي غير متوقع.

تراوحت النصوص الباقية بين لغة خلطت الرويّ والمناجاة والبوح النفسي، شعر صافٍ لا استعطاف فيه ولا شفقة، بل مديح طويل في الألم تحقيقًا لمواساة ربّما أو سلوان. ليس للمُتقلب في مجمرة عذابه غير الصّمت، لأن لا شكوى تُجدي، ولكن بأيّ لغة وأيّ أسلوب كان الممرور يطلبُ شفاءه:

«هلا وضعتِ يدكِ الصغيرة على قلبي لكي تزول عنه الصّحراء. لكي تهرب الذئاب منه وصدى قفارها».

اليد، علامة دالة وعنصر يتردد في المجموعة، يدُ الاستغاثة؟ أم اليد التي تلوّح لنا لتبدد كآبة العالم؟ أم الأيادي التي تُرى في الأحلام. يد الغائب، يد الحاضر أمامك فيما كل شيء فيه يتبدذ مع الوقت.

«لم أعد أبكي حين أراقب المطر يهطل في ليل العالم الذي يتسع وراء النافذة. لم أعد أرتجف خوفاً حين أستيقظ في الليل. وأرى أنني وحدي. بتُّ أرى الليل ظلّاً ليديك، يغمرني ولا أضل فيه والمصابيح

ذكرى من لمستها الخفيفة».

* * *

ولو كان للشعر أن يكون علاجًا، فإن ذلك يتجسّد في كتاب «**مهن القسوة**» الذي أمعن فيه بسّام في وصف الملموس حوله بلغة لا تعقيد فيها. وقد ضمّ الكتاب واحدة من قصائد الرثاء اللافتة، كتبها عن شقيقته التي قضت في حادث سير مأساوي تركَ جرحًا عميقًا في قلبه، وفتحَ باب المواجهة مع الموت. ظلت «دلال» النظير الشعري أو الطيف المُحبب الذي رافق نصوصه حتى النهاية، مُحتفظًا لها بحضورٍ شفيفٍ في القصيدة يُعوّض غيابها الفادح في الحياة، وفي ظني أن رحيل شقيقته أحدث تحولًا ليس في شعر بسّام فحسب، بل في نظرته للحياة ومعناها بشكل عام، فتوغل في تقشفه وشجنه أكثر، كمَن تنكسر في قلبه بهجة الحياة إلى الأبد آن يُدرك هشاشةَ ما حوله. وقد تحدث غير مرّة في حواراته عن أثر خسارته لها والذي لسوء الحظ تبعته خسارات أُخر في الحلقة القريبة للشاعر. لنتأمل هذه القطعة:

ولكن قولي هل بيتُك الآن أرحبُ؟

هل ثوبُك يرضيك؟

هل اشتريت الكعك المثلج والشموع

وزينة الميلاد المبكر هذا العام؟

أم إنك وحيدة؟

هل يأتي من يفتح النوافذ في الصباح

وينفض غبار الأواني والستائر

ويقول صباح الخير؟

أم إنك تنتظرين بصمت؟

هل أغمضت عيناً بالرقة التي تؤنس

الأمسية

أم إنك الآن ساهمة؟

نادي عليّ لكي أستيقظ

أو أسمع صوتاً

قولي كيف الصباحات هناك،

أودّ أن أذهب

لكن لا أعرف من يأخذني»...

وفي مكان آخر من القصيدة نقرأ:

«أعدك أن أنسى

عديني أنك، في الحجرة الضيقة

وحدك،

لن تخافي».

لم يكتب بسّام القصيدة هذه لكي يُبهر، أو يُحقق مُنجزًا شعريًا. كتبها لكي يشفى أو يحاول على الأقل، هذا الصّدق وحرارة اللوعة الإنسانيّة لا يعرفها إلّا الفاقد. نحن إزاء شاعر، الكتابة عنده علاج، غير معنيّ بالانضباط النقديّ والقواعد القارّة. هو شعر لنشدان

الخلاص، للصراخ. غائبة ولم يتخلّص من حضورها الملتبس، حاضرة ولكن كطيف متلاشٍ لا يكفي. إنه شعر لتهذيب الألم أو التفاوض معه، الألم الذي جعله عنوانًا لعشر قصائد متتالية مهّد لها بعتبة «آنا أخماتوفا»: «لا ليس أنا، إنه غيري من يتألم،/مثل هذا الألم لم يكن في طاقتي واحتمالي».

الموضوعة ذريعة بيد بسّام للبرهان على اقتراحه الفني، إنه يحول لمحات من سيرته إلى ميدان «تطبيقي» لاشتغاله الإبداعي.

(٣)

مفصلٌ من حكاية الشاعر مع الشعر كان توسيع معنى الكتابة الشعريّة، وهي المرحلة الثانية من تجربة الشاعر (**النثر الخالص**).

كان بسّام كاتبًا ذا طابع خاص، شغوفًا بالحرص على تقديم اقتراحات جديدة وفتح إمكانات قول خارج حدود المألوف لتنفتح على الأنواع الأدبيّة المختلفة وتنهلُ منها، مُدركًا بحكم اطّلاعه على النص الأجنبي من جهة، وثقافته ومعرفته بالموروث العربي من جهة ثانية، أن مفهوم الكتابة يتغير حول العالم، وأن الحدود تذوب بين الأجناس وتتداخل، وهو ما حاول تجريبه آن كتب أعمالًا كـ«**صحبة الظلال**» و«**مجرّد تعب**» و«**كتاب الرمل**» و«**مُعجم الأشواق**» وهي أعمال خاصّة. ذات طابع متفرد، تفيض بنثريتها ولكنها لا تفارق الشعر

وتسير على خطوط متوازية معه، فاتحةً آفاقًا لشعريّة تمزج الغنائيّة بالفكر والتأمّل والتداعي الداخلي في إطار أدبي ظل بسّام حريصًا على توسيع حدوده و«المجازفة» بإضافة تصورات جديدة واقتراح إمكانات للكتابة الشعريّة.

في عملَيه **«معجم الأشواق»** و**«كتاب الرمل»** يقدم بسّام نمطًا لقصيدة تتعامل مع المأثور بوصفه مجالاً تعبيريًا يمكن له إنتاج خلاصة شعريّة. فقد جرّب في الأوّل كتابة متواليات نصيّة تصف العشق (المحسوس) مستندةً على نصوص عربية مأثورة فاتحة مجالاً للتأمل والتفكير الشعري كنتيجة لهذا التثاقف. فيما تجربة **«كتاب الرمل»** كانت تواصلاً مزدوجًا بين الشاعر الواقعي (بسّام) مع الرمز الخيالي (بورخيس وكتابه الخرافة) وفق شكل نثري خالص لا يخفي بحثه المعجمي، مقدمًا نمطًا لحداثة شعرية «طازجة»، حقق فيه الشاعر امتزاجًا مع المأثور والمعجم، إذ لاحق جذور كلمات معينة وغاص في تأمل مصادرها وتحولاتها بحثًا وتأملًا لتحقيق الشعر كنتيجة إجمالية كليّة لا مجموع أجزاء.

لم يعنِ بسّام مراكمةَ الكتب عددًا بل مباشرة سيرته باستئنافات جديدة، ولم يهتم إن كانت هذه الأعمال ستلقى حماسًا من القارئ أم لا. كان في سباق مع نفسه قبل أيّ سباق آخر. سباق للفن، للرغبة في الابتكار والاجتراح مدفوعًا بقوّة التجربة الداخليّة.

ومن اللافت أنّه لم يُغرق شعره باستعراض ثقافته الشخصيّة واطلاعه إلّا في مرّات محدودة، وظل غالب ما كتبه مُتاحًا ليس للقراءة فحسب، بل لمجمل الحواس، كأنّ المكتوب كائنٌ حيٌ يتنفّس قربك، وبسّام يؤكد على أن نكتب المدن والقرى والبشر على أنها مدن وقرى وبشر لا استعاراتٍ لغويّة فحسب.

الملاحظة الجديرة بالذكر أيضًا أن تجربة الشاعر مع توسيع أفق الكتابة الشعريّة حاولت في بعض مراحلها الانطلاق من حساسية شكل وبناء تجدُ أصداءً لها في تجارب لأعمال عربيّة تراثيّة عملت (بقصدٍ أو من دونه) على خرق مفهوم الجنس وكوّنت نظامًا خاصًا بها يجمع أساليب فنيّة عدّة، من دون إغفال تكوين (طبيعة شكل) خاصّة. ويمكن لنا لمس شيء من التقارب بين «معجم الأشواق» وكتب اشتغلت على الموضوعة ذاتها «طوق الحمامة» لابن حزم على سبيل المثال لا الحصر، مع الأخذ بالفروقات الفنيّة بين العملين. وقد وفّر هذا التصور لقصيدة النثر العربيّة تحقيق نماذج جادة بشعر بسّام الذي عزز رصيد قصيدة تأخذ من النثر البحت، اليومي، الهامشي، «نثر الحياة» كما سمّاه، شعريتها المقنعة والمؤثرة.

يقول الناقد صبحي حديدي في مقاربة دالة: «بسّام حجّار بين قلّة قليلة من الشعراء العرب المعاصرين الذين يكتبون قصيدة النثر ويمكن لقصائدهم أن تسدي (خدمة) نوعية خاصة للدراسة النقديّة التي تسعي إلى

إنصاف جماليات قصيدة النثر، ليس عن طريق القفز مباشرة إلى بلاغة تنصيبها كخيار في الكتابة الشعريّة اكتسب شرعيته النوعيّة والكميّة والزمنيّة، بل قبلئذٍ عن طريق تناولها كإشكالية ما تزال عالقة في حقل القراءة العريضة والقارئ العريض[2]». وبالفعل كان الشاعر من المعنيين باستيلاد وتطوير أشكال وقنوات توصيل هذا النوع المتهم غالبًا بالنكران، وللقارئ أن يطلع على جهد الشاعر في «مجرّد تعب» مثلًا الذي يعدّ أنموذجًا في تجويد بسّام لقصيدة النثر العربيّة والمديات التي وصلتها على يديه.

(٤)

ربطت حادثة شقيقة الشاعر ووفاتها شعر بسّام بموضوعة الموت مبكرًا، وصار بؤرةً مركزيّةً في عالمه. كتب بسّام عنه كما لم يكتب عن شيء آخر، حاوره على مدى ثلاثين عامًا، ولم يخلُ كتاب له من خيط ممتد مع تجربة الموت، موت الآخرين والأشياء من حوله وموته الشخصي (تعرض الشاعر لحادث توفي على أثره لثوانٍ ثم أنعش قلبه وعاد إلى الحياة)، ظلّ يحدق في عينيه حتى كأنّه أمامه ويهجش أنفاسه كأنّه وراءه، كأن الحياة كلّها تمرينٌ في انتظار الموت، وقد تجرّع منه مرارات مبكرة ضمت الأخت والأب والزوجة. هكذا صار الموت هو الموضوع المهيمن على المرحلة الثالثة والأخيرة في حياة الشاعر، مرحلة **الغياب**، تلك التي ضمت ثلاثة كتب هي: «بضعة أشياء»، «ألبوم العائلة...»، «تفسير

الرخام».

«قالَ أتْبَعني

وما أحبَبتُ شيئًا

ألّا أماثَي

وأحياني كَطَيْفٍ

ثمّ

صارَ غَريبي».

وعلى الرغم من رهبة الموضوع وسوداويته إلّا أنه خلق حوارًا شفافًا معه، حواراً جعل من الشبح المخيف شأنًا يُكتبُ عنه بطمأنينة اليائس، ببروده، ولاأباليّته، كما يُكتب عن الطّاولة والباب والمشجب. وقد تفنن في مقاربته وجرّب أساليبَ وتقنياتٍ مُتعددةً بينها المناجاة والتداعي والرويّ وتبادل الضّمائر بين الحيّ والميّت، حتى يختلط على القارئ الأمر، تتعدد القراءات وتنفتح الرؤى على احتمالات واسعة.

في ظني، يُكرر الكاتب موضوعة ما وتطغى على باقي أفكاره وأحاسيسه حين تشكل ثقلًا على ذاته، كانت فكرة الموت تثقل بسامًا وترعبه، حتى لو كتب عنها بهدوء وحاول التسوية معها، هو يكررها لكي يعتادها، لكي يتقبلها أخيرًا، وهو شأن نفسي أيضًا، نفكر كثيرًا بالشؤون التي تخيفنا لعل تكرار التفكير يُفقدها هيبتها، ويجعلنا نتقبلها في النهاية، مرغمين، ولكن بعد أشواط من الدربة والتفكر استعدادًا للحظة المواجهة.

لقد عاش بسّام موته وتعايش معه، كمن ينتظر ضيفًا يعرف أنه سيأتي فيهيّئ له الطّاولة والسّرير والطّعام.

كتب الشاعر عن الموت ليدفع أشباحه عن تضاعيف نهاره وأرق ليله، ليبعده عن طقوسه اليوميّة: الجريدة والكتابة والترجمة وقراءة الصّحف في باص العودة إلى صيدا وترتيب المساء بما يليق. كتبَ لينسى أو يُنسى، كتب لينجو.

«ولم يمسك يدي لكنّه قال

امسَحِ الغبشَ عن عينيّ لأني إنْ رأيتُ

نجوتُ

والنجاةُ أمنيةُ الموتى

مُتُّ ولم أنجُ».

يلمش القارئ في نصوص مرحلة الغياب سيادة لنمط الحكاية، ثمة راوٍ يسرد بإيجاز في سياقات تراوح بين مراكمة الصور والمعنى من جانب وبين أنماط أخرى مثل تهجين القصيدة بأكثر من شكل كتابي، يلاحظ ذلك «في بضعة أشياء وألبوم العائلة» أو قصيدة الموضوع المركزي كما في «تفسير الرخام». في الغالب ثمة تدوين من أجل النسيان والتأقلم، كتابة هي استدراك لأحاسيس واستئناف لمشاعر وسؤال مسكون بالوحشة. في بعض النصوص نشعر بأن الكاتب عائدٌ من «الجوار المخيف» كما يسمي الشاعر الموت، لفرطِ جزالتها و(يقينيتها) وفي بعضها نشعرُ معه بدوّامة جهله/جهلنا الفادح إزاء هاوية الغموض تلك وسرّها. يعرف بسّام أن

لا رجاء مع الموت لذا واجهه باللامبالاة تارة وباليأس تارة أخرى:

«خُذني الآن

إذا كنت لا تأنف الركام

ولا تُمهلني عاماً آخر».

والموت حين يحوّل إلى شكل شعري فإنه يصبح حكاية كأيّ حكاية أخرى، تبقى بعد فناء أبطالها وغيابهم عن المسرح، كضوء ينطلق في وحشة العراء بلا سبيل.

«وأنّه ماتَ لأنّ الموت حكاية

والحكايةُ هي ما يبقى

أو ما يزول

أو ما يُروى».

* * *

في الكتاب ما قبل الأخير، «ألبوم العائلة يليه العابر في منظر ليلي لإدوارد هوبر» يقدم لنا الشاعر رؤية عن الحياة التي «تتبدى بمعنى ما دائمًا في صيغة الماضي»، يختار صورًا شخصيّة عائليّة، ويرى أنها ـ للمصادفة ـ صورٌ موجعة، لأنّها تضمُّ حياةً كان غائبًا عنها بشكل ما، وحتى حين يريد استعادتها فإنها ستظل ترفرف فوق سماء الغياب، فلا عودة للحظة انقضت، لذا يصير الغياب ذاته أمنية دفينة، علّ التواري يُنجي من سطوة الخسارة الفادحة. إنه دفع للغياب بالغياب، طقوسٌ استذكاريةٌ لاستجلاب الماضي بقوّة الكلمة:

«كأن صدى

يتردد في صوتي

وما عشت كان ذكريات».

وقد قدم الشاعر الكتاب بشكلين مختلفين، ضمّ القسم الأول شكل القصيدة الحرّة بلغة مقتضبة تستعرض الألبوم الشخصي ولقطاته، فيما كان القسم الثاني استرسالًا ومداورة وتعليقًا على صلة الشاعر بتلك اللقطات/اللحظات المنطفئة. كأن الكتاب قبس من سيرة، سيرة الكاتب، أو أشخاص آخرين تناولهم بصيغة الأنا، وقد استخدم فيه شكلي الشعر الحرّ والسطر الطويل في تناوب محدد.

وصف بسّام تجربة كتابته تلك: «كانت الكتابة نوعًا من المرآة التي أحببت أن أرى صورة الغياب فيها بوصفها أي الكتابة، التجلي الأكثر محسوسية للغياب»[3].

«كانت تحدّق في المكان البعيد

كأنها تراني

وكنتُ أعلم أني هناك

في المكان البعيد

حيث تراني»

ولم يغادر بسّام فيه المساحة الضيقة، المجربة، واللصيقة بجسده ومدار حركته، في الكتاب ترسيخ على عدم عقد صلات مع خارج «لا يني يتسع ويبتعد»،

الخارج «شتات مؤلم»، لا يستطيع وعي الشاعر المرهف أن يتحمله. كتابة هي إنصات لهاجس خوف الكائن الذي يستدل عليه بغريزة الحاسة والحاجة، بالبصيرة لا البصر.

***

أما في «تفسير الرخام» فنقفُ على ثلاثة نصوص طوال يكون الرثاء والموت سماءً لها، وهو ليس بجديد على شعره، غير أن الجديد في الكتاب هو مداولة الموت وتدويره بين الواقع والأسطورة، بين الحادثة والخيال، بين التجربة والصورة النمطيّة المجرّدة، يتخذ من الحجر (مستقر الجسد الأخير) موطنًا، دارةً بعيدةً، «أو ربما قلبي/وقد طالما ظننت أنه المنفى الذي اشتهيته بعيدًا». القصائد تتنقل بين عدة أنماط بسلاسة، تارة يقدم بسّام القصيدة ـ الحكاية وأخرى يجرب التطعيم بنصوص وشظايا من الأسطورة والمأثور، فيما يستعمل التأمّل في أكثر من موضع تجسيدًا للقول الشعريّ.

نرى الميت في النص الأوّل بطلًا يحكي قصة «الحجر/الضريح» بعين من عاد ليروي الفجيعة، وبصيرة من خاض تجربة العبور إلى الضّفة الأخرى:

«كأنني، في غفلةٍ، عَبَرْتُ

من ضفّةٍ إلى ضفّةٍ

وبينهما مياهُ النسيانِ»

ولا يلبث بسّام أن يأخذ بضمير المتكلم ليروي لنا

مجددًا عن الأخت والأب الراحلين في جدلية تبادل الضمائر التي تبلغ مدى واسعًا في هذا الكتاب. في «مزار بجانب الطريق» تستمرُ لعبة تبادل الأدوار، يُصممُ الشاعر متاهته للقارئ ليفخخَ النص بتأويلاتٍ متعددة فضمير المتكلم (أنا) الذي يفتتحُ النص:

«إنّي لا شيء/وحديثي عابرٌ/ مِثلي،/ بين عابرينَ،/ لذلكَ/ أتحدّثُ عنكَ»

ينقلبُ في النهاية إلى الضّد: «أنتَ لا شيءَ/ وحديثُكَ عابرٌ مثلك،/ بين عابرين/ لذلك/ أتحدّث عنّي». ليضفي على النص إبهامًا وارتباكًا يصبُ في صالحه جماليًا ويدفع القارئ إلى البحث أكثر، مُتقصّيًا لغة القصيدة ليحل الأحجية بنفسه.

وفي تصوير بارع لتعاقب البشر على مصيرهم يصوّر الشاعر القبور علاماتٍ ومزارات والجنازات إليها أسفارًا، ويرسمُ مشهدًا للأحياء وهم يمرّون بشواهد المقابر مستمرين في الرحلة، ساهين، فيما يُعدّ لهم على مهلٍ مستقرٌ بين تلك العلامات التي جازوها بسهو الغافلين.

أما النصُ الأخير فقد طبعه الشّاعر بالطّابع الشخصيّ، وفرش رمله بعنايةٍ ليقدم عرضًا عن مواجهة طيفيّة بينه وبين الشبح الذي رافقه طيلة حياته، لا تأمّل فيها ولا ندب، تحضر فيه أغلب موضوعات الشّاعر لتشكّل نشيدًا يختارُ له بسّام اللامبالاة خيارًا يمضي به عمرًا لا يفرّق إن زاد أيامًا أو أعوامًا «فلم يبقَ ما أصنعه برجائي... لم يبقَ ما أصنعه بمتسع اليوم، كلّ يوم».

وماذا يضيفُ الوقت آن يكون الوقت شاهدًا على الوحشة والألم والفجيعة. ينهض أحياء الشاعر وأمواته، تنهضُ جماداته المؤنسنة في بانوراما طللية باهرة يكون فيها الكاتب قائد الأوركسترا ومهندس الحركات عبر اللغة، اللغة التي لم يدرِ يومًا ما تقول، أليست اللغة هي التي تكتبنا في النهاية؟

«فلا أبالي

بلغةٍ وجدتها

في غضون عيش كباغت

ولمِ أدرِ يومًا

ماذا تقول لغة وجدتها،

مذهولة،

في غضون عيشي،

لمِ أدرِ يومًا

ماذا أقول»

هل من المصادفة أن يكون «تفسير الرخام» الذي خصّه بسّام لتجربة الموت آخر كتاب شعري يصدر لهُ في حياته؟

(٥)

«كنت أتساءل عن حاجة هذا الشاعر
إلى كتابة الشعر، وهو نفسه القصيدة
والتجسيد الحيّ لها.»

عيسى مخلوف واصفًا بسام حجار

يبدو أن ثمة علاقة غامضة بين السلوك الفردي للشاعر وطبيعة نصه الأدبي. هذا ما فكرت فيه على الأقل وأنا أتأمل تجربة بسام حجار، وقد أسهمت هذه العلاقة في تكوين «الأنموذج» الذي تركه الشاعر، وذكرها العديد من زملائه في شهاداتهم عنه وذكرياتهم معه، ويمكن تمييزها على قسمين: الأول، تعامله الحساس مع مسألة الظهور والأضواء، والثاني: السلوك الشخصي، وأقصد العادات وردّات الفعل. وسأبدأ منها.

ثمّة موازٍ آخر للشّعر المكتوب في الأوراق لا يقل تأثيرًا وأهميةً عنه ألا وهو سيرة المرء واتجاهه السلوكي، استجابته التي يبديها إزاء أيّ موقف أو كلمة يواجهها، السموّ الإنساني والرفعة الشخصيّة في التصرف، كلّ هذه الصفات وغيرها هي رديف ماديّ موازٍ للشعر لا غنى عنها، لأنه ينقل الشعر من ميدان الكلام الشفاهي إلى ميدان الواقع المعيوش. من اليسير أن تجد من يكتب الشعر، ونادرًا ما تجد من يتصرف كشاعر. ثمّة أناسٌ شعراء لكن بمواقفهم، بمسلكهم، بالطّريقة التي يُسلّمون فيها أو يطلبون شيئًا أو ينظرون. ستيفان زفايج يقول: «كان ريلكه شاعرًا حتى حين يغسل يديه». وبسام بشهادة كثيرين كان شاعرًا في مسلكه حاضرًا أو غائبًا. يقول يوسف بزّي: «معه كنا نتمرن على الدوام لنجاريه في الرقة والعذوبة والتواضع. ونتمرن بأن نكون «شعراء» لا في الكتابة،

إنما في التنفس والتحدث والسكوت. أن نكون أرهف وحقيقيين مثله قدر المستطاع»[4].

فيما يخص القسم الأول، فقد ظلت العزلة والصمت والتأمل والاغتراب من المفردات التي ركّز عليها الشاعر في الكثير من أعماله، ولم يكن هذا التركيز عن فراغ، كان الشاعر نفسه باطنيًا غائبًا ومُعتزلًا لبهرج الحياة الثقافية وضجيجها الفارغ، لم يُعرف بأنه من شعراء الضوء والشهرة وثقافة المهرجانات، لم يسعَ لجائزة أو ناضل في سبيل منصة أو أرهق نفسه بمنظومة علاقات ليصل باسمه إلى الصف الأول، لم يدخل لعبة العرض والطلب وقوائم المبيعات ولم يرتح للحشود. لم يعتنِ بالشكليات والإكسسوارات التي هي «زَبَد» في موج الفن والكتابة سرعان ما يتلاشى كأنه لم يكن. ففي وقت كان هناك من يتنعم ببريق الشهرة وفلاشات المصورين وفراهة كراسي الصدارة الثقافية، كان بسّام يكدح في أرضِ اللغة وتكدحهُ شغلًا وقراءةً وترجمةً واستغوارًا لأسرارها. كان يعرفُ بأن البقاء للنص لا غيره، أن اللعبة سرعان ما تنكشف والحشد لن يلبث أن ينفضّ والزمنُ غربال. فاختارَ الانضمام إلى عصبة الفانين في اللحظة الحاضرة، الحاضرين في آباد السنين المُتعاقبة من أشياخه الذين أحبهم: «أبا العلاء غفرًا وابن عربي والجرجاني... إلخ». لم يكن سلوك بسّام مصطنعًا وإلّا لانكشف سريعًا، بل كان حركةً طبيعية في السياق، مثل نبضة تسري في العروق، مثل خفق

النوارس فوق بحر صيدا، مدينته، كان النقشة الأجمل في السجادة التي ظل عمره ينسجها بتعب وإخلاص. هذا التخلي والزهد انعكس في نسيج كتابته التي مالت للتقشف والاختصار مذهبًا أسلوبيًا جعله يكتب بكلمات محدودة ومكررة أحيانًا قصائد خافتة صنعت فضاءً كبيرًا من الدهشة وكوّنت له صوتًا مُتفردًا في غابة الأصوات.

كانت عزلته «طبيعية»، وهي برأيي حاجة أصيلة في روح الفنان، تمامًا كفعل الكتابة، يُدفع إليها بدافع الصدق مع النفس، لذا لم يستمرئ بسّام ألاعيب «الاستعراض» السمج. ولأنه فعلٌ يأتي من حاجة أصيلة فإنه وجد من يستجيب له بواسطة هذه الحاجة نفسها، بلا إعلان أو دعوة، وهم قرّاؤه الذين ملؤوا غيابه الجسدي بحضور الاحتفاء والتذاكر والاهتمام المتصاعد عبر السنوات. ينتبه عباس بيضون، لهذه الملاحظة ويسجلها في مقالٍ بعد عام على غياب صديقه، يكتب: «لا يحتاج (ويقصد بسّام) إلى تكرار وحقن للذاكرة وتثبيت هذياني. كان أثر بسَام سخيًا معروضًا لمن يطلبونه ولمن يشعرون بأنه يلبّي حاجة لهم. كان موجودًا بمقدار هذه الحاجة ومن شعروا بها لم يتعبوا حتى وجدوه. لم يكن ابن التقديم والعرض بقدر ما كان ابن الحاجة المباشرة.(...) هذه العلاقة السريّة بين بسّام وطالبيه كانت شيئًا آخر غير ما يتكون في ساحة العرض المعروفة. علاقة سريّة ومباشرة وبدون وسطاء كثيرين. يذهب الطّالبون الى

النبع من أنفسهم تقودهم إليه حاجتهم ويصلون بقوة هذه الحاجة»[5].

(٦)

عرفت بسّام حجّار قبل أكثر من إحدى عشرة سنة، كنت قد اطلعت على أنطولوجيا للشعر اللبناني على الإنترنت، وقد شدتني النصوص القليلة، ذات الحساسية الخاصّة، التي قرأتها حين ذاك للرجل، وتركت في داخلي جرحًا لم يندمل، هو الجرح الذي يفتحه الشعر ليدخل النور إلى الروح بتعبير جلال الدين الرومي. من يقرأ لبسّام مرّة سيقع في فخّه إلى الأبد، ولن يشفى من هذه اللعنة الجميلة، لعنة النص الذي يحفر في الروح بعمق ويمنحك، في آنٍ، دفء الجمال وصقيع وحشة العالم العصيّ على التفسير. ومنذ ذلك الحين تسقطتُ كتبه وما يتعلّق به، فوجدتني أقع على مشقة كبيرة، ذلك أنه لم يكن يهتم بمتابعة إصداراته وتوزيعها والترويج لها، وهكذا كانت كتبه نادرة بل مفقودة بالمعنى الحرفي للكلمة، وخضت من أجل تجميعها رحلة استمرت العشر سنوات. كنت أوصي أيّ صديق يذهب إلى بيروت عن أعماله فيشقى بجولات في المكتبات ليعود من دون شيء. سنة بعد سنة لم أحصل سوى على أعمالٍ مُتفرقة غير كاملة، وكانت هذه الملاحظة هي الشكوى الأبرز لقرّائه أينما التقيتهم، أين كتب بسّام؟ لماذا لا تتوفر؟ لماذا لا تعاد طباعتها على الرغم من الاحتفاء بشعره ومرور عقدٍ تقريبًا على رحيله؟

وصلتُ إلى مرحلة أني فقدتُ الأمل في إيجاد بعض الأعمال بعد عشرات التوصيات والرسائل التي بعثتها لأشخاص عاصروه، بعضهم مَن هو بحكم صديق له. ثمّة كتب اضطرتني للسفر، كما حصل مع كتاب «مشاغل رجل هادئ جدًا» والذي علمت بوجوده في دار الكتب والوثائق الوطنيّة ببغداد فسافرتُ من البصرة لغرض نسخه، بعض الكتب سافرَ عبر باخرات وقطع الحدود عبر سيّارات تاكسي وسلّم من يدٍ إلى يد ليصل. هذه المعاناة تطرح سؤال الكتاب العربي في لحظتنا الراهنة والفشل الفادح في توزيعه وتداوله، إذ يكون الحصولُ على قطعة سلاحٍ أسهلُ من الحصول على كتاب ما.

كانت سعادتي بكل كتاب جديد أحصل عليه، سعادة مَن يعثر على كنز يعرفُ بأنه سيأخذ مكانًا في قلبه إلى الأبد. صرتُ مع كل كتاب أتعلّق به أكثر، صار صديقًا، لجأتُ إليه مرّات وساعدني مرّات. من قال بأن الكتاب لا يُنقذ، وأن من ترك كتابًا ناجحًا صار عصيًا على المحو، لا تحدّه حدود الزمن والمكان لأنه ينتمي لوطن الكلمة وزمانها.

لكن بعضَ الكتبِ ظلت مفقودة، حتى كأنها لم تُكتب، كأن بسّامًا تعمدَ أن يمحو أثره من بعده كما قال في «مهن القسوة»، أن يجعله عصيًا على الإمساك، كأنه لم يَكتُب، كأنه لم يكن.

من هنا بدأت فكرة إعادة طبع أعمال الراحل الحاضر، رغبة بردّ الجميل، ومن ضرورة باستعادة زهو الشعر،

الفن المحاصر اليوم من دور النشر وسوق الكتاب عبر واحد من علاماته المضيئة وهو بسّام حجّار، من حاجة لتوفير كتبه لقرّائه حيثما كانوا، أولاء الذين بالتأكيد عانوا مثلي ويعانون في البحث عن أعماله بين المكتبات، من ضرورة بأن يُكرّم بسّام حجّار ويُقرأ من جديد وعلى نطاق يليق به، ويقيناً بأن قراءته في هذين المجلدين سيترك تأثيرًا على من يطّلع عليهما شعراءَ كانوا أم قرّاء.

إن خطوة تقديم بسّام في مجموعة شعريّة كاملة هي محاولة في إدامة سؤال جدوى وأهمية تأمل تجربة شعريّة (كاملة). وعلى الرغم من حساسية المشروع حيث إن إصدار أعمال كاملة لشاعر عادةً تحتاج إلى تبريرات مقنعة، فقد سعت دار النشر (الرافدين) بجهد استثنائي أن تضع هذا الكتاب بين يدي قارئ يشاركها هذه المسؤولية بوصفه تجربة شعريّة فرضت جديتها على الشعر العربي عامةً واللبناني خاصة.

وفي هذه المناسبة يطيب لي شكر العزيزة نجلاء حمود، زوجة الشاعر، التي أعانتني كثيرًا في توفير ما ينقصني من كتبه والتي غمرت هذا الجهد المتواضع بلطفها وتعاونها ودعمها النبيل، وقد كان للوصول إليها قصّة تطول. كما أشكر الصّديق محمد هادي على تعاونه وحماسه في إتمام عملي والذي لم يرَ النور لولا إقدامه على تبنّيه. وأشير هنا أني التزمتُ بالمتن الشّعري الذي تركَهُ الراحل في كتبه، وأعدنا تنضيده كما هو، عدا

معالجة الأخطاء الطباعية، وعدا التغييرات البسيطة التي قام بها الشاعر نفسه على بعض النصوص حين أعاد طباعة ثلاث من مجموعاته الشعرية وأصدرها في مجلد واحد بعنوان «سوف تحيا من بعدي» عن المركز الثقافي العربي، وهي، على أيّ حال، تغييرات صغيرة ولا تتعدى بضع كلماتٍ. كما أني آثرت ترتيب الكتب الشعريّة في المجلدين بحسب سنوات نشرها في حياته، ولا يخفى على متابع أن المعلومات والمصادر المتاحة عن بسّام حجار شحيحة وتضعُ أيّ كاتب أو باحثٍ في حرج، فالرجل مُقلّ بالظهور والحوارات ولا معلومات بيلوغرافية وافية عنه، حتى صوره على شبكة الإنترنت تكاد لا تتجاوز أصابع اليدين. لذا ألتمس العذر عن أيّ تقصير أو نقص وأتحمله برحابة المحبين، متمنيًا أن يكون الكتاب مناسبة لإعادة سؤال الشعر وتأثيره الباهر في تفاصيل حياتنا الشاحبة، الغارقة في عالم العنف والميديا والمال، وأن تكون مناسبةً لتحية بسام، وبدء حوار جادّ حول تجربته، هذا الشّاعر الذي سوف يحيا مع شعره سنوات طويلة ويعبر به آمادًا بعيدة، فلو كان للشعر من جناح، فإن بسّامًا من مغارز ريشه الواثقة.

ولنسمعه معًا يهمسُ:

«ما أماتني الموتُ

لكنّهُ

أخياني طَيفاً

وأخياني ظِلّاً».

...

لعلّ الرسالة وصلت. لعلّ الرسالة تصل.

البصرة

تموز ـ أيلول ٢٠١٨

---

(1) حوار للشاعر مع طارق ذياب، نشر في جريدة الحياة اللبنانية، العدد (14056، 9/9/2001).

(2) جريدة القدس العربي، 26/2/2009.

(3) من حوار للشاعر مع إسكندر حبش، جريدة السفير اللبنانيّة، 18/2/2003.

(4) يوسف بزّي، في ذكرى بسّام حجّار، جريدة المستقبل، 15 /2/2015.

(5) عباس بيضون، «بسام حجار والغياب كحضور» جريدة السفير، 22 /2/2010.

مشاغل رجل هادئ جداً

١٩٨٠

الشِّيَر

تعب

أكلّما اهتديتُ إلى شجرة

سبقتني الخضرةُ إليها؟

أكلّما اهتديت إلى امرأة

تحتلّها الأسماء؟

أكلّما اهتديتُ إلى وجهي

سبقتني التجاعيد إليه؟

كيف تدخلُ الأرض

في دورتي الدموية

أطلق ضدّ الشعر كلاماً يسقطُ

كلاماً يُصيب؟

أصابعي قليلة،

وأحبّكِ

شفتايَ قليلتانِ

وأحبّك...

(كانون الثاني ١٩٧٩)

مشاغلُ رجل هادئ جداً

(إلى تيسير سبول)

رجل هادئ -

يرتّب أفكاراً هادئة

في غرفة للمشاغلِ العاديةِ

للطعامِ للنومِ للحبِّ

للألفةِ العائليةِ والخصامِ العائلي

للتطريز

للمحادثة

للانتحار.

فكّر أنّ الأفكار العائلية

تتسرّب من المطبخ

أنّ الأفكار الزرقاء

تهربُ من حراشفِ البحر المُعلّقِ

على أطراف النافذة.

أنّ الأفكار السوداء

تهجمُ من الإسفلتِ

وفحمِ الاحتفال

أنّ الأفكار البيضاء

لا تأتي إلّا مرة،

وفي أوّل العمر.

رتّب الرجلُ الهادئ

على الطاولة الهادئة

أربعاً وعشرين حرباً

ومسدساً

وهدنة وحيدة.

لم يفكر.

فقط، سالت الأفكار اللزجةُ الحمراء

فقط، سال هدوء يذكر بغرفةِ النوم

فقط، هجرت العائلة مائدةَ الطّعام

باستياء شديد.

حزن الأصدقاء لهذا الموت المشاغب

ولكن،

باختصار.

(أول أيار ـ ١٩٧٩)

سيرة ذاتية لكائنات بشار بن برد

١ ـ سيرة الحجر

ذاهل،

يا بشّار،

أطفئ مصابيحَ عينيك

أطفئ الشجر المضيء في أوّل الجفاف

أطفئ التعب المضيء

ودحرج الأيّام التاكيةَ كحجر

يسقط في منحدر

يسقط في ذاكرةِ الحجر

٢ ـ سيرةُ الطريق

ذاهل، يا بشّار،

كرجل ذاهل

لفَّ الظهيرة البلهاء في صرة

احمل عاهةَ الشمس

واتبع خطاك:

ملك بلا قدمين يظلُّ ملكاً بلا قدمين

٣ ـ سيرة الأخلاط

ذاهل يا بشّار،

اللغة أنثاكَ،

ولك من المفرداتِ أزواج وأحابيل

ولك الجنادب والأصيضُ

فاخرج على الكلام بدرعِ الصمت

واخرج على الوقت

ولا تكن غير الهباء

واعلم:

القلب صورة القلب

الغراب صورة القلب

وأيضاً

الفلاة صورة القلب

٤ـ سيرة العيون

احمل عاهة الشمس / عورة الفضاء

كن الكفاف واتبع خطاك

للملكِ عينان

وجارية،

أطفئ العينين،

وحدها الأصابعُ مسكونة بالضوء

وحدها الأصابعُ منارةُ الأجساد.

٥ـ سيرةُ الشاعر

ولدتهُ أحمر كالغض المصفوع

ثمّ،

نكاية بالدركي،

صار شاعراً

أعني إرهابياً

أو

لا شيء.

(١٦ آذار ١٩٧٩)

محاولة لإسقاط رأس مُنحرف

١

الآن،

أضع رأسي جانباً

وأتحدث عن أشياء نافلة أخرى:

أبيع خردتي لسماسرة أحبُّهم

كما تعوّدتُ أن أحبّ أبي

ولا أنسى أنس

أن أربط صوتي

على بوّابة جارنا السمكري

لأني أحبُّه

ولأني أخالف لصوص المحلّة

بتفاصيل

لا شأن لأمي بها.

ولا أنسى أنس

أن أعتذر لمسدسِ صديقي

الّذي كان، رغم تجهمه

ناصع القلب،

ولكن لم أجرؤ...

وربما في العطلة القادمة.

الآن،

أحزم الحقائب

وقبل المودعين،

عناوين الأصدقاء والمطاعم الرخيصة

وأرمي برأسي على قارعةِ النوم.

٢

يبهت الضوءُ

وتذوبُ سمكةُ العين

في مياه داكنة.

(هل يفرشُ النعاش طعمه السكري

فتقفزُ مائدةُ الأصدقاء

ويهرعُ النادف بفاكهةِ منتصف الليل؟)

٣

يبهتُ الضوءُ

فيعتمر الرأسُ خوذة النمل

قيل إنّه حائر:

أحياناً

يقتلع شوكة الحرب من وسادته

وأحياناً

يقتلع شوكة رأسه من وسادة الحرب.

(صيدا ـ حزيران ـ ١٩٧٩)

الوصايا

الوصايا

مُذْ قدميك الباردتين إلى قلبي

ثمَّ دعهم يتناهبون ذهبَ أسنانك

ذهبَ الخزانةِ:

الأطباء

الخدم

الأصدقاء

لحظةُ التغرغر بماءِ الصحو

لحظةُ خلعِ الحذاء الثقيل

مرّة، لنمتدح أقدامنا

لنمتدحَ السعال الّذي تخنقه الرئات

مرة، لنمتدح البكاء الّذي تشربه بئر العيون.

لنمتدح التجاعيد

داء المفاصل

البول الأحمر

والبواسير

لنمتدح هروبنا من الهراوة إلى الهراوة.

لنمتدح خوفَنا

الحجر الّذي يختصر شهوتنا وفضاءَنا

المعابرَ والزواريب والجسور

المدن الغريبة / المدن الصديقة

أصابعنا الّتي لا تهرب منّا

فنهربُ إليها

لنمتدح الشعراءَ قبل أن نقتلهم بحنان بالغ

لنمتدح المسافةَ قبل أن تضمر

اللحظةَ لأنّ اللحظة

في النومِ قطار

لنمتدح الأبوابَ الواجمة

الأبواب الضاحكة

الأبواب الغامضة

وجوهنا الّتي ألفت دمامتنا

الوهم الّذي صنعَ شذوذنا

لنمتدح شذوذنا إليه

لنمتدح الوقت الّذي يسبقنا إلى أعمارنا.

* * *

ثمّ ماذا تخفي غابةُ النيكل والمطاط؟

كعادتهم

المارةُ لا يلتفتون إلى قبر من الإسمنت

يتنقّل بخفةِ الرذاذ

بين كتفيّ والإشارات الملوّنة.

ـ أصنع المدينة عندما أتعب

دهاليز وأكواماً من الحجارة

وأسأل أيّام العطل

عن الصبّار الّذي ينبت بين الشقوق:

بين فمي ولساني

ـ أصنع المدينة عندما أتعبُ

لقدماء المحاربين بمعاطِف الجوخ والأزرار

المزركشة

للحزنِ الّذي يتردّدُ ـ بأيّ حال ـ

كصرخة في بئر.

ـ لكن أين أضعُ قبري الثقيل؟

عندما أتعب ولا أصنعُ المدينة

ـ أبتلعُ قبري وأشعر بدفء وأمشي

ناطحة سحاب تعتلي سطح المدينةِ

وتبكي.

حدث هذا فجأة

عندما كفّت الغربانُ عن التحليق وحدثتني بلغةِ

الغربان: نقيق بليغ

سواد بليغ

ـ لكن كيف أحكي قبراً: إسمنت بليغ

خواء بليغ

ـ ولغة الروح؟

أطنان من الخردةِ

وأنتيكات المزابلِ

تترسبُ في الشهيقِ

وتنتشرُ في الزفير.

وهذا،

كعادته، رأس

عندما أصنعُ المدينةَ

يعتلي مدخنة فيلتبسُ عليّ الأمر:

(عندما أنامُ، لا أدري لماذا يعبقُ رأسي

بالدخان)

(باريس أواخر ١٩٧٩)

يا حطب الأصدقاء

يركضُ الجسدُ في الهدوء الملكي

كمهرة ملكية

يتسلَّقُ البكاءَ المهرَّجَ

وتنهضُ الجنازةُ كعانس

ترفلُ بأنوثةِ الحدادِ

والطبول

ذكر الاحتفال الموقَّع.

ماذا تفعلُ الحشودُ

بعظامنا المنشّاة كحجر فوسفوري

وجماجمنا المدلاةِ

من سقيفةِ النعاس

بأحلامنا المنمشة

ووحشتنا المنتصبة في العراءِ

كأرومات محترقة؟

تحتشدُ جِراءُ الضحكِ في الأقفال

وتلمع أسنان العاشقات

(يا بحرُ

لا تصدِّق خداعك المفلوش

كرائحةِ الزوجِ

يا حدائقُ

لا تصدقي عصافيرك الباهتة

ويا حشوذ

أحكمي حصار البنج

لتدخل الأطراف في سكون الأطراف

وتدخل العيونُ في غبشِ العيون).

* * *

... وكنتُ أسوِّي تجاعيد يوم مضى

وأسرِّح كفيِّ كجراء هزيلة

(يا حطب الأصدقاء

يا جمر السعادة

كيف أحمل جثة محمَّد

كشمس باردة

وأنسجُ غيابي

خيطاً يشتبكُ برداءِ وليد...؟

يا حطبَ الأصدقاء

كيف أجمعُ روحي على الناصيةِ

أقايضُ عينيّ بعكّازين

وزوجي بعلبةِ ثقاب.

كيف أهوي بعينين جارحتين

وأجمع حطبَ الأصدقاءِ

أشعلهُ وأسأل:

قصيدتي سوداء كالماعز

فمن يقتل عني هذي القصيدة؟

١٩٧٩

اللافتة

أعلمُ أنَّ وقتي عاجل

وأني مكثتُ طويلاً تحت شاربي المتعبين

أنَّ أسناني صفر

وجميلة كالخيانة

أنَّ فمي يشرد إلى آخر الكلام

كي ينبتَ اسمُكِ

في جنةِ الكلام

كزهرة وحيدة

أتمدّد صرخة مروسة في هدنة العصفور

أهرِّبُ رعشة مزهوةَ الانكسار

إلى رخام نابض،

هل نشعلُ البرية بدم آخر العصافير

كي يستقيم صرخُ المدائحِ

وتهتزُّ أعرافُ الرجولة كالطبول؟

هل تستقيم الحروفُ

كأخيلة منتصفِ الليل

تتكوّرُ كالجماجمِ

تتورّمُ

ولا تصل إلى عتبةِ هذا الحنين الشاهق؟

هل نطلق رصاصَ التجربةِ

على هذا الرأس الهادئ

أم نفرغُ أحشاءَ الساعة

من العقارب والمواعيد والغبار؟

أستمهل وقتاً عاجلاً

وأعلم أنَّ هذا الموت يشبهني

في التفاصيلِ الصغيرة

فلماذا يموتُ الجبل واقفاً

في حضرةِ النهر

ولماذا لا تقتلنا الأعشاب المسالمة

الجمعة: مروحةُ الغبار،

السبت: احتفال مهجور،

الأحد: بيت من العواء...

إلخ...

أقرأ البياض على ورق دافئ كالضريح

أستمهل الضريح

أقرأ تعب الصباحات في الصحفِ اليومية

ولا أغسل وجهي من دبق المواعيد الفائتة

أستمهل الضريح

وأعلم كم هو مرعب

أن تسرِّحَ الأحلام العالقة بِشعرِكِ

وأسنانك

وأن تزجر غرابَ عينيك

هذا حنيني

يَخِبُّ

كالحصاةِ في جرّةِ الليلِ الفارغة

ويعوي

في داخلي وعر موحش

أسمعُ خوار العام

ويؤرّخني الحص البتول:

1955: ألف عرجاء تكسر فرمان الولادة
1970: أحذية وأحلام مثقوبة
1975: صنّاجة الحرب
1979: الحرب أيضاً...
إلخ...

لذلك،

أستمهلُ وقتاً عاجلاً

أربطُ العام بأليافِ العام،

أجمع خردة الروح وأصرخُ أحوالي:

لا الشاهدة تكتبني ولا الملهاة

أتهجّى لافتة الغياب

«أنا الغياب، العظيم» من يعرفني؟

(صيدا ـ آذار ١٩٧٩)

قصيدة أنتِ

دائماً تسقطُ في حفرة الندمِ

الّتي يحفرها صديقي الندم

وأقف

مفرداً كمعصية

بين أن أحبكِ وأحبك.

قلتُ:

أقلّد صيفَ الأصابع

لاكتب قصيدة

أو

لاكتب شرفة قدميكِ

وأغسل العتبةَ بعسلِ بكائي.

ولكن،

كيف ألمّع المرآةَ

وأحفر نبضي عميقاً

في رخامِ الوقت؟

أدلفُ كشحّاذ

إلى خبزِ ضجركِ اليومي.

كيف يُهدَرُ نبيذُكِ الإباحي

على موائدِ العائلةِ.

وأنتِ المخبوءةُ في الجرار

لأعراس تفكُّ أزرارها

تخلع الرقص من قدميها كجورب قديم.

وأنتِ المخبوءةُ في الجرار

نبيذاً صالحاً في كلّ أوان

لحكمة باطلة،

في كلّ أوان!

المقالات

حلوى القطارات الّتي تسبقني

(إلى حمزة عبود)

كنت أعتقد دائماً

أنني وصلث متأخراً

وإلّا

كيف تكبرني ثيابي بسنتينِ على الأقل

وكيف لا تنبت لحيتي

بينما أبي يواصلُ شجاره المعتاد

يحملُ أوراق الحكومةِ وشعره الدهني

يذهبُ مبتسماً

ويعود مبتسماً

فتنشغلُ أمي بالفارقِ الطفيفِ بين الابتسامتين.

دائماً

كنثُ أعتقد أنني أصل متأخراً

أخافُ أن يسبقني شيء ما

قطار ما

(رغمَ أنني لستُ كثير الأسفار)

وأخاف أن أذهب

لا أجد المحطة

فلا أسافر

أو أجدها

ولا أسافرُ أيضاً

كيف يكون السفر

حين ترحلُ العيونُ

ويبقى السفر مترسباً كبلّور الضحكاتِ

على أرضِ المقاهي؟

كيف يكون السفرُ إيماءة في البعيد

حين ترحلُ المحطاتُ

وتبقى القطاراتُ الغريبة.

هذه حكاية...

لولا أنَّ المسافرين أنصبة من القشِّ

تتدلى الحقائقُ الثقيلةُ من أكمامهم

الهواءُ يصفرُ في تخاريم معاطفهم

وتسلخُ الغربانُ على أكتافهم

رجل لا يحب السفر

يشربُ بعينيهِ دخان المقهى

أردافُ الساقيةِ في المقهى

رجل يطيلُ الانتظار

لتسبقهُ القطاراتُ عمداً.

هذه حكاية...

لولا أنَّ المدنَ قبيحة عندما نصل إليها

وأنَّ المدنَ الفاتنةَ هي الّتي

سبقتنا، إليها، القطارات،

(باريس ـ تموز ١٩٧٩)

مائية يوسف مسعود

(إلى أبي)

ينحدرُ

متثاقلاً، من أعرقِ الحروبِ والمقاعد

أبي

الّذي يطوي شغالَهُ في ذاكرة من سنة 58

وأبي

الّذي يصعدُ في ورمِ قدميهِ

عمراً من القداديسِ والذكريات.

حين يأتي مساء،

يفرك اليباسَ في عينيه البعيدتين

ويُحصي الجنازةَ

باكراً،

قبلَ أن ينام.

لكن

ما الّذي يحدثُ في سنة أخرى

عندما يُقلعُ أبي

عن عادةِ الأعمار والجنازات؟

ماذا نفعلُ بقبّعتهِ الصارمة

ومناديله المطوية في الأدراج؟

ماذا نفعلُ بكثير من الخساراتِ

وقلب قليل؟

كيف نخترعُ خوفاً

يليقُ بكفيهِ الأنيقتين

وغضبهِ الّذي يرنُّ في الرواق؟

هل نشتاقُه بشيء من الخجل.

نهرعُ إلى طرقِ ضحكتهِ

على النوافذِ والجدران

أم نصنعُ حرباً لنياشينه

الّتي تهترئُ في عراء التذكار

هل نقرعُ نُحاس صمتهِ

بمطرقة المدائح

أم نذهبُ،

حُفاة،

إلى نومِهِ السطحي

نسمعُ قرقعةَ العظام والأفكار

وننصبُ أشراكَ الحكمة؟

* * *

كم عمراً يضيعُ بين شتاءين؟

كأنَّهُ لا يُحصي فَمَهُ

ولا يرفعُ الوقتَ إلى حاجبيه

بينما

ساعةُ الحائط

تهدرُها العقاربُ كلَّ يوم

وصمتهُ يُرهقُ العتبة.

كم عمراً يضيعُ بين شتاءين؟

كأننا لا نصلُ إلى غيابِهِ

فنعلِّقُ الأسئلةَ الهفوات

وكأننا نمشي

في أعمارنا

***

ما الّذي يجعلُ من معطفه

زائراً معلّقاً في الردهةِ

وفي غفلة الأحاديث؟

هل نجمعُ أصابعهُ في إناء

ونقلّمُ أنفاسهُ المتعبة

أم نتراجعُ عن قدميهِ

كحصن

يهدم أسواره،

يشقُّ قمصانه المعدنية،

ويستبدلُ الرايةَ بمنديل.

لكن

ما الّذي يحدثُ في سنة أخرى،

عندما نتعبُ منهُ

نرحَلُ عن كفّيه

وننتظرُ شيئاً غامضاً شيئاً غامضاً

يشبه قلباً أو جنازة؟

كيف نسبقُ خطواته الّتي تهرم كثيراً

حين يتدلّى من قامتهِ إلينا

يُدحرجُ زَبوةَ القديمَ على المصطبة

ويُعلّقُ مساءَ الخيرِ على المشجبِ

القريب؟

كأنّه رجل يهربُ في أعمارنا المسنّة

كأنّه امرأة تهربُ في أعمارنا المسنّة.

(صيدا ـ نيسان / أيار ١٩٨٠)

المقالات

١ ـ مقالة الجنّاز:

1

ماذا في صباحِ الأحد؟

أملاحُ النومِ على طرف الجفن

والبارحةُ

طعم كريه في الفم

2

لِسانُكَ سمكة تسبَحُ في «أكواريوم»

نبضُكَ طبل فارغ

عندما تتعبُ

تأنسُ إلى جنّاز صديق.

3

عمَّر الخلاءُ قبراً في الخلاء

صار حديقة

لعب الأولادُ فيه وصاحوا:

يا خالتي الحربُ

أعيدي لنا أكياسَنا

وأقدامنا الناحلة

أعيدي اللصوص إلى نومنا العميق.

4

حُطامنا المكدّس على المقاعد

حُطامنا الملقى على عربة الهذيان

حُطامنا السخيف.

5

هذا الصباحُ فاسد

والصباحاتُ القادمة أيضاً:

إني أعترضُ نباحاً.

٢ ـ مقالة البئر:

1

فمي أعمق من بئر

لماذا الجفافُ يحزِّمُ لساني؟

2

حين أفردتُ لمصطبتي

أفكاراً وسوراً من تنك المعلّبات

ما كنتُ أعلمُ أنّ حطّاباً وأحذية سميكة

يجزُها القيظ والأولاد.

ما كنتُ أحسبُ أنّ الشتاءَ داهية

كالثعالبِ الّتي تبيعُ فروتها

وتتقاعدُ من الحنكةِ والسياج؟

3

فمي أحمق ثرثار

فمي يسيلُ في خابيةِ العَسل.

٣ ـ مقالة الروح

1

بياض

على مساحةِ الروح

نتسخُ

ننشرُ عفنَ الصفحاتِ في شمسِ المحابر.

نكذبُ

كأصدقاء يلتقون على الطاولةِ ويفترقون

نموث

كأعداء يلتقون في القلبِ ويفترقون.

2

منارة

على مساحة الروح

نستدرجُ بحراً وأسماكاً إليها،

نغفو على الورقِ

وتنمو حراشفنا.

3

نأتي

كلٌّ بضحكتهِ،

نلتقي في الأحاديثِ والعرقِ والمناشير

إذن

نفترقُ كلَّ مساء.

4

جفاف

على مساحةِ الروح

ثمَّ

من يكونُ الشعراء.

(صيدا ـ بدايات ١٩٨٠)

فانتازيا

فانتازيا

1

ينهضُ القلبُ بأعباءِ القلبِ

كبغالِ المهرِّبين.

2

يدُكِ على صدري

ـ ماذا تقولُ الأصابعُ؟

تنحني على تعبي

كجارية.

3

أطرق باباً

أشحذُ تفاصيلَ نومِكِ كالغرباء.

4

أحبُّكِ

وأحبُّكَ أيضاً.

5

يدُكِ مرة أخيرة.

أعاشرُ أسنانَكِ البيضاء سيدةَ الحمائم.

6

لم يبق لي غير أحزاني البلاستيكية.

7

يستطيلُ صوتُهُ كالهراوة

فقط حين يحزن

أعني: دائماً يحزن...

8

غداً سأحاول أن أحبّ وجهي

في المرآة.

9

كلّما أحببتكم تزدادون موتاً

ربّما

لأنّ محبتي غُراب.

10

لن أكتب لكم،

لأنّ أصابعي القليلة

تنامُ،

ضجراً،

في شعري المتسخ.

11

من يقرع طبول الصدغين

أنا

والشرطي

يتخاصمانِ محبتي.

12

هذه هي المرة الأخيرة الّتي أكتب فيها

أنّ حزني طويل كشارع مقفر.

المرة القادمة،

ستكون الأخيرة أيضاً،

أنّ حزني طويل...

(صيدا ـ ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩)

جثة بسام حجار

جثة بسام حجّار الأنيق

(إلى رينيه)

معلّق

كالستائرِ المثقوبةِ

في مسرح قديم،

ينزُّ الهواءُ الفاترُ منها،

ويكرجُ البكاءُ

والضحكُ السمينُ

على ثناياها المتعبات.

معلّق

كأهداب معلّقة فوقَ

مشاجبِ الانتظار الشاهق،

لأجفاني صرير

يشبهُ انغلاقَ الصدى

في خطى الحارسِ الليليّ،

في الهواءِ الضريرِ

كجسر لا يصل اليابسةَ بأيّ مكان،

كيابسة تلحسُ أقدام الجسور الموحلةِ

بدهشة غريبة

يسقطُ الضحِكُ في الفصل الأوّلِ

مهرّجاً

مهرّجاً

(أترقّمُ خلية

خلية

وأسقطُ في الفصلِ الأخيرِ

عضواً

عضواً)

موتي أليف

وغامر كيديك الصغيرتين

وجثتي أنيقة كجثتي.

منذ عناقين

وحرب واحدة

تبادلني الممثلون في أسرّتهم

أقنعة وزخارف،

وكنتُ وحيداً

أذهبُ إلى وجهي

مرحّباً

فلا يعرفني وجهي وأحزن.

وكنتُ وحيداً،

أذهبُ إلى عينيّ

فتلبسني الزخارفُ

وأنْصُبُ كفي مليكةَ المذاري

ومليكة القش.

هل يصدقُ من هو مثلي؟

معلّق

كالستائرِ المحايدة

في زحمةِ التصفيق والهتاف

(يتكوّمُ المهرّجُ

في قُبّة الضحك

ويقتله المتفرجون فرحاً وإعجاباً،

يشكرُهم

ثم ينهضُ معتذراً،

في الموتِ لا تلزمنا زينةُ العيون

ولا تلزمنا الأقدامُ والصور التذكارية،

في الموتِ لا يلزمنا أن نلعبَ فكاهةَ الموتِ

النظيفِ كأسنان نظيفة)

لكن

هل يصدقُ من هو مثلي

يصقلُ عينيه بصوّانِ الغضب

ويفركُ أعطافَه بخلِّ الندمِ

وينحني للإضاءة الجنائزيةِ

كبحار منكّسةِ الأسماك.

هل تصدقُ نعامةُ جسدي،

فتدفنَ الصحراءَ في رأسها المرتَّبِ

كالمجلّدات؟

معلّق

كالغبار على شفا الغبار

فمن يغسل دمي

بدم أجمل منهُ،

ومن يحارب موتي

بموت أكثر حنكة

ويقتلني

فأمنحهُ جثة أنيقة كجثتي.

لحظة واحدة،

تكفهرُّ الخشبةُ ويتفخّمُ الضوء

(يهربُ الممثلون في أدوارهم وشهرتهم

وتهربُ الممثلاتُ في اكتنازِ

الضحك البعيد.)

ينهضُ المهرّجُ معتذراً،

يُرمِّمُ أنفه المتورم بحمرة مبالغة،

يُرتقُ قلبَه ونعليهِ المبالغين

ويقتلُ المتفرجين

ـ فرداً فرداً ـ

ثمّ يبكي،

في الموت لا يلزمنا أن نحبّ ما لا نحب

ولا تلزمنا الأقدامُ

والحقائبُ

والأسنانُ وفرشاة الأسنان،

في الموتِ لا تلزمنا مفكرةُ الجيبِ

والمواعيدُ

والمجلداتُ

وغرف النومِ

والمائدة.

في الموتِ نتقدّمُ خطوة واحدة،

ثمّ

خطوة واحدة،

ندخلُ باختصار شديد،

نحيّي الواقفين والجالسينَ والنيام

نسدل الستائرَ خلفنا،

نقفل الأبواب والنوافذ والأحلامَ والعيون،

نطفئ الذاكرةَ المضيئةَ

في الرواقِ الطويل،

ثمّ

ديداناً سعيدة.

(صيدا ٢٦ ـ ٣ ـ ١٩٧٩)

خمس قصائد

(إلى رينيه)

1

ما الّذي يومئُ في استراحة يديك

كأنّك تكبرين في العمرِ الّذي

يرفعُ عيناً على الشوكِ

ورئة في الماء.

كأنّ العمر يكبرُ فيك

يتعلّم حرفاً وينسى قاموس الحروبِ الطويلة.

2

ماذا يفعلُ الرجلُ الّذي ينسى

كلّما نظر إليكِ،

أنّ اسمه مأسور في المرآة...

كلّما رأى باباً

يصعدُ في رأسِهِ جدار.

3

كم هو حبُّكِ

كأني لا أجد وقتاً على الطاولة

ولا أكبر في صُدفةِ المساء.

كيف أنجو من فمك؟

4

العناقُ

يملأُ الغرفةَ والمقعد

يملأُ الأواني والرفوف والطاولة

العناقُ يملأُ النافذة.

5

الكلام بئرُ الكلام.

انظروا كيف أرسبُ في فمي

وأروي:

(صيدا ـ تموز ١٩٨٠)

الردهة

كأنّها تسقطُ في نومِ الساهرين

تنفضُ الدخانَ والهمسَ إلى الغرفةِ المجاورة.

ألفةُ الأشياء تدفعُ الأشياءَ.

إلى ظلالها،

والأسرّةُ تنتظرُ العائدين إليها

من الضوءِ

والأحاديثِ

والوجوهِ المتفرّقة.

كيف نجمعُ الكأسَ إلى حطامِها؟

الكؤوسُ تحفظُ في البقايا صدى الارتشاف

ظِلّ الرجلِ الّذي ينكسرُ في زاويةِ الحائط

الستائرُ الّتي تصدُّ الشارعَ

والأقدام الغريبة.

النافذة.

اليد الّتي تقشعُ ظلّها.

المصافحة الّتي تغلقُ الضحكةَ الأخيرة.

الباب،

الأرائك والمقعد الخشبي.

ظِلّ الرجلِ الّذي يخرجُ من النافذة.

ظِلّ الرجلِ الّذي يعودُ

كما في المرّةِ السابقة.

ظِلَّ الرجلِ الّذي لا يعود.

كانت أسنان تلمع

وعيون تطردُ النعاسَ والتعبَ

إلى يوم آخر.

(آب ١٩٨٠)

لأروي كمن يخاف أنْ يرى

١٩٨٥

الثلاثون

لم أقل

إنّ الثلاثين عمر تافه،

إنّ ضجري مِن الهواة وأصحاب المِهن

يفوقه ضجري منكم،

مِن الساعة التي تُرهِقُ الحائط بالدوران،

لَمْ أقُلْ كلاماً عريقاً

عن الملوك والحكم

عن الشعراء

والقادة الذين يدخلون في الأعمار

ولا يحدث أنْ تنشقّ يابسة،

أو يموت تنينٌ في النبع.

لم أقُلْ

إنّ أحداً لا يفتقد

رجلاً في الثلاثين

عندما يخسر شيئاً من شَعره

وشيئاً من أسنانه

وشيئاً من الجدار

والنافذة،

إنّ الرجل في الثلاثين

طيّبٌ وتافه،

بغلٌ يتنزّه بحملٍ من القشّ والثياب

ويدخل في الصداع

والنوم الأبيض

والوظيفة.

لم أقل

إنّ الشخص الذي يقف في ثيابي

مثل بابٍ أو حارس

لم يدفع أعوامَه

لم ينكسر حتى الثلاثين عمداً

لم يغتسل للمناسبة

لم يشترِ معطفاً أو قبعةً

لم يفرد ابتسامةً عريضة

وكفّاً لمصافحة الوافدين.

والذي لا أقوله هنا

يجده الأصدقاء في الأمثال

والحِكَم،

في الأعوام

التي تسقط في الصندوق

كما يسقط الرجل في النافذة

كما يذهب الأحبّة إلى المقهى

أو الشجار

أو الموت.

لم أقل

إنّ النافذة تنام واقفة

لم أقل إنّ الباب

والشتاء يدوم من الليل إلى الليل

من الصيف إلى الصيف

بينما

أظافر الرجل الذي يقف

على عتبة الثلاثين

تذبح الحديقة

والأبنية الشاهقة

وفي الثلاثين

لا ينتقل جبلٌ من مكانه

ولا تنتهي حروب وتندلع أخرى.

إذاً

نُطفِئ أشواك الثلاثين معاً

والحكمةُ الماثلة في الاحتفال

مثل دقيقة صمت

نحشر قلوبنا في الفسوخ

التي تحدثها قهقهات المساء

ونكرع الخسارة

معاً.

مَن يفتقد رجلاً في الثلاثين؟

مَن يخيط إلى نومه

رقعةَ الخوفِ والأخيلة الصفراء؟

مَن يفتح باب الرجل

ويرمي الفضلات لروحه المنكسرة؟

كأنّ الثلاثين تسقط

في صندوق مقفل:

شرائط الزينة

أنتيكات الأعراس

السترة المطرّزة بالذهب

قبعة المخمل

النحاس

الخزانة التي تحفظ جوفها القديم

الحانات

الطريق الساحلي

الرسائل المطوية على نفسها

جثث الأعوام والحشرات

كرات النفتالين

وردة مكبوسة في كتاب

موعد فائت موعد مبكر

موعدٌ منسيٌ في كتاب

إذاً

نرتجل حريقاً في أعشابنا اليابسة

نسمع طقطقةً

ونرى دخاناً.

إذاً

نبحث في رماد الثلاثين

عن الفضلات

والمعدن المطروق باللمعان.

ماذا نفعل

بأكوام الحجارة

بأكوام العظام؟

ماذا نفعل بالفضلات

والثلاثين عمراً تافهاً

وضجري

يدخل في عمرِ الأمثال...

(تشرين الثاني ١٩٨٠)

منازل

المائدة

-١-

نضع قلوبنا على الطاولة

عندما

نأتي في العزلة

كالخطايا.

-٢-

نغيب في ساعةِ من الضحك

والأفكار

كأنّ فكرة البيت تصنع المساء

كأنّ فكرة الملح تصنعُ

المائدة.

الأخطاء

- ١ -

أضعُ رأسي على حلمِ قدميكِ

أضع يداً للإساءة

قلباً للندم.

- ٢ -

كم جسداً لكِ في الخزانة.

كم ضحكةً في الأدراج.

- ٣ -

تتبعك المدرسة

ويتبعكِ التلميذُ

حتى منتصف العالم

لو أنَّ التلميذ يغادر

يديك

وثوبك

لو أنّه يغادر الأخطاء.

- ٤ -

ما الذي يجعلُ نومَكِ

هادئاً

مثل تفاحة

تنهضين

يطلع الصباخ من السرير.

(تشرين الثاني ١٩٨٠)

البئر

كلُّ هذا الهدوء لا يخفي شيئاً

من الحكمةِ

أو الحزن.

فقط شخصان يتقابلان في ليلةٍ

مضجرة

ينظران إلى نقطةٍ في الجدران المتقابلة

إلى نقطةٍ في الهدوءِ الضيّق.

مُكعّباتُ الضوءِ التي تتراصفُ في

الزجاجِ المحجّر.

الوقتُ الذي يجفُّ على الطاولة.

الأسماءُ والمدن والصلوات التي

تيبسُ في الحلقِ

وتتكسر.

شخصان يتذكران كمن يرفع

جثةَ الماءِ من البئر.

فقط شخصان يتقابلان

واحدهما يقعُ في صمتِ الآخر.

الرواق

عندما أتى المساءُ الصديق

وجلس أمامي يُدخِّن غليونَه الكبير

لم أقُل شيئاً.

كانت الجدران تُحدِّث نفسَها

عن التعبِ والوقت

والغرفة الباردة.

كان الرِواقُ يتثاءبُ من فمِهِ

المُربَّع.

التمثال

لم تكن الأمكنة مريحة

لذلك لم يدخل من الباب الأمامي،

لم يشرب النخب الأوّل

والنخب الأخير،

كان يسير إلى زاوية ضيّقة،

يَصِلُ كأنّه لمْ يغادر

كان ساهماً.

التمثالُ

في الليلةِ الماضية.

(آذار ١٩٨١)

منازل

(إلى عمر وهبه)

-١-

لا يجلو غبش الزجاج المرصّع

بأضواء بعيدة،

غير مطرٍ خفيف

ينهمرُ على الساحلِ الضيّقِ

لهذه الحجرة.

كأنّ الرجال الذين عادوا إلى

منازلهم

يَعبُرون الهواءَ الثقيلَ بين الحجارةِ

والأواني المتّسخة،

الأولاد الذين يجمعون النحاسَ

والعثراتِ

في أكياسٍ كبيرة.

جلبة الحصى في منحدراتِ النوم

والفم الذي يجرشُ الهواء.

أقرب من الشارعِ رجلٌ يعبرُ عتمةَ

الشارع،

أبعد من النافذةِ رجلٌ يصحبُ ظلّهُ

الثقيل.

- ٢ -

الهواء المقفلُ

والأجسامُ الغريبة التي ترسبُ في النومِ

وتظنُّ أنّها أفكار تتريّثُ

في البهوِ

ثمّ تنصرف.

- ٣ -

خدمٌ يمسحون البلاط

لا يأبهون

لزجاجِ النافذةِ المكسور.

- ٤ -

كان هذا يحدثُ

في الخارجِ

خلف البيت

لولا

بعض الركامِ

والضجرِ

والمآتم.

- ٥ -

لا نفتقدُ أحداً،

نقفُ خلف النافذة:

نرى

أننا في عراءِ الشارعِ

في الليلِ

تحت المطر.

(نيسان ١٩٨١)

جدار

شخصٌ

من الحجارةِ والكلس

تفضَحه الرطوبةُ

والشقوق

كَمَن يتكلَّم في نومِهِ.

(أيار ١٩٨١)

إضاءات

الصباح الذي يرمي حجراً

ويخطئ النافذة.

مطاحن الضوءِ

تفتُّ ذهباً على البلاط.

ثوبُك الذي يُغمى عليه

فتكرج الضحكات حتّى العتبة.

هل أسمع صخب الثنايا؟

أم أنّكِ تخيطين ثوباً من

الضحكِ

والإغماء.

المرأة الصغيرة

والأبواب العالية.

المرأة الصغيرة

التي تعبرُ بحذائها الخشبي

بقعةَ النوم الكبيرة

وتنفضُ المجرّاتِ التي تُغلَقُ.

(تموز ١٩٨١)

ركام

ما عدا الهواء

وصخب الشارع

كلُّ شيءٍ هنا.

أنا والستائر والكراسي والكؤوس

حشدٌ من المُلصِقين

والآخرون غادروا

أو ذهبوا إلى المغاسل

يمسحون البقايا عن الخزفِ الترابي

الذي يشبهُ وجوههم

وريثما يعودون

كلُّ شيءٍ هنا.

الثيابُ المطويّة في الخزانةِ

والراديو الذي يتحدّث كالعارفين.

معهم

أو وحدي

مع الكراسي والستائر والكؤوس

والثياب المرتبة بإتقان

والسرير الذي يبعد خطوتين

أو ميلين

قبل أنْ أصل إليه.

كلُّ شيءٍ هنا.

كما في عطلة الأسبوع،

الزمامير

وعامل التنظيفات

والمرأة المكوَّمة في معطفِها الأسود

كالصرَّة.

الجرس

والأصداء المكتومة لقدمٍ تخرجُ

من النومِ إلى برودةِ البلاطِ.

أطيافٌ مشوشةٌ

لظلٍّ يضمر في الزاويةِ

أو ينكسرُ بقعتين مظلمتين.

كائناتٌ

كثير من كائناتِ الخشبِ والكُروم

والصوفِ المزركش

بينما المساء

كالحبرِ السائلِ يَيبسُ على الجدران

كلُّ شيءٍ هنا.

أجزاءٌ متقنةٌ للفراغِ الذي

يسندُ هذا الركام.

(تشرين الثاني ١٩٨١)

أرواح

كأنّ الباب

(إذ يُغلق في الصباح)

مقفلٌ على ذاته.

الداخل يَعتمُ

والشراشف الزرقاء

تحفظ شيئاً منكِ

كالرطوبة.

اللوحة

والمنضدة الصغيرة،

درف الخزانة والجوارير،

كلُّ الأرواحِ الخشبية المائلةِ

ينخرها سوسُ النوم.

نافذة

هل تسمعُ كيف يطحن الصمتُ

تلّةً من الدقائق

أو تمشي؟

الغرفة تنتهي بعد خطوتين،

والنافذة

(تأتي الخادمة في الصباح،

تعلّق النافذة على الحائط،

ترتب الهواء والسرير

وتضع لك على الطاولة

الكوب والمنفضة وزجاجة المياه المعدنية).

تمشي؟

لا أحد يمسك يدكِ إلى النوم أو

إلى المصيدة

والخادمة تنسى هذا النهار

أنْ تضع النافذة في مكانها.

(لايبزغ ـ تشرين الثاني ١٩٨١)

حقائب

هل تعرف الذين غادروا

مقلعَ هذا النهار

وناموا خلف الردم

ليختبئوا من نهارٍ آخر؟

هل تعرف الألم

الذي ينتابك

حين تعود إلى الهواء المطبق

كأنَّ الغرفة أشباحُ أمكنة

تغصُّ بالجموعِ الملفَّقة

والضحكات

وأشخاص الموبيليا والملابس.

(كانون الثاني ١٩٨٢)

الظل

الصباحُ يطرده إلى الخلف

كروحٍ مدنَسة

أو يوثِق أطرافَه بأقدامِ السابلةِ

تجرّه طنابر الباعة والخادمات

فيبتلُّ في الفسحاتِ الرطبة للحوانيت،

يَيبسُ

وشعارات البويا

على الجدران

يتضاءل

إذا تحضنُهُ الستائر في البيوت

أو ترخي الحوانيتُ

نسيجَها البرتقالي

يغفو على العتبة

كالعائد من الوظيفة

عابرون يلمحونه بين

المصابيح

إذْ يعثر كلبٌ

في ليلِ المدينة.

(آذار ١٩٨٢)

في الخطأ والصواب

(إلى عبده وازن)

-١-

الأنفاس الضيقة

لجالسين في الغرف

في الأقبية الطويلة

لنظراتٍ داكنة

حيث الأرواح التالفة

لمعاقين وعجائز

حيث هذا الرأس

المؤثث بالعتمة

والنفتالين.

-٢-

الممراتُ الطويلة

وأنتَ تمشي

هل تُخطِئ عمرك

كلّما اقتربت

كلّما نظرتَ إلى النافذة التي تبتعد

التي تبتعد

وأنتَ تمشي

الممرات الطويلة...

- ٣ -

لكنّ الحنان الذي كالأشخاص

في الخطأ والصواب

لكنّ القلوب

التي في العراء

أرومة بشرٍ وأعمارٍ وبيوت.

(آب ١٩٨٢)

الحفارون

ما الذي تفعله الأيدي الحاذقة

أيدي رجالٍ ونساء

هم مثلنا

حفّارون

حين كانت

روح الحفرةِ تظهرُ

في هيئةِ خِلد.

الحفّارون

الذين مثلنا

وجدوا نفقاً

غرفةً مضاءةً في نفق،

رجلاً ينتظرُ امرأةً تنتظرُ

في الغرفة المضاءة،

امرأةً تصنعُ رجلاً يصنعُ امرأةً

في الغرفة المضاءة،

رجلاً وامرأةً وحيدين معاً

كثيرين معاً

في الغرفة المضاءة.

وقت نفسده

شتاء [١]

(إلى مروى)

كم يبدو حزيناً

حين يُصغي إلى نومك:

يسمع كلاماً

صَفقةَ بابٍ

وخطواتٍ تبتعد

تبتسمين

حين يقع صمتٌ بينكما

كأنَّ ثلاثين عاماً

بينكما، الآن، دون أنْ يدري

كم يبدو بعيداً

في المساء

حين تنامين في السرير

الذي مِن عُمرِك

ويصعد أصحابُكِ

كلٌّ إلى علبتهِ

على الرفوف.

كم يبدو وحيداً

عندما يحكي نفسه

على الورقِ الأبيض

وفي المساء

يتعب قلبُه قليلاً

ويجلس في العتمةِ

التي من عمرهِ

كم يكون بارداً

وبينكما الآن

ثلاثون شتاء.

(شباط ١٩٨٣)

التتخيتة

(إلى مروى)

-١-

عتمةٌ كالتفلِ في الزوايا

أكياش القناني الفارغة.

أحذيةٌ

وثيابٌ

ومرايا يابسة.

رذاذ الكلسِ على الجدران الواطئة والسقف.

صلبانٌ

وبراويز.

عذراءُ ورؤوس قديسين من خشب الجوز

والجفصين

مجلداتٌ سميكة.

من يدلّكِ؟

يداي مُظلمتان

-٢-

لو لغة بيننا

أو رسالة

أو شجار

فقط أُخبرك

كم عمراً بيننا

لنهرم به

وننسى.

- ٣ -

كيف الطريقُ إلى نومِك؟

مَشيتُ كثيراً

لمْ أجِدْ تفاحةً مضاءة.

لحظات

(إلى محمد أبي سمرا)

صباح الخير

لم يطلع الصباحُ ليكون خيراً،

لكنّ الرجل لمْ ينَمْ

كان صباح الخير هاجسَه

لمْ ينَمْ

لكنّه شرب كثيراً

ورأى مِنَ النافذة العالية

كلاباً تتخاصمُ

شجرةً ما تزال هنا من السنة الماضية

مصابيحَ تنزُّ ضوءاً خافتاً

ورأى

أنّ أحداً لا يمرُّ

وأنّ الوقت متأخر

والنوافذ تعتم كالمربّعات

فتنعش البيوتُ وتنطفئ

وتتوالى جَلَبةُ الأقفال وتحذش الأبوابُ

بالوحشة القادمة.

يُصغي:

الفناءُ الخارجيُّ لا يتكُّ

كأنَّ الضوءَ الأتوماتيكي تعطّل حتى الصباح،

الدرج الصامتُ وفي جنباتِهِ

أكياسُ النفاياتِ وعقبُ سيكارة لم

يُكمل احتراقَه كأنَّ آخرَ الساهرين

داهمه الوقتُ

على باب المصعد

وخلّف شيئاً من عطر ما بعد الحلاقة.

لمْ يَنَمْ

لم يكن الليل طويلاً.

فقط

لحظات من نزهاته الصامتة

بين الغرف والمطبخ والرواق،

لحظاتٌ مِنَ التدخينِ وأوجاعِ الصدر،

لحظاتٌ مِنَ البرودةِ، مِنَ الأفكارِ السوداء،

لحظاتٌ مِنَ التعبِ والتثاؤبِ والاسترخاء،

لحظاتٌ مِنَ الكرسيِّ مِنَ الطاولة

مِن صحيفةِ البارحة

مِن رسائلِ «جيروم»

لحظاتٌ من اللحظاتِ الأخيرة

لرجلٍ نامَ في ثيابه

(تشرين الأوّل ١٩٨١)

شتاء [٢]

(إلى علوية صبح)

-١-

لن يذهب أحدٌ إلى موعدِه.
المياومون ألغوا الأرصفة
ومعهم الشتاء.
القادةُ أكثر بهجةً
حين قالوا: التوابيث
استراحاتُ الموتى والأصدقاء.

-٢-

مَن يعرف الشتاءَ مثلي
لا يحزن.
يَجمعُ الحطبَ الذي في قلبِهِ
يتدفّأ
ويحترق.

-٣-

الشتاءُ ليس صعباً:
المطر والسعال ورأس السنة.
إذاً لا أفتحُ البابَ أو النافذة.
لستُ سعيداً.

العاصفة فقط.

- ٤ -

البرد؟
يكفي أنْ أشعِل ناراً
في البيت
في الشارعِ
أو في أرومات هذه البلاد.
يكفي أنْ أشعِل الدفاتر والصور التي أحبّها
في آخرِ الليل
البرد؟
شعورٌ خاطئ.

- ٥ -

أعدُّ الشتاءات لأعرف أين أصبحتُ الآن.
هي الثلاثون حقّاً.
صدقيني
لا أعرف كيف وصلت.

- ٦ -

من النافذة لا أستطيع أنْ أعرفَ
هل الليل.
قطعةُ بلّورٍ تُطفِئُ نَفْسَها.
مِن النافذة الأشياء ليست هي الأشياء.

ترى؟

أمْ عيناك تهذيان.

(أواخر كانون الأول ١٩٨٤)

الراوي

طبعاً

لستُ أنا الراوي

ولستُ الذئبَ

ولستُ بابَ الحديقة

لا أعرف، قبل الخاتمةِ،

كيف تموتون

بخيبةِ من يفوتُه

قطارُ الواحدة

وينتظرُ

قطار الواحدةِ والنصف.

طبعاً

لستُ أنا من ينتظر

لأنني لم أكتب حتّى رسالة

لتصلني بعد عام

فأفرحُ بها

لأنني انتظرتُ

ولأنني لم أغدُ خائباً

هذه المرّة،

ولأنّ أنا من يصنع العقاربَ

ويسكُ ميناءَ الساعةِ

لأعرف كم الوقتُ يمضي

وكما لا وقت عندي

لأرمي ما تبقى

من النافذةِ

أو تحت الطاولة

فلا ينتبه الكلابُ

والباعةُ

والتلاميذ.

طبعاً

لست أنا الراوي

ولستُ من ينسج

خيطاً لعناكب روحي

في الظلام،

لأروي

كمَنْ يخافُ أنْ يرى

لأرى

كمن يخاف أن يروي،

لأعرف

كيف أوقِظُ أرواحكم

الصامتة

وأجعَلُ مِن ضحكاتكم

مُتحفاً

للأصداءِ البعيدة،

لأروي

كلاماً يشبهُ ما يُروى

في النومِ

أفكاراً تشبه ما تحلمُ

بهِ الأفكارُ

ولستُ أنا الراوي

لأعرف كيف أشبهكُمْ

في نومِكمْ

وحين تستيقظون.

حين تنبشون رأسي

وتقولون: ما أقبحَ

هذه الزهريّة،

حين تنبشون يدي

وتقولون: ما أجمل

هذا الشمعدان

حين تنبشون جثّتي

وتقولون: هذا هو الراوي

ولكنْ

لستُ أنا الراوي

ولستُ أعرف

الآنَ

ماذا

يجدي

هذا الكلام

(شباط ١٩٨٣)

يباس

لا نستطيع أن نقول

إنّ الضوءَ الّذي يسيلُ

رخواً

بألوانه الصُمغيةِ

وحشراته

هو النهارُ الّذي يبدأ

فالنوافذُ مُغلقةٌ

والبيوتُ ترخي ظلالَها

على الأحياءِ الّتي تلتقي

بالمصادفة.

لا نستطيع أنْ نقولَ

إنّهم صعدوا إلى رَدْهاتِ

التنفّسِ

والانتظار

إنهم تبعوا النبضَ الذي

يجرُّ أثقالَه

بطيئاً

حتّى الصباح.

لا نستطيع أنْ نقول

إنهم دُعوا إلى

المناماتِ الطويلةِ

لرجالٍ

يقفون على السيقان المبتورةِ

لرغباتهم

إنّهم رأوا

سِككاً

تحفرُ في وعرِ أبصارهم

والأيادي تفرك

الأرضَ بالأملاح.

لا نستطيع أنْ نقولَ

إنهم كانوا سعداء

أو محظوظين

حين كانت أنفاسُ

القليلين منهم

ترتفع كالعيدانِ

فوق مساحة المياه.

جبلٌ

كلّما شهقوا

يباس

كلّما رأوا.

(حزيران ١٩٨٣)

الساعة الفارغة

لا رِداءَ يمنعُ الغفوةَ والظلال

ينتظرُك صمتٌ

والشموعُ على المائدةِ

أعمقُ من بحر.

هل يكفي أنْ تحيّهم

لكي لا تتبعك

أرواحهم كالمصابيح؟

لم يعد وقتٌ في ساعةِ الحائط

لا ثمرَ ينضجُ

لا شيء يموت.

نهار قديم

لا أحد يطيقُ سعادةَ الحائطِ

حتى الخادمة.

صورةُ الرجلِ على الحائط.

صورةُ المرأةِ على الحائط.

كأنّ النهار لم يغادر.

كأنّه منذ الأمس.

كراهية

لو كان هذا الجذعُ قلباً

لأحبّني

لو كان هذا القلبُ جذعاً

لانتظرَ الحطّاب.

عجائز

كانوا ساهمين

يحدّقون في الفراغِ الذي أمامهم

على العتبة

تجلش ظلالٌ لهم

فتيّة

كأنها أشباح عمرٍ سابق.

كانوا يهرمون بقلقٍ وريبة

تيبس قلوبُهم

على رؤوسِ أصابعهم.

امرأة أخرى

تأتي

لا لتقترب.

نبدأ كلّ يوم بأن نفترق

هي، لا أدري إلى أين

وأنا لأهيئ فراقَ اليومِ التالي.

كأنّ فمها بعيدٌ

وجسمها أكثر مما أحتمل

أكثر مما أستطيع.

تنام

لأرى

لأغلق الباب ورائي.

رجل آخر

(إلى حسن داود)

هل ينتهي كلُّ شيء

يتركون الكؤوس والمقاعدَ

وأبقى، هنا، وحدي

لأطفئ الضوءَ وأنام.

ماذا لو كانوا وراء الأبوابِ

أو خلف الستائرِ

ينتظرون

وبعد أنْ أغمضَ عينيّ

يبدأ الليل في غيابي.

مروى

لا تنام

تبتسم وعيناها مغمضتان

كأنّ الليلَ لونهُ أحمر

كأنّه حديقة حيوان.

ليل آخر

المفضةُ السائلة

والضوءُ ثنيةٌ

على السرير

تتجمّع في التجويف الدافئِ بعد

لجسدٍ غادر منذ لحظة

والقطراتُ تتناثرُ

بين طرفِ الخزانة الداخلي

وفتحةِ الباب

كأنّ النائمَ الذي يُعتمُ رأسه

ويخليه العابرون

والقاطرات

خرج الآن

ولم تجفّ خطواته على البلاط.

(كانون الثاني ١٩٨٤)

أحاديث خافتة

- ١ -

لستُ راغباً في الكلام

لكنّ العين لا تحرّكُ المياهَ في اللوحة.

البيتُ مُطفأٌ

الهواءُ ضرير.

- ٢ -

لم تكن بعيدة

السماء التي تجمع بيننا

كنّا نرفعُ الأنفاقَ من التراب

ونرى أشياء غامضةً في القبور.

- ٣ -

قليلٌ من الكلام

يرفع عنّي الجماهير والبلاد

لم أكن خاطئاً

فقط كنتُ هنا.

- ٤ -

الوقتُ كمن يهذي.

الساعةُ عقربانِ وميناء.

وقتٌ للكتابة عن الوقت.

- ٥ -

الوقتُ

لكي نحبّ.

لكي نكره.

توأمانِ على السرير

يتعانقان

لكي يدوم ليل.

- ٦ -

أقلُّ ممّا ينبغي

صباحُ هذه النافذة.

- ٧ -

اقتربي

لم أعُدْ جارحاً

أو حنوناً

لم أعُدْ شيئاً

أنتظر انقضاءَ الوقت.

- ٨ -

أصغيتُ:

همسٌ يدبُّ كالقوائمِ الضئيلةِ

للحشرات

قلبٌ معتمٌ كالفحم.

- ٩ -

اقتربي

أحسُ أنّ ما بيننا

بئرٌ

تنظرُ -

عندما نُحبُ - إلى اعماقها

اقتربي

لكي لا نقع في دوارها

لكي

لا

نموت

من الرغبة

- ١٠ -

هل أجِدُ في الأعوامِ

التي مضتْ

في الأعوامِ التي

سوف تمضي

مكاناً

أرحب من هذه النافذة

أضأل من هذا المقعد.

هُم

تأخذُهم الشوارعُ والأبنيةُ

والمفترقات،

أنا

أرى كيف لا ينتهي

هذا المنظرُ المملّ.

ـ ١١ ـ

كنت بكيث

أو أقلعث عن أيّ شيء

فقط لو أعرف لماذا.

ـ ١٢ ـ

يتعانقان لكي تخفي وجهَها

لكي يخفي وجهَهُ

ليظلّا وحيدين.

ـ ١٣ ـ

حين يتكلّمان

لا ينظر واحدهما إلى وجهِ الآخر.

هي تجمعُ طرفَ القماشِ بين ركبتيها

وهو يواصل الحديثَ كمن يتذكّر

شيئاً بصعوبة.

كان البيث نظيفاً

والثياب مرتبةٌ

وكان الزائرون يلاحظون هذه السعادة

ويذهبون...

كانت الأموزُ تحدثُ عاديّةً في الخارج

كان الباعة يمرّونَ

والابنةُ نائمةٌ

كانت الأبوابُ موصدةً

والساعةُ تدقُّ

وحين يتكلمان

لا ينظر واحدُهما إلى خوفِ الآخر.

هي تجمع طرفَ القماشِ بين ركبتيها

وهو يواصل الحديث كمن يتذكّر

شيئاً بصعوبة.

ـ ١٤ ـ

هذه بداية. قُل:

ليس هذا ما كنت أودّ قوله

كأني من مكانٍ آخر

كأني زوجي أو صديقي

أو جاري الذي مات في الأربعين.

ـ ١٥ ـ

لمَ لا يُصغي أحدٌ منكم

حين أقول:

ـ ١٦ ـ

اذهبوا إلى الحربِ

أو إلى الجحيم

فقط

أغلقوا البابَ وراءكم.

(حزيران ١٩٨٤)

ظلال لأيدينا

-١-

الأشجارُ وثمارُها

ظلالٌ لأيدينا

الحفرةُ

والصحراءُ

والغابةُ

أيضاً

فقط حين يقودنا النهارُ إليها

بأقدامِه المشمسة

-٢-

الخطواتُ بذارُ الأرض

الرحلةُ دائماً

عندما الأيدي إلى الثمارِ

الناضجةِ

إلى الغيمةِ المعصورةِ في الفم

القطرةُ

التي تسيلُ على الشفةِ الجافة

-٣-

الرقّةُ

ظلالٌ لأيدينا

بين المصافحةِ والعناق

بين الكتابةِ واللمس

الرقّةُ أيضاً

ظلالٌ لأيدينا

- ٤ -

فاكهةُ

الليلِ

فاكهة

النهار

أسفلُ الظهر

نصفُ تفاحة

- ٥ -

الصداقةُ والخيانة

الزنا والنقاءُ

أيضاً

هذه الأيدي في خفاءِ الأسرّةِ والغلالة

هذه الأيدي

بوصلةُ الليلِ إلى القبلةِ والعناق

- ٦ -

القأش أيضاً

ظلالٌ لأيدينا

الحطّاب وحملُ دابّةِ الحطاب

والنيرانُ في أعلى الجبل وراء التلَّةِ في الصقيع

البردُ أيضاً

التعبُ الوحشةُ بين كلِّ الناس

الندم أيضاً

- ٧ -

على الصدرِ

أو بين الصدغين

الأيدي تأخذُ

من هنا الصخرة

من هناك الألمَ

في رَاحتها

الصخرةُ تشفى

الأيدي تخدَرُ أو تعتلُّ

- ٨ -

حبيبان هُما شقيقانِ هما

غريبان

لهما الأيدي امتزاجُ النَّفَس

شفةٌ بين شفتين ثقيلتين

- ٩ -

الأيدي المقطوعة

هي ماضي الأيدي

تومئ أقصر ممّا ينبغي

تحلم بالأشياء التي دائماً بعيدة

دائماً بعيدة

ـ ١٠ ـ

الأيدي أو نحنُ

عشاقٌ بلا روح

الجسدُ

ـ كاملاً وعميقاً ـ

فقط

بعد اللمسةِ الأولى

ـ ١١ ـ

للعادةِ

للتأمُل

للموتِ للغياب

الأيدي هي أيضاً أيدينا

(تشرين الأول ١٩٨٤)

فقط لو يَدُكِ

١٩٩٠

أيّها المسافر ادخلْ بِدَعَةٍ،

الألَمُ حَجَرُ العَتَبة.

هنا في الضوءِ الخالص، يشعُّ

على الطاولةِ، خبزٌ ونبيذ.

(جورج تراكل)

يغطون بالأبيض غيابَك

(إلى رينيه)

حينَ تُغادرهُ

تتقاربُ جُدرانُهُ

البَيت الّذي

ـ مُوحِشاً ـ

يَجِدُ روحَهُ في الزاويةِ

وَيَحدُش ـ منذُ لحظةٍ فقط ـ

بنسج العَنكبوتِ الّذي

يَتدلّى

مِنْ

إلفتِهِ

الشّاغِرة

هَل يبتعدُ الآن؟

أم أنّكَ تُسقِطه في فَراغِ

عَينيكَ البليلتَينِ

في يَديك

في الهَواءِ الطّلْقِ

للأمكنةِ البَعيدةِ

كأنّ النافذةَ وراءَك

تنظر إلى الدّاخل

وَتَبتَعد هي أيضاً

فِيما يَأخُذكَ الشَارعُ والمُنعَطَفُ

إلى غُصَّةٍ كالمُحيط

لَمْ يَعُدْ يَراكَ الآنَ

البيتُ الَذي يَتَجمَّعُ في المَداخلِ المُقفِرَةِ لِزُوجِه

كأنَه في صمتِ الباقين هناك

يُطرق ويُصغي لصدًى

مِنْ خطواتِ البَارحةِ

مِنَ الضحكِ أو الهَمس في رُدهاتِ الجُلوسِ

وَالنَومِ

في المَطبخِ

على الرفوفِ والمَائِدةِ

في القُلوبِ النَاصعةِ لزُجاجاتِ المِياهِ والكونياك

كأنَّه يَخدُش

أنَّ المرأةَ الصغيرةَ

الَتي ما تزالُ تَسكُن قَلبَه

وَتَمشي حَافيةَ القَدَمينِ لِكَي لا تُوقظَ السَكِينَةَ

في زُوجِه المُنكَسرة

كأنَّ هَمساً

يَتَصاعد في أرَجَائِه

وفي جَنَباتِه

يَسيلُ حَامضُ الانْتِظَار

كَأَنَّ البيتَ هو الّذي يُغادِرُنا حينَ نَرحل

تَترجّلُ البَراويزُ والرفوف عن جُدرانِه

وتُغادرُ الأواني

والأثاثُ

ويُغادِره اللونُ

فيما تَظلُّ السّتائرُ مُسدَلةً على سرِّهِ

كالعَاشِقات

كَم الضوء رحيلٌ

كم العتمُ بقاءٌ

والبيوتُ في الذّاكِرةِ غُرَفٌ مُعتِمَةٌ

ومَمَرّاتٌ

وغَطيطٌ ناعمٌ للشّراشِفِ

الّتي تَلوذُ بِغِبطَةِ زُرقَتِها

وحيدةٌ ومَلْساءُ

وحيدةٌ وجَوفاءُ كالأرامل

الأراملُ الّتي هي البيوتُ

حينَ نبتعدُ عنها

ونُلَوِّحُ مِنْ بعيد

وتُلوِّحُ من بعيد.

ثُمَّ يَتراخَى نَسيجُ الأفقِ

وَيتصالبُ الهواءُ

فَلا ترى العَينُ

ولا تَرمش النّوافذُ

وبينها تَحتَشِدُ المَسافَةُ وَيَحفرُ الوَقت

هَلِ ابنتي

تُوَزِّعُ الآنَ أدوارَ المَساء

فتُحدِّث جارتَها الدمية

أو تُطعمُ «سنوبِي» بِمِلعقَتِهِ الصَغيرة؟

هَل تُقلق روحَ البيتِ السَاكنة

أم تَنامُ

وَحينَ يَخطرُ في نومِها البَحرُ

تَتقلّب كأنّها على زَبَدِ مَوْجِهِ

ويُضيءُ وجهُها هَالةٌ مِن نُعاس

النُّعاسُ هو البيوتُ أيضاً

مَلَكاتُها وأشباحُها الخَفيّةُ

حينَ الهواءُ المُثقّلُ بالدُّخانِ وضوءِ لَمَباتِ المَساء

يُنيمُ المرأةَ الصغيرةَ على الكَنَبَة

فيما تَغرَقُ طاولةُ المَكتَبِ

بسائِلِ الفلوريسونْ

وتَتثاءبُ الأوراقُ والمُجلّداتُ

وَتَتوقّفُ القصيدة

حِينَ تُغادرهُ

تَتباعدُ جُدرانُهُ

البيتُ الّذي ـ رَحباً ـ

يُقلّدُ صحراءَ الكُتُبِ

نُبَاحَ ذِئابٍ بَعيد

وصدًى يسيلُ من جَنَباتِه

مَنِ الغَائِب؟

الأشياءُ في أمكِنَتها إلّا أنت

الأشياءُ بدونِكَ

تَبحثُ عنكَ حيثُ لا تَكونُ

يَرونَك حيثُ لست أنت

الغائِبُ مَعَهُمْ

في الصُّورةِ على الكُرسي خَلفَ الطاولةِ

وَراءَ النافذةِ

أو تَسيرُ - وَهُمْ يَرونَ - في الشَّارِعِ

بقدَميكَ المغرَّبتينِ وجِذْعِك النَّاحل

البيوتُ هي النَّوافذُ الَّتي تسيرُ إليها

تَقتربُ

وكُلَّما فَعَلتَ

تَخاف أنْ تَضيع

البيوتُ هي ما لا يَبوحُ بهِ رِجالٌ قُساةٌ

حينَ يتكلّمون

وما مِنْ كلامٍ

يُقيمُ الأفواهَ مِنْ صَمتِها التّرابيّ

ما مِنْ كَلامٍ سوى مُعجِزة القَلبِ

مُعجِزة اللهاث

الّذي يُرَطّبُ وَجهَكَ وشَفَتيكَ

بالنَّفس الشكَّريّ

أو النَّفَسِ المُرّ

حينَ يَلتقي جِسمٌ بجسمٍ

حِينَ يَنطَفِئُ جسمٌ بجسم

البيوتُ

هِي القُبلاتُ الخَفيفةُ على الفَم

أو أسفَل العُنق

على الكَتِفِ العاري

أو بين الثَّديين

هي الأمسياتُ الّتي لا تبوحُ بها نِساءٌ قاسيات

اليدان القَلِقَتانِ

والعَينُ الساهِمَة

حينَ تُضاءُ الغُرَفُ لِترى أن لا أحدَ على السرير

لا أحَدَ على الكُرسي

لا أحَدَ خَلفَ النافذة

هَل تَبتَعد الآن

ويُغطّي الوَاقِفُونَ هناكَ بالأبيض غيابَك؟

هَل يَهتَدي الغُبارُ إليك

هَلْ تُفسِد ثِيابَكَ شَمسُ الشّتاء

هَلْ تَبكي؟

إذن لا تدع البُكاء يُبدِّلُ شيئاً مِنكَ

لا الحُمرة في عَينيك

لا اللِّحيةَ النابِتَة

لِكَي تهتدي ـ في النَّومِ ـ إذا استطعتَ

فالبيوتُ الّتي نُغادِرُها

تَترُكُ جدرَانَها

وعَتَباتِها والمَداخِلِ المُكتظَّةَ بالخِواء

وتُغادِرُنا البيوتُ

ونَعودُ لِنُقيمَ في غِيَابِها.

(ليون ت١ / ت٢ ١٩٨٥)

فقط لو يَدُكِ

يَجعلُني مُطمَئناً، ما يُبعد عنّي الآنَ خوف الليلِ ورَعشةَ كائناتِهِ الغريبة، أنّي حين أنامُ أعلمُ أنّي أذهبُ إلى يَديك. لَمْ أَعُدْ أضِلُّ الطريقَ إليهما.

الرحلةُ طويلة وشاقة في المسَافةِ بين النافذةِ والسرير؛ كُنتُ أخافُ لأنّني لَمْ أكُن أعلَم إلى أين يُفضي بي النومُ كلَّ ليلةٍ. كُنتُ أعلمُ أنّه ليس موتاً، ليس يَقظةً، بل يقظة الموتِ في خرافاتِهِ المُلَوَّنة.

إلى أين يذهبُ جسمي في النوم. إلى أين تذهبُ عيناي. لكنّني الآن حين أصِلُ إليهِ أعلَمُ أنّني أجِدُ وِسادةً لرأسي المُتعَبِ، لجسمي الضّئيل.

صغيرتان يَداكِ، لكنّهما تَتَسِعانِ لجسمي لشِدّةِ ما صارَ قليلاً، لشِدّةِ حُضُورِكِ في غيابي. لا أخافُ الآن أنْ يَأخُذني حُلمٌ رماديٌ إلى هاويةٍ لا قاعَ لها، أعلَمُ أنّ راحة يَدَكِ اليُمنى تُفتحُ لي باباً إلى ضوءٍ قَرين، وأنّ وجهي يحفَظُ، كحريقٍ، ملمس راحةِ يديك اليسرى. هل كنت غائباً الى هذا الحد، أعني لا أجِد مَنْ يدلُّني إلى نَومي. مَنْ يُمسِك بِيَدي، ويَدلَني بينَ صَحَاري الأزرَقِ الطويل. الآن أعلمُ أنّني أغفو حينَ يَخطر لي أنَّ يداً، لَكِ، تُلَوِّح لي بصباحٍ آخر. فَأنهَضُ بإشراقَتِها، حينَ تَفتَحُ لي النافذَة وتَمسَحُ النومَ عَنْ عَينيّ فأعلمُ أنّني، أخيراً، أحيا، لأنها تُوقظني كُلَّ صَباحٍ. لَيسَتْ يَدكِ. مَروحةُ الأصابعِ الناعمةِ، لَمسَةٌ خَفيفةٌ كالسَماء، مِنَ التّجاعيدِ الّتي في جَبيني،

إلى الوَرَمِ الدّاكِنِ تحت عيني. ثُمّ دائرة الفَمِ الّتي تَرسمينَها لابتسامةٍ ما، ثمّ خَطّ العُنقِ حتى أعلى الصّدر. أعلمُ الآن أنّ وجهي لا يَضيعُ بينَ الوجوه، أنّني، كلّما أعودُ أستَردّ قسماتِهِ كأنّ أصابِعكِ إذْ تَتلمّس المَلامِحَ تَصنعها وَجهاً أعرِفُه، وجهاً اعتدتُ عليهِ بَعدَ أنْ أخَذَتْهُ المِرآةُ في الصباحاتِ السّابقة، بعدَ أن ألغاهُ التّعب.

يجعلني مُطمَئِناً أنّ يديكِ تقتربان. وأنّ لمستهما تَستيقظُ الآن في جِسمي الّذي كُنتُ أحسَبُ أنّه مَيت. أو أنّه استلقى لشهورٍ في نومٍ مجرّد. يَمرُّ بهِ كلّ شيء دون أنْ يُغادِرَ حِيادَه. جِسم أصَمّ. جِسْم أبْكَمْ. ثُمّ أتَتْ يَداكِ. رَسَمتِ شَكلاً مِنْ طينةِ الضّجَرِ وكُنتِ بَعضاً مِنْ رِقّتها. مِنَ الحنانِ الّذي يَصنَعُنا وَيَجعَلُنا قَابلين لأنْ نَنكَسِر إذْ نَفتَقِدُهُ. إذْ نَحيا في غَيبَتِهِ الطّويلة. الآن أعرِفُ إلى أين أذهبُ، حينَ تَضعني الحافِلةُ على رَصيفِ الازدحام، أو حينَ تَأخُذُني الغُرفةُ إلى الأفكارِ السوداء. أعرفُ ما الّذي أفعلُه حينَ أحسَبُ أنّ الوقتَ لا يَنقَضي، أنامُ وتَأتي يَداكِ في الحُلم. أو يَأتي الحُلمُ في يَديكِ. لأنّني أحسَبُ في نَومي أنّ يَديكِ تَحلُمان بارتباكِ مَنْ يَجعَل الطّمأنينةَ نَفساً، مَنْ يَجعل النّفسَ يَقظَةَ الغياب.

هلّا وَضَعتِ يَدَكِ الصّغيرةَ على قَلبي لِكَي تَزولَ عَنهُ الصّحراء. لِكَي تَهربَ الذِّئابُ مِنهُ وَصَدَى قِفارِها. لِكَي يرحلَ العَنكبوتُ الّذي يَتَنفّس في رئتي، لِكَي يُغادرني الخَدَر الّذي يَنتابُ أشياءَ الرفوفِ والأدراجِ فَأحسَبُ أنّني مِنها، لا يُخَلِّصني مِنَ الغبارِ إلّا صباحُ الخَادِمَةِ بأرياشِها

الاصطناعيةِ وزُقْقَتِها البَلِيلَةِ السّاحرة. هلّا لَمَسْتِ بإصبعِكِ صَفْتَ الغُرفةِ، الّتي تُغرقني بهوَائِها الفَاسِدِ وَأشبَاحِها الّتي تَتَدلّى مِنَ السّقف والجُدرَان. أعرِفُ الآنَ أنّكِ إذْ تَلمسينَ صَخرةَ صَدري يَستيقظُ نَبضٌ فأخرُجُ مِنْ وَقْتي الحَجَريّ إلى وقتِكِ الرطب. وأعلَمُ أنَّ يَدَكِ هِيَ الخُرافةُ الّتي انتَظَرتُها وَصَدّقتُها، ولشِدّةِ ما صدّقتُها أصبَحَتْ تَأتي إلى نَومي وتَسهَرَ عَلَيه. لِذلِكَ لَمْ تَعُدْ تَأخذني خُفرةُ النّوم. لَمْ تَعُدْ تَأكلُني ذِئَابُ النّومِ، حينَ أسيرُ مُتعباً إلى سَريري وأهَبُهُ جِسمي، حينَ أستَسلِمُ إلى مَجهُولِهِ.

لَمْ أعُدْ أبكِي حِينَ أرَاقِبُ المَطَرَ يَهطِلُ في لَيلِ العَالَم الّذي يَتّسعُ وراءَ النّافذة. لَمْ أعُدْ أرتَجف خَوفاً حينَ أستيقظُ في اللّيلِ. وأرى أنّني وَحدي. بِتُّ أرى الليلَ ظِلّاً ليَدَيكِ، يَغمرُني ولا أضِلُّ فيه والمَصابيح ذكرَى مِنْ لَمستِهما الخَفيفة. كَأنَّ ضَوءاً يَتبعُ إيماءَةَ اليَدِ الّتي تَمسَحُ نومي بماءِ الدّعَةِ. وأعلَمُ أنّني بتُّ أبتسم كلّما صَادَفْتُ الوَحشَ الّذي كانَ يَفْتَرِسُ الحَديقة في حُلمي الوَحِيد. الآنَ بِتُّ أرى أنَّ أفلاكاً تَتقاطعُ في الخُطوطِ الّتي تَتَلاقَى في رَاحتِكِ الزّهرية. كأنَّ السّماءَ يَرسمُها خَطّانِ في رَاحتِكِ، سَماء قليلة لكنّها تَكْفي لِكَي لا يَموتَ العالمُ من الوحشةِ، لِكَي لا تَلْسَعه الأفعى. فَقَط لَو يَدُكِ كانَت هناك.

الآن أعرفُ لماذا كُنتُ أبكي ولماذا كانَت الهاويةُ الّتي أسقطُ فيها تُشبِه صَفحَةً بيضاءَ وخطّان في أسفَلِها

ونَجمة بالحبرِ الصيني، ومع ذلك تَلْمَعُ. وَلَمعانُها كانَ يُعذّبني. كانَ يَكفي أنْ تَرفَعِي، بِلَمْسةٍ رُخَامَ النَّومِ الثَّقيلِ. وَأنْ تَأخذني يَداكِ، قليلاً بمقدارٍ ما أحيا. كان يَكفي أن تَفسَحي شَفَتيَّ بِطَرَفِ سَبابتِكِ لِكَي لا يُعذّبَني النُّطق.

(باريس ـ أيلول ١٩٨٦)

أقلّ من قطرة

هَل يكفي الهواءُ

لِكَي نقتسمَ قُبلةً باردة

الظلامُ يُفسدُ الرّغبةَ

والعَيشُ أقلُّ مِن قطرةٍ

فلا تُهدري جِسمَكِ كلَّه

الآن

الرصاصُ يُخطئُ الرّأسَ

الّذي يَنامُ على صَدرِك

الرصاصُ يُخطئ الفَمَ والحَلَمة

الأيدي تزَى

إذن نَتلامسُ لِكَي لا نَضِيع

هَذا فَمُكِ

سُمْنَةُ الإبطين

استدارةُ الوِزك

وَهَذا خَوفي

لِماذا يَدُلكِ تَقرأُ الأفكار؟

(ليل ١٤/ ٤/ ١٩٨٥)

قَدَمكِ الغارية

قَدَمكِ الصَّغيرةُ العارية

تستأنِفُ الألفة بينَ الغُرَفِ

فِي وَحشةِ القمرِّ الطويل

قَدمكِ النّاصِعةُ

مِثلُ أولِ الصَّداقة

(١٦/٤/١٩٨٥)

شمعة

هَل يَأتي غرباءُ

في مَعَاطِفهم

لَيلٌ

كالذي نُضيئه بالخَوفِ والشُموع

استَعيدي مِنَ الهَواءِ

عطرَكِ

وَنَسمَةَ العَرَقِ الخَفيف

جِسمُكِ الشَمعدانُ الّذي أطمُرهُ خَوفاً

جِسمُكِ اللّيلُ على آخِره.

هَلْ يَأتي غُرباء

وَيَأخُذونَ شَفقَتي

وأبكي

أو نَنَامُ

شَقيقينِ خائِفينِ في سَرير.

(أيار ١٩٨٥)

غفلة الأيدي

هَل الصَّباحُ باقٍ

إذا ضَحِكْتِ لَهُ؟

لِزَفاتِ فَمي

مِثلُ هذا الكلام.

في أوَّلِ الفناءِ

امرأةٌ

تُحدِّثُ يَديها فَتَغفُو يَداها حتّى الصَّباح

في آخِرِ الفناءِ

رَجُلٌ

يُحدِّث يَدَيه فَتُضغي يَداهُ حتّى الصباح

بَينَهما الصمتُ الأكثر صمتاً

في أوّلِ الفناءِ

رَجلٌ يَنامُ لِكَي يُلامِسَ إغفاءَةَ اليَدين

في آخِر الفناءِ

امرأةٌ تَنامُ لِكَي لا يَأخُذَها إصغاءُ اليَدين

رَجلٌ وامرأةٌ

يُحدِّثانِ الأيدي الوحيدةَ

في قارَّةِ الفَناء.

(ليون ـ ليل ١٩٨٥/١٠/٣٠)

نجلس على الحافة القريبة لألفتنا ونفكّر

(إلى عباس بيضون)

هَلْ نُصدِّقُ السرابَ

الّذي بَدا لنا على طَرفِ المَائدة؟

ملحٌ كثير

والليلُ باقٍ

حتّى آخرهِ

سوى أنّ البُيوتَ

تبِتُّ في رؤوسِنا

والطُرقاتُ أفرَغتْ أرجُلَنا مِنَ المَسِير

إذنْ،

نَجلسُ الآنَ

على الحافةِ القريبةِ لألفتنا

ونُفَكِّرُ

لا السماءُ تُلقي ظِلّاً

ولا البحرُ يُرخي شِباكَ الرطوبة

ملحٌ كثيرٌ

لِكَي تتسعَ الشُّقوقُ في شِفاهِنا

لِكَي تبورَ قُلوبُنا

هَذا سَرابٌ

أنْ يكونَ نبيذٌ

يَكفي انتظارَنا

على الحَافةِ القَريبةِ لأُلفتنا

عندما نُفكِّرُ

أنَّ الذين رَحلوا لم يَتركوا لنا وقتاً

لكي نَنسى

سوى أنَّ البيوتَ نَبتَتْ في رؤوسِنا

كالصُّداعِ

ونُعطي أعمارَنا المتبقيةَ

لكي يَزولَ الصُّداعُ وتَبرأَ أعمارُنا

الحافةُ أعلى مِنْ أعيُنِنا

إذنْ، نَقفُ على رؤوسِ أصابِعِنا

لا نرى شيئاً

لا النباتَ

ولا ظِلّاً لَهُ

ألأنَّنا كُنّا نُصلّي

في الصباحِ وفي المَساء

حتى تَغشى عيونَنا

أبخرةُ الحنانِ الّتي تُشبِهُ الدموع

لا لِنَبكي

لِكَي نُجهِشَ بالكَلام

هَذا سرابٌ

أنْ نَلْتقيَ في حُجرَةٍ واحدةٍ

على سريرين مُتلاصِقَينِ

نَبحثُ عن جَسَدَينا الضّائعينِ

في الظلام

ثُمّ نَقولُ

يا اللّه، لماذا نَعطَشُ في أحلامِنا؟

ثُمّ نَقولُ

يا اللّه، ما أجملَ الرحلةَ مِنَ الجبينِ

حتّى مَلمَس القَدَمِ

هَذا سَرابٌ أن يَكونَ بَحرٌ باتّساعِ الحُجرَةِ

حينَ نُطِلُّ على أمْلاحِهِ

على أسماكِهِ المُتَربِّئةِ في الشُّبّاك

نَتعانَقُ خائفينِ

لَكِنّ الرِّعشةَ لَيستْ مِنَ الخَوف

مِنْ ضِيقِ النّافذةِ

أوْ نُدرَةِ الهَواء

لِنَبتَعِد قليلاً

عَلّ الهواءَ يَدخلُ

عَلّ اللونَ السماويّ

يَنشُرُ قُمصانَ نَومِهِ عَلى الجُدْران

هَذا سَرَاب

أنْ تَكُونَ القُبلَةُ

رَغِيفاً نَقتسِمُهُ فِي الصَّباحِ وفي المَساء

أنْ يَكونَ الصَّمتُ

بَيننا

مُلتَصِقَينِ أو مُبتعِدَينِ

وَاقِفَينِ

في المَرارةِ البَكْماءِ

لِمُنتصفِ الليل

حينَ أغلَقنا النوافذَ والأبواب

دَخلوا مِنْ فَتحاتٍ أخرى

وكُنّا وَحِيدَين

كانوا هُنا يَلغَطُونَ

ويَقتَسِمُونَ الغِبطَةَ والنَّدَم

وكَانَ اللَّيلُ يَأتي وَيَذْهَبُ مَعَهُمْ

وكُنّا وَحِيدَينِ

إلى آخرِ مَا نَستطيعُ أنْ نُحبَّ

إلى آخرِ مَا نَستطيعُ أنْ نَكرَه

وَأن نَبتَسِمَ معاً

لِكَي يُخفي واحِدُنا مَا يُحزِنُ الآخَرِ

لكي نُخفِي عُزلَتَنا معاً

وأذكرُ

أنّني، مُلتَصِقاً بِكِ،

كُنتُ أسيرُ لكي أعطيكِ رسالتي الأخيرة

أنّكِ، مُلتَصِقةً بي،

كنت تبحثين عنّي،

لكي تجدي أنّني على الكُرسي

ما زلتُ

أنتَظِرُ أنْ يَجِدني أحد

منذُ ثلاثينَ عاماً

لا أحدَ يَأتي

وكُنتُ أخافُ

هَذَا سرَابٌ

أنْ يكونَ البَحرُ هُنا

لِكَي تَجِدَهُ بعدَ ثلاثينَ عاماً وتَفرح

ثُمّ تَقولُ:

يا اللّه، كَم صَادَفْتُ المياهَ

وما شَرِبْتُ

ثُمّ تَقولُ:

يا اللّه: كم كُنتُ بعيداً، وكَمْ مَشَيتُ،

وما اقْتَرَبْتُ

كَانَ السَّابِلَةُ يَصِلونَ تِباعاً

وكُنتُ أسيرُ مَعَهم

لا أعرِفُ

ظِلّي يَمتَزِجُ بِظِلالِهم

وكُنتُ أراهُم يَبتَعِدُون

كَانَ السَابلةُ يَصِلونَ تِباعاً

ويَجتَمِعون

وكَانَ الجَمعُ غَفيراً

رِجالٌ ونِساءٌ

مِثلي

نِسَاءٌ ورِجَال

وكُنتُ مَعَهم

وَحدِي

فعلاً أعرِفُ لماذا

يَفتَرِقُ الجَمعُ ولِماذا

يَمُوتُ كُلُّ شَخصٍ بِمفرَدِهِ؟

هَذا سرَابٌ

أنْ يَكونَ الجَمعُ هُنا

وَأنْ أهتَديَ إلى النافِذَةِ

لأرى

أنّني خَلفَ النّافِذَةِ

وَأنّ الجَمعَ يَبتَعِدُ

أنْ أهتَديَ إلى النّافِذَةِ

حِينَ يَرحَلُونَ

وأراهُمْ يَغْتَسِلُونَ

بالمِلْحِ

وَيَطردونَ أرواحَ أيديهم وعانَاتِهم

وأراهُم

يَنتَظِرون

هَذَا سَرَابٌ

أنْ تَنتَظِرَ امرأةٌ سَرَابَ العَائِدِ مِنْ بَعيد

أنْ يَنتَظِرَ الرَّجلُ

أنْ يُقيمَ، العُفرَ،

على العَتبة

هَلِ النَّباتُ الَّذي يُلوِّحُ على السَاقِ الوَحيدةِ للوَباء

هَلِ الظِّلُّ الَّذي يَقترِب؟

أخيلَة ومَرارَات

كَانَتْ أفواهُنا تُنادي وَأصابِعُنا تُشِيرُ

وكَانَ عَابِرونَ لا يَلتَفِتُون

وكَانَ الخَوفُ أقوى ما يَجمَعُ بيننا

لأنَّنا نَخَافُ

كَانت بُيوتُنا تُؤوي خَوفَنا

لأنَّنا نَخَافُ

كُنَّا نَنَامُ في حُجراتٍ تَتنَصّتُ على نَومِنا

نَستَيقِظُ بوجوهٍ ليست لَنا

بأطرافٍ لا تأخذنا

إذا سِرنا

هَذَا سَرَابٌ

أنْ يكونَ بيننا ما يَجمَعُنا

نَبضٌ بِنَبض

هُنا

وَأنْ نَبتَعِدَ في الصّباحِ

النافذةُ باتّساعِ ما يَجْعلُ بيننا شَهوةً

يَدي تَبَحَثُ عنكِ

يَدُكِ تَبحثُ عَنّي

جَسَدٌ نَائِمٌ. جَسَدٌ مَيت.

السريرُ وَحده مُرتَّبٌ

أبيض

ونظيف

الغُرفةُ ـ بِاستِثنَاءِ قُبلَتكِ ـ خَالية

هَذَا سَرَابٌ

أنْ يَكونَ طَيفُ رِدَائِك

أنْ يَكونَ طيف جِسْمي

أنْ نَلتقي

أنْ نَقول

يا اللّه، كَمْ نَحنُ وَحِيدَيْنِ خَلْفَ النّافذة.

(تشرين الثاني ١٩٨٧)

ضعي زرافةً في إناء، سمكةً في حديقة

هَلْ نُقيمُ في السَّحابةِ الزَّرقاء

الّتي تَرْسُمُها مَروى قُربَ اسمي

حينَ يَقْتَرِبُ الدَّويّ مِنَ النّافِذةِ

وَحينَ يَقْعي الأثاثُ في الزَّوايا

أوْ تَخافُ السَّتائِر

لا السَّحابةُ تُمطرُ

ولا اسمي يَجْعلُ العَالَم جَميلاً

لِذلك نَامي يا ابنَتِي، أنتِ

وَحينَ أَغْفُو قليلاً

أعِدُكِ أنْ أحلُمَ بِكِ

أنْ أفرغَ رَأسي مِن خردَتِهِ الثَّقيلةِ

وأفكِّر في السَّحَابةِ الزَّرقاء

فِي البَيتِ

فِي العَتبة

في الثِّمَارِ الّتي تُشْبِهُ الفَراشات

والفَراشاتِ الّتي تُشبهُ الثِّمَار

فَقَطْ

حين تَرسُمينَها.

أسألُكِ إذَنْ

لِماذا لا تَرسُمِينَ العَالَم كُلَّه

لكي يُتاحَ لَهُ أن يشبهَ شيئاً

ضَعي زَرَافةً في إناء

سَمَكةً في حَديقة

ضَعي عُصفوراً وَوحيدَ قَرْن

في قَفَص واحِد

وَصَدِّقي

أنَّهما سَيتحابّانِ

لأنكِ تُريدِينَ ذلك

بالعِنادِ الّذي يَجْعَلُكِ تَحسَبِينَ النّومَ

عُطلةً زائِفة

ضَعي، حِينَ تَرسُمينَ وَجهي،

قَليلاً مِنَ التَّعَبِ في مَلامِحِي

خَطّاً واحداً على جَبيني

لِكي أحسَبَ أنّني في مُنتَصَفِ العُمرِ

وَلَيسَ في آخرِهِ

ضَعي بَريقاً باللّونِ الّذي تَختارِين

لِكَي لا يَظلّ الجَفافُ في عَينَيّ

وضعي كثيراً مِنَ الماء

لِكي تبقى لي يَدان قَوِيتان

وشَاربانِ

وقَلبٌ صغيرٌ لشدّةِ ما يَصفُر صَدري

مِنَ الخواء

لا تَنسي الأسرَّة لكي نَنَام

والأفواه لكي نَبتَسِم

وَقليلاً مِنَ الدُّموع

فَقَط

لِكي نَتَذَكّر بَين حِينٍ وآخَر

ـ قَبلَ أنْ نَنسى ـ

كيفَ يَبكي رَجلٌ كامرأةٍ

كيفَ تبكي امرأةٌ كامرأةٍ

كَيفَ يَبكيانِ لشدَّةِ ما يَجمعُ البُكاءُ بينَهما

هَل نُقيمُ في العُلبَةِ الصَغيرةِ

الّتي تُؤثثينَها بالوَرَقِ المَقصوصِ

وعِيدانِ الثقابِ والمَلاعِق

ثمّ تَأتي ابنتُكِ ـ الجَميلةُ كَدُميةٍ ـ

لِتُعلِّمنا

كَيفَ تكونُ الدُمى سَعيدةً وهيَ لا تَحكي

رَقيقةً وهي لا تَفتَقِدُ أحداً

ثُمّ تُغلِقينَ البَاب

فيما الرّجلُ يَتَذكَّر أنّه رَجُلٌ

والمَرأةُ تتذكّرُ أنَّها امرأةٌ

يَتذكّرانِ أنّهما يَبتَعِدانِ معاً

كلٌّ بمفردِهِ

إلى عَتمَةٍ مُخيفة

ضَعي رَفّاً لِمِصْباحٍ

ومشجباً لِمعطفي أو قُبّعتي

وَضَعي ليلاً دافِئاً بعدَ كلّ نَهار

ومسافرين

لا يُخطِئونَ مَوعِدَهُم

ولا تَفوتُهم طَرقةُ البَاب

وَركْضُكِ خَلفَ البَاب

فَرَحَتُكِ خَلفَ الباب

(باريس ـ أواخر كانون الأول ١٩٨٦)

جَاءَ ظِلُّهُ الغَرِيب

هُوَ

يَأتي فيما بَعْد

جَميلٌ

لأنَّكِ تُحبّينَ يَدَيْهِ

مُثقَبٌ

لأنَّهُ يُحب يَدَيكِ

هَلْ تُعِدينَ روحَه بِلَمسة؟

لاَ تَحْسَبي أنّني أضْحك

أو أبكي

لأنَّ الوقتَ والأصدقاءَ وحَشْدَ المُوَظَّفِينَ والحَانَات

هُنا

أضْحك لأنَّ يَدَيكِ قَريبتان

أبكي لأنَّ يديكِ بَعيدَتان

لَمْ أقوَ عَلى نَهارٍ

لَمْ أحتملْ ليلاً

لَم أفعلْ شيئاً

كُنتُ أحسَبُ أنَّكِ هُنا

فِي مَكانٍ ما

وكُنتُ أحيا

إلى أين أذهَبُ؟

الدروبُ

دائماً إليك

وأمشي

أعلَمُ أنَّكِ رَسمتِ الدُّرُوبَ

لتأخذني إليك

ضَعي العَقارِبَ وتَكّةَ السّاعةِ لِوَقتٍ

لَستِ فيه

لِكَي يَكونَ وقتاً

لماذا تَجْعلينَ الموتَ مُستَحيلاً؟

مَاذا يَفعلُ الغُرباء الذين لا يَحلُمون بِكِ؟

قَدَماكِ الصَّغيرتَان

وإلّا ماذا تُجدي الصّلواتُ

حينَ تكونُ الأرضُ والسماءُ

مَحبَّتهما

مَحبة اللهِ والرعاةِ

وحتّى القَتَلة

لكي تَنسي

اذهبي إلى المَدرَسة

لكي تتذكّري

أجيبيني

في الحَدائِقِ الآنَ شُعراء وقادةٌ وأسلِحَةٌ

وأشجار

في قلبي كآبةٌ تَنتظِرُكِ

لا تأتي إليّ

دَعيني أحِبُّ العَالَمَ في السّيرِ باتجَاهِك

دَعيني أحلُم بِيدَيك.

(صيدا ـ كانون الثاني ١٩٨٧)

غرفة الخادمات

جُدرانٌ مُتقابِلة في مَساحةٍ مُستطيلةٍ وضيّقة. طَاوِلةٌ وكُرسي وسرير. لِوَهلةٍ تَظنّ أنّ كلّ شيءٍ هُنا. الرطوبةُ بمقدارٍ ما تَحتَملُ والضَّجَرُ أيضاً. لكي تُشغِلَ نَفسَكَ تُرتّب السّرير، تَدفع الكرسي في اتجاهِ الطّاولة. تَفتَح كِتاباً وتَتركه، بمفردِه، هُناك. تَضنَعِ لِنفسِك قَهوةً. ويَبقى لَكَ في اللّحظاتِ المُقبلة، حينَ تَضْجَر، أنْ تصنَع لِنَفسِك القهوةَ مرةً ثانية. إذ لا شيءَ يمنَعك مِن استخدام الوقتِ كما تَشاء. فالأشياءُ جيدة هُنا. والوقتُ أكثر مِمّا تَظُنّ. لَكِنّ النّافذةَ ليست هُنا. أعني لَيسَت على هذا الجدارِ أو على الجدارِ المُقَابل. لَيسَت على الإطلاق.

غداً سَأخبِرُ العَجُوزَ جَارتي أنّني في حَاجةٍ لنافِذَتي. وَأنّني بَدلَ الكَوة الّتي في السّقف، أريدُ نَافذةً ودرفتينِ وأصّاً للنّبات، ورُبّما سَحابةً وطرف مَبنًى مُقابِل وغَابرينَ بثيابِ الشتاءِ الدّاكنة.

(باريس - تشرين الثاني ١٩٨٦)

أحذفُ النهار بالكتابة

البَارِحة كَانت قليلة

لَم أذهب إلى الجسر

لَم أذهب إلى التَّلَّة

لأرى المَدينة وهيَ تختنِق بأضواءِ المَصابيح

لَم أجِد ما يُشغِلُني عَنْ ضِيقِ البَارحةِ

كان وَقتُ البَارحةِ قليلاً بعضَ الشيء

نهارٌ يبدأ بالقهوةِ الصَّباحيةِ

وَينتهي بالقهوةِ الصَباحيةِ

وبينَ الصباحينِ وقتٌ قليلٌ

للعيشِ العُمُوميّ

والنَّظَافة

والاستلقاءِ الصَّعبِ على السَّرير

اليوم أحذفهُ بالصُّداعِ

أحذفُه بالكِتابةِ

غَداً

سوفَ أرى

- أحمِلُ جِسْمي وعينيّ وثِيابي وأرى -

ما الّذي يُخفِيهِ المَبنى المُقابِل

ذهَبْتُ في الوَقتِ المَيتِ لكلِّ صَباح

لَم أعثر على المَشهَد

بَاحةٌ

ومَقاعدُ مُتفَرِّقة في الأرجاء

بَيتٌ صَغيرٌ مِنْ خَشَبٍ مُلوَّن

بَعد البَاحة

مَبنًى مُقابِل

لَكِنَّي لَمْ أكُنْ أرَاه

أستطيعُ الآنَ أنْ أقُول

إنَّ خَلفَ المَبنَى المُقابِلِ بَاحَةً ومبنًى لا أراه

أو أستطيع أنْ لا أقُول ذلك

أخفيهِ لأفاجِئ نَفسي بِهِ

بَعدَ القهوةِ الصباحيةِ وأقول:

خَلفَ المبنَى المُقابِلِ باحة ومبنًى لا أراه

أو أكتب رسالةً

وأقُولُ لزوجي وأصدقائي:

ما هذا المَنظَر الرائع

اللّيلُ يستَغرِقُ الوقْتَ كلّه

لَم أرَ صباحاً

إلّا وَهُوَ يَسيرُ

مَغشيّاً عليهِ خَلفَ الضّبَاب

إلى أينَ تَتبَعُ النّهارَاتُ

شَخصَ الضّباب الغَامِض؟

لَستُ في حاجَةٍ لأنْ أذهَبَ

إلى الليل

إلى النهار

الضبابُ لا يُغادِرُ النافذةَ

لَولا التَّعَب لَحَدَّثتُهُ عَن الليلِ والنهارِ

لَدَعوتُهُ إلى نَبيذي وطاوِلتي

إلى الأوراق

جَعَلْتُ للنافذةِ وقتاً

لا أعرِفُ الآنَ إذا كانَ يتَّسعُ لي

وللأشياءِ الّتي في صُحْبَتي

النهارُ وَأنا هنا

الليلُ وأنا هنا

إذن تَحدُث كلُّ هذه الأشياءِ على خَارطةِ

أخرى:

الحروبُ

الكرنفالاتُ

الأعراسُ

والجَرائدُ

الضِّحِكُ المُكتَئِبُ

والبُكاءُ الانفراديّ على مقاعِدِ الحَافلةِ

أُغادِرُ النافذةَ

بقَلبٍ يَشيخُ ولحيةٍ طَويلة

خَلفَ النافذةِ نَوافذُ مُطفَأة

خَلفَ الشارعِ شارعٌ طويل

لَمْ أحسَب أنّ الأمرَ يَستحقُّ

لَكِنّني أحذِفُ النّهارَ بالكِتابَةِ

أصفُ

ولِوقتٍ طَويل

(ليون ـ آذار ١٩٨٦)

البيوت في رسالة مروى

أحسبُ أنّكِ تكتُبينَ «أحِبُّكَ»

أجمَل مِمّا أستطيع

لَمْ يُسعِفْني الوقتُ بعدُ

لأعرِفَ كيفَ يُصبِحُ الكلامُ عُشباً وَمَنازِلَ

في الرِّسالةِ الّتي بَيننا:

الشمسُ نُقطةٌ صَفراء

والطّريقُ خَطٌّ أسوَد

بَينَ العَتبةِ وطَرَفِ الوَرَقةِ البَيضاء

ألآنَ الورقةُ البَيضاء لا تَكفي

يَنبَغي ألّا يُفضِي الدَّربُ حقّاً؟

فِي المَرّةِ القَادِمة

اكتُبي لي عَتبةً وَبَيتاً

وأشخاصاً

في رقّةِ العِناق

(ليون ـ آذار ١٩٨٦)

صحبة الظلال

١٩٩٢

إلى رينيه

كنفُ الدَّعَةِ

يدٌ تنقادُ هيّنةً

للَمسَتِها المشقّات.

كتبت هذه النصوص متواليات بين 1983 و1989

وهي مَدينة بما صارت إليه ليولا الحلو، لدأبها وطولِ

أناتها. لذلك أحسبُ، امتناناً ومودّةً، أنه كتابها.

ها أنت الآن

تخافُ وأنت تمشي إليه منْ ناحية الشارع أن يضيع من ناظريك. أن تضلّ الطريق إليه، في الأمتار القليلة المتبقّية، لذلك تسرع، تحثّ الخطى، لأنّك لا تصدّق، لأنّك فجأة تشعر بتعب كبير. لم تكن تعرف كم هي طويلة وشاقّة هذه الأمتار القليلة. وكم الحنين أكبر منك. النافذة الشماليّة أوّل ما تراه. مطفأة وبرغم ذلك ترى الأخيلة نفسها. مضاءة، تشعر بالخيبة كأن الضوء يفضح غيابك. كأنه يبدأ قبلك، أمر لا تعرف ما هو بالضبط. كأنّك تأخّرت (عن ماذا؟). مَنْ يبتعد هو الذي يتأخّر دائماً. فالأشياء والأمكنة هنا. وأنت مَنْ يبتعد. ومَنْ يمشي الآن بقلق وتوجّس: ماذا لو قامت الحرب الآن؟ ماذا لو أغمي عليّ؟ وماذا لو لم يكن أحد هنا؟ ماذا لو أخطأت المدينة والشارع والوقت؟ ماذا لو أنّ كلّ ذلك مجرّد حلم، وأنّني ما زلت هناك (في المكان الخطأ) وأحلم بالأمتار القليلة وبالنافذة الشماليّة وماذا لو لم أصل؟ كأن يضيع شيء منّي في هذه الزحمة. أن تأخذني الغفلة وتكرج منّي أطرافي (التي أحرص أن أتمالكها) في اتّساع الشارع. أن يستدرجني الفضاء إلى وحشته المخيفة. إلى التفكّك، إلى الذوبان في هذه الكثرة، في هذا التعدّد، في هذا الضجيج. تعرف، منذ أن تراه، البيت الذي بجانب الطريق، أنّه لا يتحرّق انتظاراً. لا يبدّل وقفته، حياده، لكنّه يحفظ لك رحابةً، ليست هي الاتّساع، ليست هي المدى المفتوح، لكنّها ما يستطيعه قلبك الضعيف. ما يستطيعه جسدك لأنّ كلّ

شيء فيه يمتزج برغبات لك، بأوقات تهمس فيها فقط لتسمع صوتك، لتأخذك الغفوة القصيرة إلى المكان الضيّق الذي يحشر أنفاسك ويجعلها مهمّةً صعبة.

وأنت تمشي إليه لا تفكّر في الغياب. تراه. يراه مَنْ ينتظر رجوعك. ففي وقفته المحايدة تعرف أنّ المكان وحده هو الذي يعطيك أن ترى الغياب (حتّى الغياب). مَنْ ليس هنا وتفتقد حضوره تبحث عنه. وتظل تشعر أنّ حضوره ينقص كلّما تفقّدته في مكان دون أن تجده فيه. يكون غائباً حين لا يكون في غرفة الجلوس، حين لا يكون في غرفة النوم، في المطبخ أو على الشرفة. ترى غيابه في الأمكنة ليس لأنّك تفكّر بل لأنّك تظنّ كلّ مرّة أنّك تجده حتماً في أحد الأمكنة الأليفة. وحين تتأكّد يخطر لك دائماً أنّك أخطأت، وأنّك إذ ترى غيابه، رويداً، في أجزاء المكان، فلا بدّ أن يكون هذا هو الغياب. وإلّا فما هو الغياب؟ الغياب وأنت تمشي إليه، بضعة أمتار أخرى، وها أنت أمام الباب. قلبك يدقّ، لديك مفتاح. ولكنّك تقرع بضربة خفيفة أو تضغط زر الجرس وتصغي. كأنّ الطرق أو الرنين أصوات مكتومة تنده في الداخل. نداءات مقتضبة لكائنات تحبّها في الداخل وتخاف أن تلقاها، كأنّك لأوّل مرّة تبتعد لكي تختبر غيابك عن هذه الأشياء. إن لم تجلس على الكرسي، إن لم تغادر وقفتك خلف زجاج النافذة، إن لم تدخّن وأنت تمشي في الرواق؟ كيف تكون الأشياء وحدها. بعيداً عن العين التي تضمّ هيئتها. بعيداً عنك،

عن هوائك، عن صمتك المطبق. عن رغبتك في الاستغراق في تفاصيلها. تقف إذاً خلف الباب. تنتظر. لا أحد. لا شيء. تأخذ مفتاحك. تديره في القفل. يدك ترتجف. جبينك ينضح بعرق بارد. تفتح الباب على مهل. يطالعك هواء فاتر لذيذ. رائحة ممزوجة بالغبار وبقايا الشمس والعزلة. تغلق الباب خلفك، تقف وأنفاسك تتسارع في صدرك. تهدأ. ها أنت الآن في الداخل. تمدّد. أغمض عينيك. كلّ ما لا تحتويه الجدران، كلّ ما تصدّه الستائر، كلّ ما تسمعه من البعد، ليس حقيقياً الآن. أو ما عاد يخيفك. ما عادَ هنا.

هَذيَان

DELIRIUM TREMENS

المصيدة

اذهب إذا شئت. لكنّ المكان الذي تقصده ليس أمامك. ليس في أيّ اتّجاه. اذهب لكنّك لن تصل. أبعد الأمكنة. ما تحمله في الداخل. يذهب معك. وكلّما اقتربت أنت، يبتعد. غرفة صغيرة بلا نوافذ بلا أبواب. إذاً كيف تدخل؟ حتّى لو أصبحت روحاً، ظلّاً لرجل، لن تجد باباً في حجم خرم الإبرة. ولو وجدت تأكّد أنّك عالق في المصيدة. لست فأراً، أو، في الأقلّ، تظنّ. ومع ذلك ترى أنّ الأقبية كثيرة وأنّ المدينة كلّها تتحوّل إلى مسارب جوفيّة للمياه. حاول أن تتحرّك تنطبق الغقلة على العنق أو الجذع أو الأطراف. تخيّل أنّك تجلس على كرسيّ وأشلاف من المعدن تثبّت رأسك لكي لا تقدر أن تلتفت، أن تحرّك رأسك في أيّ اتّجاه. وأمامك الحائط، رماديّ وشاسع، لا ينتهي كأنّه الفضاء الرحب. يداك مقيّدتان أو عاجزتان. قدماك بلا فائدة. تحاول أن تشير أو تمشي. لا حركة، تظلّ ساكناً. وحدهما عيناك تجولان على مسطّح من بضعة أمتار مربّعة. رماديّ. حتّى تكاد تظنّ أنّ الرماديّ في عينيك وأنّك في الحقيقة تعجز أن ترى. تغمض عينيك. لا يتبدّل المشهد. كأنّ الحائط يرتفع في الحدقة. أملس. أعزل. ومهجور. لو يتدلّى فيه عنكبوت، لو صورة معلّقة على مسمار، لو مسمار من أجل صورة، لتصدّع المشهد. ففكّرت أنّ الفسوخ هي التي تصنع الحائط والعنكبوت والمسمار. ومن دونها يصبح الحائط لا يُطاق. كالفضاء. كالسماء

المحايدة لا مكان تستند إليه. لا زاوية تردّ عنك المدى المفتوح. اذهب إذا شئت. أمامك فراغ رماديّ. قد تسقط في الحائط. وتظلّ في حالة سقوط إلى الأبد. إلى ما لا أدري متى أو أين. لا الساعة تعين، ولا الأرض التي تسند قدميك.

قد تكتشف أنّ التجربة هي التي ستضعك على أرض اليقين. وأنك إذا اقتربت سوف تلمس سراب اللون. اقترب إذا شئت، لامس صفحة الفراغ وإذا أردت أن تطمئن أكثر اضرب ما تفترضه حائطاً برأسك. بقوّة أكثر. حتّى تشعر بالألم وعندها تستيقظ أو تظلّ نائماً، ليس مهمّاً، لأنّ في تلك اللحظة تستوي الأمور فيما بينها ولا تعود تستحقّ منك أن تنشغل بها. تعود إلى ذاتك وتستريح وتكون الأوهام والحقائق انقضت بالطريقة ذاتها، بالسرعة ذاتها التي تستغرق جسماً ثقيلاً وهو يسقط إلى مكان ما في أسفل المشهد.

المهمّ أن تظلّ حذراً ولا تقع في المصيدة، أو في الألوان التي تشبه المصيدة. فلا تعود قادراً على الحركة أو على التفكير. المهم أن لا تستغرق في منطق المصيدة. لأنّها حالة. تظنّ في البداية أنّها حادث. أنّها تفصيل (أو ذريعة) في سياق يجاوزها ثمّ لا تلبث أن تعلم يقيناً أنّها ليست كذلك. وأنّها ليست العائق الذي يكبّل الحركة ويصدّها. إنّها حالة الإعاقة. كأن ترغب في الشكوى ولا تجد الكلام المناسب. كأن ترغب في البكاء فلا تجد الذّريعة. كأن ترغب في أيّ شيء ولا تستطيعه

لأنّ الأشياء كلّها حائلة. كأن تنظر أمامك ولا ترى شيئاً، يقترب أو يبتعد. كلّما اتّسعت حدقتاك اتّسع الفراغ من حولك كأنّ عينيك تشربان البياض، تفرغان الحيّز الموحش لتمتلئ أنت به. تشعر أنّك ثقيل. تسترخي. يكبّلك الثقل فتصبح أطرافك حمولات من البطالة والعظام. الفضاء فسيح ولا تقدر أن تشير إليه. لا تستطيع أن تغادر. المشهد الأبدي أمامك. لا يتغيّر، وكلّ مكان آخر، هنا. إذاً انتظر. تعلم أنّك لن تموت الآن. إنّها المصيدة.

أجزاء من يقظة الخلد

انهيارٌ ترابيٌ خفيفٌ أيقظني. كنت أشعر قبل ذلك أنّ التربة أصبحت جافّة والحرارة ترتفع، وكما تعلمون، هنا لا شبابيك نفتحها على البحر ولا شرفات. حدست أنّ النهار هنا. لا لأنّني رأيته أو أراه بل لأنّني سمعت نغل حشراته وبعض الصخب الذي يأتي كأنّه من عالم آخر. استيقظت طبعاً بشيء من الانزعاج ولم أفتح عينيَ لأنّني، كما تعلمون، لا أستطيع. لذلك غسلت أذنيَ من عمش النوم وقلت هذا صباح جديد. صباح جميل لأتكلّم بطريقتكم وليس لأنّني أعرف الصباح أو الأضواء الباهرة للشمس. فأنا أحسب كلّ هذا ليس سوى «ليل السعي» بعد «ليل الراحة». عندما تخرج الحشرات الكبيرة وتجرّ كائنات غريبة من المعدن والمطّاط فوق رأسي. كأنّها تحتفل بالألوان الشاحبة التي تنتشر في الجهة العليا من الكون ولها في ذلك طقوس غريبة: أحياناً أسمع دويّاً فتهتزّ جدران الوكر الترابيّة وينخلع قلبي فأرقد بلا حراك حتّى يزول الصوت من أذنيَ. باختصار، حياتي بائسةٌ هنا. حتّى لا أكاد أجد تربة رطبة على مسافة أميال. قد يستغرق ذلك عمراً كاملاً. ليس بسبب خمولي أو ثقل حركتي فأنتم تعلمون من دون شك كم أجاهد هنا لأحفر سنتيمتراً واحداً وأحياناً في الاتّجاه الخاطئ فيضيع جهدي سدًى. ومع ذلك أشعر أحياناً بالسعادة. أوقاتُ واحدنا ليست قاتمةً دائماً. وسعادتي الغامرة حين أستيقظ وتظلّ الأشياء، من

حولي، غارقة في العتمة فلا تقوم بيننا علاقة بغير اللمس والشمّ والذوق والسمع. فأشعر أنّني أقرب إليها وأنّها جزء من كياني الصغير. ويكون فرحي عظيماً حين أصغي إلى التراب الذي يفتّ من جانب، حين أسعى وحين تنغرز نواجذي في الجذوع الضعيفة فأطحن أليافها وأمتصّ نسغها قبل أن تصبح سمائي بوراً وتجفّ الأثلام في المحرقة الكبيرة التي اسمها الشمس. لم أرَ هذا الكائن من قبل لكنّه يطلع، يقولون، في ليل السعي. فتفرح الكائنات العموديّة الغريبة، تنهض وتفتح النوافذ لأشعّتها التي توصف بأنّها دافئة. أنا شخصيّاً لا أصدّق كثيراً هذه الرواية إذ يطلع كائن بمثل هذا الحجم من مكان ما من الجوف بينما يكاد يضيق بي، لولا جنباتي الصلبة والغضروفيّة لَدَغسَني ثقل التراب الذي فوقي. تخيّل: أفتح ثقباً على الفراغ الذي يخيّم فوق التراب فتلذعني موجات غير قابلة للوصف فأشعر بانتفاخ حارق ويكاد يغمى عليّ فأسقط، وتنهار عليّ الرمال والحصى الملساء والمروّسة بأحجام هائلة، حين لا تأتي اليد العملاقة لكائن سعيد وتضخّ المياه من فوهة الوكر فأعوم ليتلقّفني بضربات كونيّة من كوكب صوّاني تحتويه أصابعه. فإذا نجوت بحيلة كان عليّ أن أرقد في طبقات سفليّة لكي أتماثل للشفاء وإلّا، تعلمون، كانت النهاية السعيدة لمجاهد مثلي في سبيل الرزق. كلّ هذا لا يثبّط عزيمتي. منذ بدأتُ أسعى بالحدس. ولفترات طويلة كنت أؤثر السلامة فأحفر في اتّجاه

أفقي، وكلّما اصطدمت بألياف أو منابت صخور كنت أتوقّف وأفكّر ماذا لو كانت نهاية الأرض.

وخطر لي أن أحاول اكتشاف ماذا بعد نهاية الأرض. ولكنني كلّما تجاوزت المحنة بالحيلة والمداورة أكتشف أنّ الأرض لا تنتهي في مكان، وأنّني لا بدّ أن أكون محظوظاً بوجودي في هذه السكينة الجوفيّة. العزلة ليست هي المشكلة إذ لا وقت لديّ. لا يغيب عنكم طبعاً أنّ الزمَنَ لا يتبدّل هنا وكذلك المكان. كلّ شيء هو نفسه أو شديد الشبه بنفسه حتّى أفكّر أحياناً أنّ كلّ هذا ليس حقيقيّاً وأنّني أهذي، أو أنّ هذه الأفكار تأتيني من كآبةٍ عابرة أو خيبة. ليس لديّ ما أفعله ولا أفعله. أنا أبسط من ذلك بكثير. وكما لا يغيب عنكم أيضاً أكتفي بمدرَكات حواسّي. ولا أقول إنّها السعادة. لكنّها في أيّة حال غبطةٌ أنْ تكون هنا، في الأمكنة الضيّقة، في الرطوبة الغامرة للمسة الأشياء. وماذا ينقصني بعد. لست بشعاً إلى هذا الحدّ. ولست ضارّاً إلّا بحدود حاجتي. طبعاً لن أترك الزرع لنفسه وأموت جوعاً. تخيّل: حياتي بسيطة هنا لكنّ موتي بالغ التعقيد. فلو حدث ذلك إلى أين أذهب؟ إلى نهاية الأرض، إلى ما بعد نهاية الأرض؟ لا تمازحني. تعلم أنّني قضيت عمري، في الأسفل، بحثاً عنها.

حقّاً، فاجأني عجزي عن فهم كلّ الأمور التي تحدث لي في الآونة الأخيرة. كنت صرفت وقتاً طويلاً في محاولاتي المتكرّرة للتعوّد على حالتي الجديدة.

سنتيمترات قليلة كانت تبدو لي، في ظلمتي، بقعة شاسعة من المجاهل والأخطار تحدق بي وتهدد سكينتي ودعتي. كنت، دائماً، أميل إلى أن أكون متفائلاً وأغبط نفسي على السعادة التي تمنحني إيّاها مشاعري ـ الأنانيّة، بعض الشيء ـ التي لا تذهب أبعد من إشباع رغباتي: في الأرض الرطبة رائحة المياه العفنة وفي الأرض الجافّة استرخاء الدفء والحرارة. وإذا ضجرت لا تنقصني الحيلة، ولا الشراسة أحياناً، لاختراق العوائق لكي لا أقع في غواية العيش السهل والبطالة. كان ينبغي أن أواجه هذا الموقف الصعب، هذه الحالة الطارئة لكي أعلم كم كانت سعادتي زائفة وكم لا يستطيع الكائن أنْ يَطمَئِنَّ إلى دَعَة العيش والرَّخاء. لم أكن أعلم من قبل أنّ هذا النوع من الإشراك موجود تحت الأرض. فالحفرة شكلٌ عاديٌ لانخسافات القشرة الأرضيّة ولا تعنيني بشيء، ولم أكن أعي مدى الرعب الذي تحدثه في روعي الكائنات العموديّة التي يقال إنّها تحيا في سمائي. ثمّ إنّ الحفرة ليست من شأني فأنا لا أستطيع أن أقع إلى أعمق مما أنا فيه. ولا أخشى أن يصيبني أذى منها. فأنا كما تعلمون من دون شك، محصّن بالليونة والصلابة ولا أقع، بل أحفر وأنا أهبط مسالك مملكتي التي أبني سبلها في أثناء سيري وسعيي للرزق كفاف يومي. كنت أظنني نجوت من الشرور كلّها حين افتقدت، منذ ولادتي، هذا الفراغ الرماديّ الذي ـ يقولون ـ إنّه الفضاء. وكنت سعيداً لأنّني

في حياتي ليس عليّ أن أختار طريقاً ومسلكاً يفضيان إلى حساب لا تنجو منه نفس. وكانت سعادتي أكبر لأنني لا أملك نَفساً ولو ملكتها لفسدتُ في هذا النعيم الترابي الذي يُفسدُ حتى الهواء، ولا أحسب أنّ نَفساً أكثر صلابة من الهواء. حتّى في بحثي عن العزلة والسكينة لم أطلب زهداً ولا انكفاءً أخيراً عن الملذّات، بل كنت أحسَب أنّني، وحدي، أقرب إليها، وأحياناً كانت تغلبني الشهوة فأحبّ نفسي كثيراً وأقضي زمناً معها ولا أبالي هل أخذتني الشهوة إلى أقصى الحدود فما عدت أعرف، جيّداً، مَنْ منّا أنثى الذكر أو ذكر الأنثى. ففي داخلي رغبة السّفاح لا أخجل منها ولا أظنّ أنّها تعيق نموّ نواجذي أو رأسي أو أذنيَ العميقتين. منذ دهر وأنا أشتهي نفسي حتّى خلت يوماً أنّ جذعي ألياف رطبة وأنّ فمي يكبر ويأكلني، حتّى أيقظتني جلبة الكائنات المعتادة. ثمّ إنّني أحيا في الظلمة، أمّا الضوء، إذا انكسرت قشرة الأرض اليابسة، فأشمّه وأشعر بوخزه على ظهري ووجنتيّ فأسارع إلى الاختباء في طبقات سفلى حتّى تتعب قائمتاي وتضرس أسناني. هنا سعادتي بي ترفع عن كاهلي ضجر الطمأنينة وتكشح الضجر عن أوقاتي الفانية. أن تحفر أجمل من أن تفكّر، والذكاء - تعلمون - من الأعراض البشريّة التي لم تنتقل إليّ بالوراثة، ولا أميّز بين ثقب وفوهة البندقيّة المعدنيّة، حتّى كنت مراراً، ضحيّة طيبتي وأصابتني أهوال كثيرة من مكرهم وحقدهم عليّ. مع ذلك، لا

أبالي، ما زلت هنا. ولن أقع في الشراك التي في أفكاركم ونيّاتكم. ولن يسلم نبات، أو حاجز إسمنت. لن تسلم البذور التي تفسد عليّ مكاني. فالنبات كائن بليد وسخيف تتشابك جذوره وأليافه وتعيق ذهابي وإيابي، كأنني هنا، لست في مكاني وكأنّ الكائن العمودي يستطيع أن يحتمل ما أعانيه وحدي بين فضلاته وبقاياه، وهذه المسلّات الصلبة التي يغرزها حتى أعماق أرضي لكي يقيم عليها جحوره المتراصفة ويَهنأ وينام فيها ويتكاثر. حتى صادفت يوماً بعض البقايا الفوسفوريّة - يقولون إنّها عظام - لم أستطع أن أفهم صلابتها وخشونتها. كانت مكوّمة كالبقايا المدفونة الأخرى، بأعداد كبيرة ما استطعت أن أحصيَها أو أن أجد أسماء لها. فقط كنت أتجنّب الوقوع في ثقوبها، وخطر لي أنّ أرواحاً تسكنها وأنّني حين أستيقظ، في ساعات راحتي، يخيّل إليّ أنّني أسمع شيئاً يشبه الثرثرة والنحيب. لم أكن أبالي كثيراً فأنا أعلم أنّ الكون المظلم يزخر بالكائنات وأنّني في أيّة حالة أفضّل أن لا أعلم لأنّ العلم بالأشياء إقلاق لراحتها. لولا أنّني أدرك الآن أنّ تجوالي أوصلني إلى هذه البقعة الجوفيّة حيث تمتزج الأتربة بأنواع من الحشرات والبقايا والأوهام، التي تزكم أنفي فلا أهتدي إلى مكان. كأنّ الفسحة التي تحتفظ فيها الكائنات بالبقايا ليست جزءاً من مملكتي.

كنت أتراجع طوعاً لو أنّ الثقب الذي أفضى بي إلى هذا القلق لم يُردم. كأنّ زلزلة أو ألماً أصاب روح التراب

فكان ينهال عليّ بجلبة كأنّها من عالم آخر. ثمّ استكان ولم أشعر بشيء. وما يقلقني أنّني لم أستطع ـ برغم جهدي ـ أن أحسّ بما يحيط بي وبما يلامس بدني. وكنت، في حالتي، أسأل أهذا هو الموت ـ يحدث لي ـ وأنّ الأشياء من حولي لم تبقَ ثقيلة وأنّها تحوم الآن وأنّني أفقد شمّي وذوقي وسمعي ولمسي، وأنّني الآن طيف أبيض أو أسود وتأكله العتمة ويذوب أو ينحل في التراب؟ ويزيد في قلقي أنّني لو أسلمت نفسي، كعادتي، إلى غريزة الاتجاه لما اهتديت كأنّ حدسي يخطئ وكأنّ شيئاً في هذا المكان يفسد عدّتي وكياني. ولا أستطيع أن أقول، مثلكم، إنّ الأمور تقع ولا علم لنا بها. فهذا القول يفوق قدراتي الصوتيّة والعقليّة ولا أحسب أنّ خُلْداً، إذا كان مثلي، يليق به التراخي والامتثال ما دمت أشعر الآن أنّني ما زلت على قوائمي والأرض تحتي من دون ريب وأنّ المسألة لا تتعدّى كوني وقعت في شرك المكان المتّسع والفراغ. يكفي أن أتقدّم قليلاً ولن ألبث أن أهتدي، أن أجد ما أستند إليه، ربّما، في جنبات هذا المكان الفسيح ثمّ لن أعود ثانية إلى هذه البقعة الغريبة. وقتي لا يتّسع الآن لأيّ ندم وإذا أطلقت العنان لنفسي دمّرتني هذه الحدوس. وأنا أعلم أنّ شيئاً لن يحدث لي وأنّني لا أستطيع أن أفقد شيئاً أو أفقد أحداً، فأنا جزء من هذا الكون الترابيّ ولم أسمع يوماً أنّ بدناً كالذي أمتلكه صعد إلى الفراغ الذي يحوم في الخارج فلا مكان لي ولا رغبة لي في أن أهجر دعة هذا العالم

وبطالته.

كنت مُستغرقاً في كلّ هذا حين بدا لي أنّني لامست تجويفاً في جسم صلب. ليس حجراً ولا تراباً جافاً. أقرب إلى غشاء رخاميّ أملس لا يخلو من بعض الكسور. خطر لي أن أدخل فلم أعد أطيق هذه البرودة التي تخترق عظامي. علّني أصل إلى الناحية الثانية وأنجو بنفسي من هذا الخلاء. تقدّمت قليلاً وأدخلت رأسي بحذر وريبة، لم تضغط عقلة المصيدة عنقي ولم أسمع انفجار المعدن الهائل. أدركت أنّني لا أزال حيّاً وأنّ هواءً عفناً وقديماً يداعب جيوبي الأنفيّة وأنّني فجأة أشعر بانتعاش. أدخلت جسمي الصغير بصعوبة لكنّ إصراري جعلني لا أحسّ بالألم ثمّ هويت، وأخذ المكان يتأرجح بي كأنّه وعاء كرويّ. أدركت أنّ الأمور إلى أسوأ وأنّني عثرت على العربة التي تأخذني إلى عمق الأعماق. وحين هدأ ارتجاج المكان حاولت أن أستطلع علّني أبدّد خوفي الذي بات يربكني. تلمّست. شممت. أصغيت. فوجدت أنّ التجويف الذي دخلت منه ليس واحداً. تجويفان كبيران في أسفل نصف كرة ملساء. ثمّ تجويفان صغيران متقاربان. ثمّ فتحة كبيرة، منفرجة وعلى أطرافها صفّان من الأجسام الحادّة المختلفة الأحجام أحسب أنّها من الحجارة أو المعدن. فأدركت أنّها ليست عربة الأعماق وأنّها ليست سوى حفرة جوفيّة أخرى. وكدت أجزم لولا أنّني كنت أشعر أنّ المكان ليس خاوياً. وأنّ شيئاً (أشياء) تتحرّك في

داخلها كأنها حدوس تنتابني لكنها غريبة عني ولا أعرفها. أطياف كئيبة. أفكار ميّتة وأحاسيس وآثار آلام طفيفة. صور باهتة لنباتات ضخمة وعلب آدميين لها نوافذ وأبواب. أولاد وعربات من دون ضجيج، أفكار وخواطر صامتة. بياض، أعرفه، لا لأنني أرى، بل لأنني لا أحسّ بكثافة حولي كالأرواح الباردة لامست وجهي فارتعشت وأحسست أنّ أمراً سيحدث لي وأنني ما عدت أدري ماذا أفعل. لم أفعل شيئاً. ولم أفهم من أفسد عليّ هذا المكان. وأدركت أنني لن أنجوَ من الشقاء.

عمر للنافذة

ماذا تفعل الآن؟ كلّما انكببت على الورقة البيضاء تشعر أنّك تستأنف عملاً سابقاً كنت تخلّيت عنه منذ سنوات طويلة. كأنّك منذ عمر كامل لم تفعل إلّا أن تشعر بالخيبة. أن تندم وأن تموت حزناً، ما الذي يدفعك الآن، وكلّما اقتربت من الورقة البيضاء، إلى هذا الشعور بالخيانة. كأنّك تحبّ وتخجل أن تقول. أو تكره وتخاف أن تقول، كأنّك خائف. أو أن ما يخيفك يظلّ في داخلك، يكبر، يصبح جبلاً وأنت أضعف من أن تحتمل وأضعف من أن تقول إنّك الآن أشبه برجل يحمل جبلاً في الداخل ولا يستطيع أن يتحرّك. لا يستطيع أن يرفع عيناً أو يداً. لا يستطيع أن يصمت لأنّ الكلام قليل وأقلّ منه العالم الذي يقوله الكلام. فقط تخيّل أنّك تبني سدّاً بين الحنجرة والقصبة الهوائيّة وأنّك بجهد تتنفّس. وبشقّ النفس ترفع يدك أو تجيل بصرك بين الفينة والأخرى، في أرجاء المكان. على الأقلّ لم تمت. وليس في نيّتك أن تفعل. صعب. أن تكون هنا وتذهب. أن تكون هنا ومعك الآخرون، ثمّ لا تكون وليس معك الآخرون. تشعر أنّ الأمكنة تفرغ فجأة وأنّ الأمكنة الشاغرة في هاجس أشباحهم، يطوفون عبر الأشياء الصامتة وأنت هنا، وحدك أو أقلّ، تفتقد شيئاً ولا تراه. تحنّ إلى شيء ولا تجد ما يرفع عنك هذا الحنين. تعلم أنّ من شأن الآخرين أن ينتصروا. أن ينهزموا. ومن شأنهم أن ينسجوا من كلّ ذلك عزلة لك أشدّ ألماً وأقرب

إلى لحظة الغياب. أنت لا تعلم، لا ترغب في ذلك، فقط تبتعد كلّما اقترب منك حشد. كلّما أقفرت الأمكنة. لست مغتبطاً. ولست حزيناً. ولست حائراً بين الحالتين. ترى، فقط ترى، وتصمت. لا تبالي. تجعل من كلّ شيء ذريعة للانكفاء، جسدك، حتّى كثير عليك، أفكارك، الأحاسيس التي لا تعرف من أين كلّما أقفلت باباً. كلّما أغلقت نافذة. كلّما أطفأت ضوءاً. أنت لا تعلم. لا ترغب في اليقين المرهق لأوهام تقترب كلّما اقتربت من الورقة البيضاء. ولا تستطيع أن تهرب. لو تحفر في الأرض تصل إلى السماء لو تحفر في الأرض لتختبئ. لتطمئن. لتبالغ في الاسترخاء. على الأقلّ لم تمت. وتعلم أنّك هنا، أو هناك، في أيّ مكان تخليه الأصوات وتبتعد عنه الوجوه. إذن، تقترب كلّما أتعبتك البطالة في يديك وقلبك. كلّما رغبت في أن لا تقول شيئاً. فقط تقترب من الورقة البيضاء لتستريح. لتنام دون أن تعترض جسدك الغائب دوّامة الهواجس والكوابيس. تنام لتقتل شيئاً فيك. لتختبر لذّة أن تأرق. أن يعذّبك الأرق. أن لا تقدر على النوم. وأن تستيقظ متعباً كمن يجد مخرجاً سرّيّاً أو نافذة في حائط. كمن يجلس بعد سير طويل. تستيقظ إذن، وماذا تفعل؟ كلّ شيء كان البارحة ولو أنّ الأشياء لا تتكرّر، لو لم تكن بلهاء، لما كان هذا النهار. لما كان الأمس. ولما جدت نفسك في فخّ اليقظة الآن كأنّك تعيش اللحظة ألف مرّة وتضجر ولا تتبدّل الأشياء لولا الزجاجات الفارغة. تعرف أنّ اليوم لا بدّ أن يكون

«الأحد» لأنك تضع سبع قنانٍ، في آخر الليل، وتوصد بابك وتتردد قبل أن تطفئ الضوء. وتتردد. تموت أو تنفلق قبل أن تقرر أن تنام. بعد ذلك تحسم أمرك، ساعات وتستيقظ ثمّ ساعات لتعود وتوصد الباب من جديد ثمّ ساعات. كأنك تحصي شيئاً ما يغلبك، شيئاً يستغرق عمرك ولا ينتهي. ولا ترغب في أن ينتهي، لأنك، بعد ذلك، ماذا تفعل. ماذا تصنع بيديك. بعينيك المتعبتين؟ ماذا تفعل بهذا القدر الكبير من الوقت حتّى تظنّه لا ينقضي أو لا ينضب، تخيّل لو تستطيع أن تفرّق منه شيئاً. عمر للطاولة. عمر للنافذة. عمر لهذا الحائط. لهذا الباب. لساعة اليد. للسرير. عمر لقطرة الماء التي وحدها في الليل تحفر نفقاً في رأسك. وما يبقى لك ولا تستحقّه. أن تنقضي هذه الليلة، أو تستمرّ، لا تبالي، أصغيت إلى أحاديث العتمة والظلال، لم تفهم، لكنّ قلبك يؤلمك.

الحشد مرّة ثانية

لو يستطيع هؤلاء، أعني كلّهم: أصدقائي وأعدائي، أولادي وهيئات الصيانة والخدمات، نساء البرّ ورجالات الدموع، شاحنات المؤن والأكياس والأوراق الصحيّة... لو يستطيع هؤلاء أن يبتعدوا قليلاً، أشعر أنّني وحدي وأنّ صدري يضيق. ويصعب عليّ أن أتنفس. لا أدري ماذا يحدث في الأمكنة التي أعرفها وتلك التي لا أعرفها. سأطلب من أصدقاء لي أن يرفعوا عن صدري هذه الحشود. سأطلب منهم أن يقتلوني، أو أن نسكر

معاً حتى السّنة القابلة.

شخص العتمة

«صحيح، البيوت موجودة،
لكن ليس ثمّة مفارقة في أن
نؤكد، بصوت خافت،
أنك لا تستطيع أن تقول
الشيء إيّاه عن أولئك الذين
ما عادوا موجودين فيها».
(لوتريامون)

إلى أين تفضي المسارب الجوفيّة الكثيرة إذا كانت المدينة، هذه المدينة، مسطّحة إلى هذه الدرجة. كأنّ العتمة ومعها الأفكار السوداء تعود إليها في الصباح الأوّل، فتصمت الهمهمات والوساوس التي تنخر أذنك لساعات قبل النوم. هل تعتقد حقّاً أنّ البيوت التي تتراصف كالمربّعات في مساحاتٍ وأبراج، أرواحٌ ضالّة أو فاسدة تنتظر، كما نفعل نحن، ليل كلّ يوم، أن تعود إلى الحياة، فتتحلّق في الأمكنة المهجورة أو المهدّمة، وتسامر البقايا من كلّ شيء، أو البقايا من كلّ شيء لها أرواح هي الأخرى تبثّها هواء أوّل الليل لتستريح من حملها وتعود إلى التراب تراباً، إلى الحجر حجراً. إذاً لماذا تسمع في اللحظات حين تحاذر أن تقع في حفرة النعاس، أصوات أناس يخرجون، جماعات، وصرير أبواب عملاقة على أطراف المدينة ومن كلّ الجهات، كأنّ جدار الفضاء البعيد يتشقّق وتبدو من بين الفسوخ،

أدراجٌ قديمة تفضي إلى باطن الأرض، وتنضح، من الفتحات التي لا تشرّع على آخرها، نفحات حرّ وهواء كبريت وألسنة نيران تهبّ ثمّ تخبو، كأنّها الأضواء العابرة لمصابيح يحملها رجال ونساء يطوفون في الأرجاء ويمتزجون معاً، وكأنّ أجسادهم من طين ليّن أو من مياه. هل تكون هذه الرؤى أحلام المدينة وأسرارها؟ أو الأجسام التي تبتلعها الأرض تتنفّس هذا الدفء الفاسد وهذا الهواء الكربوني الذي يلقي ظلالاً على عينيك قبل أن تلج النوم الطويل وهو الآخر له أدراج تنحدر وتفضي إلى المسارب الجوفيّة المتشابكة. هل أحسست بفقدان الأمان الذي كان يجعلك متّزناً في وقفتك على الأرض؟ إذاً تبدأ الرحلة وليس في حوزتك إلّا الأدوات التي تعينك على لمس الاتجاه أو شقه. كلّما هبطت أحسست بالثقل، بشيء من الخدر، من الشهوة والجوع. كأنّك في سيرك تتخلّص من الخفّة، التي كنت تظنّها روحاً، من الفراغات التي كانت تصعد إلى رأسك كلّما فكّرت، كلّما شعرت بالغبطة أو بالخيبة. واصل الرحلة، إذن، وكلّما أحسست أنّ الأشياء المبهمة تقترب، أنّ المسارب تضيق ولا تكاد تتسع لك، وأنّك تتقدّم بصعوبة وأنّ جنبات السبيل تنغلق رويداً وتكبّل أطرافك، كلّما أحسست أنّ الهواء يضغط صدرك أكثر فأكثر، تكون اقتربت وإن كانت الخطوات أبداً، زمناً يستغرق أعمارك كلّها، تكون اقتربت وتكاد ترى شخص العتمة. تكاد تراه وأنت لا تبصر لأنّك مغمض العينين

والقلب. وحين تراه تعلم أنّه أحد أوهامك، يشبه خوفك منه رغبتك في الوصول إليه. وأنّك إذ تواصل سيرك تشعر أنّك لم تبقَ راغباً في الوصول وأنّ السير يجعلك أقرب إلى الطمأنينة، إلى ألفة غامضة فقط لأنّك لا ترى فلا يعذّبك اكتشاف الفارق بين الضوء والظلال.

تقترب من هذه الناحية. كتلة من العتم كأنّها أعماق متداخلة. وعلى وجهك رطوبة أنفاس راكدة في المكان. كأنّ الهمهمة في داخلها، مزيج أصوات بعيدة ورائحة دخان وطعم مرارة. أنفاس رجال ونساء متعبين، الآن، على الأسرّة، الضيّقة، حيث لا عناء. هل ترى شخص العتمة الآن، إذ يستريح في السراديب الطويلة. كأنّه الأنفاس، أنفاس النائمين في أرجاء المدينة، تغادر أجسادهم في عزلات النوم، وتتسرّب إلى باطن الأرض، وتحيا في الأمكنة الشبحيّة حيث يقيم الهواء الفاتر والأبخرة التي تتراكم وتتخذ أشكالاً تضيء ثمّ تعتم. حتّى إذا أضاءت أحسست أنّك هنا فتخلع حذاءك وتجلس متعباً. حتّى إذا أعتمت شعرت أنّ المسافة إلى قدميك وأنّها أطول من أن تجتازها حيّاً. إذاً تشعر أنّ الكائنات تذهب إلى النوم وأنّ جوف المدينة يهدأ. وأنفاس النائمين رتيبة. وشخص العتمة إلى المسارب الجوفيّة. وأنّك تستيقظ الآن، ينتابك قليل من الخوف.

أين تذهب عينا النائم؟

كنت تظنّ أنّ الأشياء تظلّ ماثلة، أمامك، بالأشكال

التي كنت تراها. وأنك إذ تنام، لن تغادر شيئاً. أنت تنام وهي تبقى، أمامك ولا تراها. على بعد أمتار قليلة لكنك لا تراها لأنّك تغمض عينيك حين تنام ولأنّ الأشياء لا تذهب إلى مكان آخر في الليل. كنت تظنّ أنّ للأشياء هذا الثبات. وفاء أن تظلّ هنا حين تغادر أنت: تمكث. لا تتنفّس. تنتظر النهار الذي يشبه النهار الفائت لكي تتأكّد أنّها هنا، وأنّك لم تغادر (لأنّها هنا) وأنّ كلّ شيء لا يمكن إلّا أن يكون أليفاً. لأنّك تراه الآن في اليقظة. ولأنّك لم تفقد عقلك بعد، كنت تظنّ لو أنّك لم تستيقظ، تلك الليلة، في نومك وكانت الأشياء، حقّاً هنا، ولم تعرف أين ذهبت عيناك. لم تتعرّض لحادث. لم تحترق بالضوء. والأكيد، أنّك لم تمت. إذاً أين ذهبت عيناك. أنت تعرف كلّ شيء ويكفي أن تضيء مصباحاً أو عود ثقاب فتأتي الأشياء إليك كما كانت. لتعرف أنّك لست ممدّداً على الهواء. وأنّ الساعة إلى جانبك، والطاولة، والمنفضة التي تنبعث منها رائحة الأعقاب المطفأة. وأنّ الخزانة، على الجانب الآخر، تمدّ يدك فتجدها. وأنّك إذا شئت تفتح النافذة فتسمع جلبة في الشارع، عربة تمرّ أو كلب ينبح. أن تفعل كلّ ذلك لكنّك الآن لا تعرف هل كلّ هذه الأشياء هنا أم ذهبت لأنّك تعبت ولأنّك لم تحتمل حبّك لها طوال هذه الساعات من الليل. وأنّ الغرفة الآن خالية. أنّ الغرفة الآن مكعّب من مساحات الكلس والبلاط. وأنّك تشعر بالبرودة. ترتجف قليلاً لأنّ العتمة باردة، ولأنّك لا ترى الآن لتشعر بالدفء. لا ترى

الآن لتمتلئ عيناك بالدموع وتلمع، لا ترى الآن لتستجدي، لتشفق، ليأكل الندم عينيك.

لست هنا الآن. وأحدٌ لم يغادر. حتى الأشياء. أين تذهب عيناك حين يأخذهما النوم؟

«حب الأشياء التي تدوم في قلب ميت ينتظرني»

(جو بوسكيه: معرفة المساء)

الأيام القليلة التي سبقت الحادثة كانت تزخر بلحظات الطراوة والرخاء، كنت تحسب أنّ الأمور ستدوم إلى الأبد وأنّ فناء العالم نفسه لن يغيّر شيئاً من شعورك بالرضا والامتلاء. الأيّام التي تحبها فقط هي التي تدخل في حساب عمرك. والباقي تنساه. ترميه جانباً، وراءك، تهمله. لا تفكّر فيه، ويكفي أن تفعل لتأتي الأيّام المتبقية. الأيّام القليلة الماضية كانت حقّاً سعيدة، حتى واحدها كان يتريّث لكي يتاح لك أن تستنفد كلّ لحظاته. الثانية الواحدة فيه كانت تكفي لأن تهدر أشياء كثيرة من حياتك الصغيرة والمستقرّة. تخيّل أنك في لحظة واحدة، في لمح البصر، كنت تذهب وتجيء، تحبّ وتكره، تشرب وتأكل وتنام ثمّ تستيقظ. وحين تنقضي اللحظة لا تشعر أنّ فراغاً ينفح قلبك أو أنّ الضيق يحجّر عينيك ويبدّد وجهك. كنت تعلم أنك باقٍ هنا حتى فناء العالم، حتى الليل، وحتى الصباح التالي. وأنت لا تكترث، لا تبالي كثيراً لأيّام أخرى ما دامت اللحظة عمراً كاملاً. كان يكفي أن تشعر بالرغبة لكي تتحقّق. كان يكفي أن تغمض عينيك لكي يتلاشى كلّ شيء من حولك. لكي يسود الفراغ. وتصبح أنت أثقل من العالم كلّه. أكثر حقيقة منه.

كانت الأجسام تقع وتتحطّم وما كنت تبالي. الأبنية تتهدّم ولا تلتفت. الأحياء يموتون، والموتى يطوفون

في الشوارع بأزيائهم الغريبة وأنت كأنك من بعيد ترى ولا تفهم كأنك من وراء ستار وراء حائط من زجاج، كأنك من عالم الآخر. لم تكن تسمع الأصوات تصل إليك ثمّ تتلاشى كأنها الأصداء لأحلام وذكريات قديمة. كنت تعلم أنّ أبسط الأشياء يقتلك ندماً وحنيناً. التفاتة، حركة عابرة. كان يكفي أن تسمع لكي يتشقّق جسمك ويتفتت وجهك وتنهدم. يكفي أن تبصر. لكي يتحوّل نومك إلى جحيم من الرؤى والخيالات. أن تفكّر لكي ينفجر دماغك. أن تكون هناك في تلك اللحظة، لكي يتبدّد كيانك في الهواجس الغريبة للكائنات والأشياء. وكنت تظنّ، في الأيّام الماضية أنّ عمرك يتّسع، حقّاً، لكلّ هذا؟ الأصوات والوجوه والشوارع والقضايا الكبيرة والصغيرة. أن لا تدع شيئاً ليوم آخر لست واثقاً منه. أن لا تدع اليوم الآخر من فتحة في الغرفة المغلقة، بين الجدران، في المربّع الفسيح والبارد الذي يتّسع لك ولقطع أخرى لا قيمة لها، لكنّها، مثلك، هنا في المربّع الفسيح والبارد، على جنباته، في كلّ زاوية. في كلّ ثنية ضوء تقع من النافذة على البلاط. كنت تظنّ أنّك لا تتوهّم. ويكفي أن تمدّ يدك لتحظى بالطمأنينة لأنّ في احتقارك كلّ ما يسعى رغبة في امتلاك السكينة التي ستمضي بك، ستمضي بهم جميعاً إلى فجوات عميقة في الأرض. لأيّام خلت كانت الأمور سهلة وواضحة، ويكفي أن تقف بعيداً، أن تحدّث نفسك عن أشياء تحبّها أو تفتقدها الآن. وكنت تظنّ أنّك في حصونك غير قابل

للرعشة، غير قابل للامتزاج أو للضياع في غمرة هذا السيل البشري. كان يكفي أن تبقى الوجوه مغفلة (ومعها الأسماء) لكي تشعر بالأمان. لكي تشعر أنّ أحداً لا يهدّد هذه الحياة القليلة التي اعتدتها والتي أكسبتك ميلاً ملحّاً للاختباء. كنت تنكفئ حين تبدو الأمور صعبة، وكانت الأمور لا تلبث أن تجد حلاً ما دام النسيان، وما دام شاغلك أن لا تفقد لحظة تنفّس واحدة. حتّى لو تقوّصت الدنيا كنت تستغرق في النظر إلى نقطة غير محدّدة في الفضاء أمامك. وكنت ترى، كما حدث لغيرك، أشياء لا تألفها وتظنّ أنّ عينك هي التي تصنعها، وأنّ الأوهام، حتّى الأوهام، جميلة حين تقبل علينا من تلقائها. لكنّك كنت تعلم، كنت تحدس أنّ الوقت الذي تفسده، الآن، أنّ اللحظة، ينقضيان دفعة واحدة وإنْ تريّثا قليلاً. وأنّ الذاكرة، حتّى الذاكرة، لا تحيا إلّا في الأيّام القليلة الماضية، لذلك كنت تشعر بانقباضات مفاجئة، وأحياناً إلى حدود الاختناق دون أن تعلم لماذا، فجأة، يصبح التنفّس صعباً وشاقّاً، ولماذا حين يبدأ خدر الأطراف تحسّ بأنّ الأشياء، كلّ الأشياء، تتلاشى من حولك، وتصبح أطيافاً أو ظلالاً تخفت في عينيك ثمّ تنطفئ. كنت قبل الحادثة تغمض عينيك مطمئناً. لا شيء يتبدّل بهذه السرعة. حتّى أنت نفسك، كنت تحاول أن تستيقظ فجأة وتجد، بفرح شديد، أنّك لم تذهب إلى أيّ مكان، أنّك هنا. وأنّ الهاوية كلّما غَفَوْتَ ليست أعمق من عينيك. فقط ينغلق جفن بتثاقل

فينحبس الضوء تحت الغشاء الأملس، ثمّ يذوب رويداً في السائل الذي لا لون له، فيفقد ألوانه، ثمّ تنحلّ عناصره ويتسرّب غباره الضوئي إلى مسالك دقيقة تتشعّب في الرأس وتحتلّ تجاويف عظامه، كالمياه الراسبة. فتعتم المياه. ويعتم الرأس. وعندما تحاول أن تطرد عنك هذه الأفكار السخيفة كانت تبدو المسألة أقلّ تعقيداً وكنت تقول: النائم ميت، يستيقظ لمشاغله أو ليغلق درفة مفتوحة، أو ليسدل ستاراً أو ليبصر نفسه ميتاً فيطمئنّ إلى أنفاسه الرتيبة ثمّ يعود.

قبل الحادثة كنت أكثر ثقة ثمّ فجأة تبدّلت. كأنّك لم تكن أنت أو أنّك لم تبقَ الآن أنت. أحدكما ذهب ولم يعد. فتح باباً في مكان ما، دخل وجلس ولم يعد، وجد ما يشغله في مكان آخر، أناساً آخرين، وأحاديث أخرى، اغتبط وقرّر أنّ ذلك مكانه الجديد. ارتضاه وما عدت تعرف عنه شيئاً. لا في المحاضر ولا في البيانات. ذهب وقُضي الأمر، كنت تحسب أنّ حادثاً يربك عيشك، يحدث ولا تعود تقدر أن تقول ما كنت تردّده من قبل. أن تفعل ما اعتدته من قبل. ماذا تفعل له كنت تمشي وما عدت تعرف إلى أين؟ تظلّ تمشي. لا يستوقفك شيء. لا يلفتك وجه. فقط تمشي وحين تفكّر أنّك لم تصل وأنّه كان عليك أن تتابع الطريق. وتندم. ولو استطعت لوقفت من جديد لتمشي. تخيّل لو أنّ عمرك يتّسع لكلّ المسافات، ماذا كنت تفعل؟ كأنّ العالم يمرّ بك، يحاذيك على الجنبين، ويعبر. الناس العجلات،

الأرصفة. البيوت. أعمدة الهاتف. اللافتات والحوانيت والمقابر. الأسوار، الأبواب، الشرفات، الموظّفون والباعة والجنود. والبحار والصحارى. المطر والغيم والمياه. الشمس والجنادب والأعواد. الجبال والهواء والكائنات الأغرب، تمرّ بك وأنت تمشي، وتظنّ أنّك تصل بعد وقت، وإلّا لماذا هذا العناء؟ كانت المسألة لا تستحقّ لو أنّك صادفت أحداً ليقول لك لا جدوى مما تفعل. أو يقف أمامك كالجدار. كنت استطعت قبل الحادثة أن تدير ظهرك، أن تعتاد غيابك وتقول هذه الأمور غريبة، وتهزّ رأسك وتجلس في المقهى وتستغرق في اهتمامات أبعد من كلّ هذا، بسيطة، لكنّها أقرب إلى الآخرين الذين ينظرون إليك كأنهم يبصرونك أو كأنّك لست هنا وأنّهم أخطؤوا حين اعتقدوا أنّك تعرفهم وأنّهم يعرفونك وابتسموا لك ولم تردّ بابتسامة. تخيّل هذه الأعداد من الوجوه التي تظنّ أنّك أبصرتها وأنّك تعرفها وتخطر لك أشياء عنها. ذكريات غامضة، وحين تبدأ بالتعاطف، تألفها فتصبح فجأة غريبة ودميمة. عيون تحدّق إلى أشيائك. كلام لا يقال لكنّه كثير ومرتفع ولا تكاد تحتمل نبرته. وحين تقرّر أنّك ما عدت تستطيع الإصغاء يتحوّل إلى حشرات تدبّ وحشرات تطير وحشرات لا تراها لكنّها تملأ الهواء بأنواع من الصخب الخافت والحفيف حتّى لا تكاد تسمع شيئاً آخر. وكنت تظنّ، برغم ذلك، أنّ الحادثة لن تغيّر حرفاً. وأنّك لست خائفاً وتنام ساعة تشاء وتصحو وتغسل وجهك وتتنشق هواءً نظيفاً

وتنتهي. كأنْ لم يحدث أمر.

وقائع الحادثة

كنت جالساً على طرف الكنبة أو على حافة السرير. على كرسيّ وحيد في وسط الغرفة. إلى جانبك سكملة صغيرة: كوب الماء وأقراص صغيرة بيضاء. ساعة يد. صحيفة الأمس. كأس وعلبة سكائر. كنت جالساً وكنت تبتسم كأنّك تجامل أحداً ما أو كأنّك تذكر شيئاً من بعيد. لم تكن الغرفة مضاءة لكنّك كنت ترى بوضوح. كأنّك تفرح بالأخيلة وظلّك المكوّم على الجدار. تتنفس ببطء، بلذّة، بانتشاء. لا تفكّر. كأنّك الآن لا ترغب في شيء. لست مغتبطاً لكنّك لست حزيناً. فالأمور تتشابه إلى حدّ بعيد. وأنت ترى (تنظر كأنّك ترى) المشهد العابر لكائنات تمرّ بك، أمام عينيك، ولا تلتفت، لا تحرّك جفناً.

كنت جالساً والنافذة وراءك وأمامك الحائط وإلى جانبه الباب. لم تكن تعلم ماذا تفعل ليكتمل كلّ هذا.

وصف لرجل ممدّد على الأرض

كنت ممدّداً على البلاط. طرف الكنبة (أو حافة السرير) مرتّب وخالٍ. كرسيٌّ شاغرٌ واحدٌ في وسط الغرفة. كوبٌ فارغٌ على الطاولة الصغيرة. علبة سكائر فارغة. عدد من صحيفة الأمس مطويٌّ وموضوعٌ على الطرف. لم تكن تبتسم. كنت بارداً وشاحباً كأنّك نزفت كميّة كبيرة من الوقت.

كنت ممدّداً والنافذة وراءك وأمامك الحائط وإلى

جانبه الباب. كانت الغرفة مضاءة. منظر طبيعة صامتة.

لديك بعضُ الوقت، القليلُ منه، لتنظر من النافذة، لتدخّن سيكارة، لتنتظر، وربّما لتكتب شيئاً لا تعرف ماذا بالضبط. لديك بعضُ الوقت، يكفي لتنجز أمراً تافهاً كأنْ تقرأ أو تحدّث نفسك وتظنّ أنّ الكلامَ جسدٌ يجعلك تُحسّ بالراحة أو بالانشغال لبعض الوقت، أي لكلّ ما تبقّى لك. ثمّة من ينبح، تحت، في الشارع، بحرقة من ليس لديه الوقت، هو الآخر، بخوف من أن ينقضي وقته وينفد ولم يفعل بعدُ سوى أنْ ينبحَ بحرقة وخوف. لستَ مطمئناً. تظنّ رأسك يخونك. صداع. عيناك تنطفئان. تنهض. وقت لكأس أخرى، هي الأخيرة، طبعاً، بعد سابقتها الأخيرة. تشعر بضيق لأنّك لا تستطيع أن تجعل من أيّ كأسٍ كأساً أخيرة. ولكنّك تظنّها طريقة لهدر ما تبقّى لديك من الوقت. ثمّ إنّك تساعد نفسك على النوم وإن تأخّرت قليلاً لتسمع هذا الشيء الذي ينبح ولديه الوقت ليفعل ذلك. تحسب أنّك تشعر بالغبطة، لديك بعض الوقت ولا تفعل شيئاً. تمشي بين الغرف تتفقّد عتمتها وتطمئنّ لا أحد هنا سوى العتمة والأنفاس التي ظلّت هنا منذ البارحة أو منذ وقت لا تذكره، لكنك تعرف، من الرائحة، أنّه قديم. لم تكن تعلم أنّ النّفس الراكد تفسده الرطوبة وأنّ البخار الذي يبقى يتجمع بين الزوايا، وتظنّ أنّ العث أو خيوط العنكبوت تمتص حرارته ويبقى عالقاً فيها.

إذن تمشي لبعض الوقت، القليل منه، وتطمئنّ، الأطياف لا تمشي، تحوم في محاذاة السقف وتعرفها

حين يرطّب وجهك هواء بارد، النوافذ مقفلة. أيضاً الباب الخارجيّ. والأبواب الداخليّة. حتّى الستائر و«النملية» ودرف الخزانة، مقفلة ومطمئنة. إذاً من أين كلّ هذا. تزرّر قميصك جيّداً. وتتثبت من أنك لم تنسَ حتّى الكُوى العلويّة، في الردهة أو في الحمام. تجد كتاباً مفتوحاً. تغلقه. تتثبّت من قفل الباب. من أزرار الكهرباء. من الشقوق التي في السقف وفي الجدران. من أنابيب المياه. الحنفيّات. قارورة الغاز. من ثقب الباب. كلّها مقفلة. إذاً تستطيع الآن أن تنتظر ما تبقّى لديك من الوقت. وحدك. في انتظار أن ينفد الهواء. وإذا تجدّد تعاودك الريبة من فتحة ما لم تنتبه لوجودها. تنكفئ إلى مكان. إلى زاوية. تجلس. تجمع أطرافك إليك. بساعديك تحتضن ركبتيك وتشدّهما إلى صدرك. تختزل، قدر المستطاع، الحيّز الذي تشغله من الكنبة. تسند جبينك البارد إلى ركبتيك. تغمض عينيك وتنتظر لبعض الوقت، القليل منه، الذي لا ينتهي. تظنّ أنّك إذا مددت يدك لتلامس شيئاً يرعبك، تفقدها. إذا نظرت خسرت عينيك. وأنّ الهواء الذي تتنفّسه زفير كائنات غامضة يفسد رئتيك. تتوقّف قليلاً عن كلّ شيء. بعض الوقت. تشعر بأنّ الاختناق يصعد من الصدر إلى أعلى، يضغط الصدغين ثمّ يحقن شرايين الرأس، تتنفّس بحرقة وخوف. تلهث، تشعر بالخدر في كلّ مكان من جسمك، كأنّه يفلت منك. يبتعد. يقترب بإيقاع النبض المحتقن في تجاويف العينين. تهدأ. تشعر

بالتماسك من جديد. تعود إلى جلستك السابقة وهذه المرّة تفكّر: كنت أضيعُ منّي. كنت أذهب. شيء يتسرّب عبر الأقفال. تعود وتمشي بين الغرف. الأشياء مقفلة. والعتمة في مكانها. لا حركة. لا صوت. فقط أضواء تعبر بين الفينة والفينة ثمّ تضمحلَ كأنّها أرواح أخطأت طريقها أو كأنّها التماعات عيون زائلة. لم تحلق ذقنك منذ وقت وتشعر بمرارة في فمك. الأرواح اللئيمة تطلع من الفم أحياناً. من الإحساس بالمرض. كأن تنظر، طوال الوقت المتبقّي، القليل منه، إلى نفسك في المرآة، فوق المغسلة. تفتح الحنفيّة ولا تقرب الماء. فقط تسمعه. كيف يخترق الأنابيب التي تقلق روح الجدران بأصوات غريبة. تهدأ. تتمالك الرعشة التي تصعد فيك. تشعر بالبرودة. تتحسّس وجهك وتشعر بلذّة الخشونة من ملمس ذقنك النابتة. تقلّد أصواتاً غريبة. تبتكرها. تتمادى في لعبتك. تضحك. ثمّ تبتعد. تقنع نفسك بأنّك لست غريب الأطوار وأنّ هذه الأمور تحدث ما دام لك وقت. وما دمت هنا. وحدك. أقفلت كلّ شيء. ورحت تنتظر.

«إنّها (الحياة) تمنح للجميع للاستخدام ولا تمنح
لأحد للتملّك.
لكن هناك كلّ شيء ساكن في ذلك الرقاد الخالد.
فكلّ الحكايا الكئيبة الموحشة التي ينشدها
الشعراء
تثبت صحتها على الأرض لا في الجحيم».

(لوكريشيوس)

الوقت الذي أتحدّث عنه ليس لعيناً ولا شاذّاً ولا رتيباً. إنّه الوقت. وسيلة انقضاء أيّ شيء، كلّ شيء. الوقت الذي يقيم معنا أو هناك. في الأمكنة كلّها. الذي يمرّ عبر النافذة أو الباب. عبر الصباح ومنتصف الليل وما بينهما. عبر هديرٍ أو ضوضاءَ في الشارع. عبر الصمت. الانتظار. البطالة أو الانشغال، الهواء أو القيظ. عبر مسارب المدينة المقفلة. عبر الصحراء، السعادة، قوّة الأشياء التي هنا وتمكث، هنا أيضاً، أكثر ممّا تستطيع أن تحتمل، أكثر ممّا أنت. الوقت أعني كلّ شيء. أن تجلس أن تنهض أن تضحك أن تصرخ أن لا تفعل، وتتقبّل، بصبرٍ أو بنفادِ صبر، برويّة أو باستعجال، بشهيّة أو بامتعاض، الوقت أقصد: لا شيء. ما يدوم وما لا يدوم، الفراغ الذي بين حجرين في الحائط، الثقل في الرائحة وفي النوم وفي الهواء. الخفّة في الحلم أو في الهذيان. الوقت أعني الديناصور الذي يربض على رئتي اليسرى والخرتيت الذي يربض على رئتي اليمنى. الحشرة ذات القوائم التي تدخل من أذني وتخرج من أذني. العطن

الذي في أنفي إلى تلافيف الدماغ. الفراغ الذي من السرير إلى النافذة إلى الطاولة إلى السرير. الوقت أعني عدد الكؤوس بين الصباح والظهيرة ثمّ بين الظهيرة والصباح. الجموع التي هنا وتترك لك خرم الإبرة لكي تستريح، وتتمدّد وتركض وتدخّن وتسعل، ليفتّ عصبك من الاحتقان. الوقت أعني القطار الذي يهدر في رأسك. اختلاق الفكرة لكي تفكّر، اختلاق المشهد لكي تصعد إلى الخشبة وتراك تصفّق لك وتشعر بالسعادة. الوقت لكي تضع يدك على جبينك، لكي تضحك أو تشعر بالرغبة في البكاء. الوقت لكي تتمالك. لكي تفكّر أنّك لا تريد أن تفكّر. لكي تنظر إلى الساعة ثمّ تنظر إلى الساعة ثمّ بعد حين تنظر إلى الساعة وتفكّر كم تستغرق الدقيقة من نظرات إلى الساعة وكم تتسع الدقيقة لأمور ما كنت تحلم بها. وتعجب للوقت الذي انتظرته لكي تصبح في الثلاثين. يا الله! دهر من التدخين والسير والنوم والحبّ والحقد والمرض والاكتئاب والسعادة. من الأنفاق والجسور والفسحات الراعبة. الوقت يعني الخوف المتعاظم حتّى لا تقدر على الاحتمال. الرعشة التي تحسب أنّها جرف أرضي أو انهيار في الكون. اتّساع السنتيمتر المربّع إلى هذه الحدود. أقصى ما في أقاصي المتر الواحد. العدد والكميّات والأحجام. العالم! (تخيّل!) العالم وأنت لا تتعرّف إلى الوجوه. إلى الكائنات، إلى هذه الطرق الغريبة في الاحتجاج والتآلف والامتزاج في الغبطة والرجاء. الوقت كمن يذهب لا

يعرف إلى أين، إلى القمّة أم إلى الوهد، إلى المحافل أم العزلات، إلى مكان في آخر نقطة على الأرض، إلى اليابسة وإلى المياه، إلى العيش بالدقائق وإلى الموت بالدقائق. الوقت كمن يتكلّم إلى نفسه ويسمعه آخرون، كمن يصغي إلى نفسه ولا يفهم ما يقول. الوقت كالمرتفعات، كالخردة في الضواحي، كالوقت الذي يمضي بين الأوقات المعتادة ليوم طويل من الدوران بين الغرف، أو بين الأحياء المسلّطة على أحياء تشببها والممرّات التي تنتهي إلى أبواب ممرّات أخرى، والأبواب المشرّعة في صفّ طويل، هو أيضاً. الوقت لتواصل السير عبرها، لكي تحصي حبّات كومة من الرمل، عدداً يتضاعف حتى لا يتّسع الورق لأصفاره. الوقت لكي لا تجد وقتاً لأحد أو لشيء، كي تموت في انتظار الوقت وتندم على فواته، لكي تبحث عن المزيد منه وتنتظر انقضاءه لتطمئنّ لتصدّق أنك ما زلت حيّاً وأنّك في الأثناء أضعت شيئاً منه فتهرع لاستدراكه. والوقت لكي تذهب إلى أبعد ما في الخسارة، إلى أوحش ما في الخلاء، لكي لا تكفّ عن الذهاب إلى الأوقات الفائتة، إلى الذين ما عادوا هنا، إلى المكان الضائع لشدّة ما يشبه الأمكنة الأخرى، لشدّة ما ليس هو، لشدّة ما ضللته في الطريق إليه. والوقت أن تذهب إلى الأماكن الخاطئة لكي تعود منها، أن تحصي الهفوات الصغيرة التي تعذّبك لتكبر معها في الممالك الشاسعة لملوك رعاع وطحالب من كلّ نوع، في الأبنية البهيّة للخواء الغامر في

الإغراءات الضخمة لصدى الأنفاس الرتيبة. في مقالع النهارات والأماسي. الوقت أن تكون وحيداً حين ترغب في قتل نفسك. أن تقتل نفسك لكي تحمل جثتها على كتفيك طوال العمر. أن تحفر بئراً بشفرة الحلاقة وتريدها أعمق، دائماً أعمق. الوقت الوافر في حبّة الفاليوم، في علبة الأسبرين. ما يكفي لأن يحياه الآخرون عنك. ما يكفي لقتل غول أو تسميم أفعى. ما يكفي لعشرة آلاف قتيل في قبورهم الخضراء الجاهزة. ما يكفي لهدم مدينة لبناء محرقة جماعيّة. ما يكفي لكتابة سطر بأكمله من رسالة عاشقين سعيدين. لاستنفاد هرطقات الجسد من أقصاه إلى أقصاه. للهذيان. لابتلاع المقوّيات والسكائر والكحول. للجنون الذي يجعل الأشياء ممكنة الحدوث. لتكون أنت نفسك ممكناً وليس وهماً أو تخيلاً أو شخصاً تراه في كابوس مزعج. ما يكفي لأن تضاء الأمكنة جميعها لكي تميّز نفسك من الظلال والأشباح. لكي ينفصل عنك الكرسي وتزول لعنته الخشبيّة.

الوقت لكي ينحسر زجاج عينيك. لكي تقع الأشياء في كسوره المتناثرة.

(إلى عمر، هذه التغريبة)

«كانت تلك ساعة جدّي، وعندما أهداني إيّاها أبي
قال: كونتن، إنّي أعطيك ضريح الآمال والرغبات
كلّها. وإنّه لمن المناسب إلى حدّ العذاب أن
تستخدمها
لتكسب النهاية المنطقيّة الحمقاء لاختبارات
الإنسان
جميعها، (...). إنّي أعطيك إيّاها لا لكي تذكر
الزمن، بل لكي تنساه بين آونة وأخرى (...)».

(وليم فوكنر: «الصخب والعنف»)

لكي لا تنزلق من حافّة اليقظة الشاهقة إلى بئر النوم، واصلت سيرك. لم تكن تجتاز مسافة بين مكان وآخر، كنت تجتاز البقاع الفسيحة لدقيقة واحدة. وحين تتعب تحدّق في الساعة من جديد. الوقت لا يمرّ. يمكث هنا، حيث أنت في اليقظة المضاءة بالمصابيح. إذاً تحاول أن تنسى. أن تشغل نفسك. تعدّ المارّة الذين يسيرون في اتّجاه الناصية الشماليّة وبالعكس. ثمّ تعدّ خطاهم وتتعمّد الخطأ لتعيد الكرّة من البداية. واحد، اثنان مئة، ألف، ألفان... تشعل سيكارة، تغمض عينيك تأخذ نفساً عميقاً تشعر بحريق عند أسفل الرئة اليمنى. تفكّر أنّك ستقلع عن التدخين منذ صباح الغد. وتفكّر أنّ الأمر أسهل ممّا تتصوّر. يكفي أن تقلع عن التدخين. وأن تنسى الساعة على الطاولة وحين ترفع معصمك لتعرف كم الساعة، لا تجد الوقت. لا تجد وقتاً. وتغتبط في

سرّك لأنّك لم تعرف وتواصل وقفتك الطويلة خلف النافذة حتّى تشعر بألم في ساقيك ومرارة في فمك. لم تعد الأوقات كما كانت في الأقل. تأتي في مواقيتها. تنصرم أو تفوت أو تضمحلّ أو تلوّح على الطرف الآخر من الانتظار. كم الساعة؟ لا تبالي الآن. لتكن ما شاءت. الأمر لا يعنيك. نسيتها وانتهى الأمر. حتّى الضوء لا يدخل إلى الغرفة (ترخي الستائر كلّها) والجرس الكهربائي تخرسه (تقطع السلك بسكّين المطبخ ثمّ تأخذ مهدّة وتطحنه). والأشياء (وأنت) تبقى هنا كما هي. ليس لأنّك تخشى أيّ شيء كالعزلة مثلاً، كالدوران بين الحجرات، كمن يبحث عن شيء ولا يعود يعرف ما هو بالضبط. ليس لأنّ الزمن أو العمر أو الأيّام أو أيّ شيء من هذا القبيل. فقط لأنّ الوقت يؤلمك. يجعلك تفكّر في الوقت ولا تعود تعرف كم الساعة الآن وماذا تفعل الآن وما الذي تنتظره الآن أو البارحة أو العام الماضي. كأنّ شيئاً تغيّر في الوقت. تك. تك... منذ 1955 حتّى اليوم. كأنّ شيئاً سيتغيّر بين لحظة وأخرى، يتأخّر قليلاً، بين دهر وآخر، يرجئ حدوثه لكنّه يأتي، ولا بدّ لكي يأتي أن تغرز ركيزة الانتظار وأن تداري أنفاسك (لكي لا تنفد) بين سنة وأخرى، بين حرب وحرب، بين جماهير وجماهير. وفي الأثناء تكون نسيت قليلاً. يأتي أناس تحبّهم. تحبّهم ويقولون: نرحل. أكثر. يقولون: رحلنا. والمدينة، والبيوت، ماذا؟ لك وحدك؟ كثيرة عليك. والبلاد. ماذا؟ ماذا تصنع بها، البلاد؟ تقف على قبورها

الواسعة كالغراب وتطلق بالونات النعيق في الأماسي الرطبة أو الحارّة لكي تحفظها من الوقت بمسك الأتربة والنفايات، من الاختلاط بالأشباح: ـ (THRILLER)، التي هنا وتمرّ، هي أيضاً، متربة صفراء لزجة بطيئة. أم تجلس على بوابة القفر المشيّد تعدّ أصابعك وتدخّن وتقول للمارّة، حين يلتفتون، إنّك البستاني الذي أنبت النار في الجحيم وسقى الشواهد هنا والإسمنت والنخيل هناك وبنى المدينة على هذا الرعب الذي تراه، الضخم المجعّد بالتضاريس، وها إنّك تستريح الآن، فالوقت يتسع لما تبقى، لأنفاسك الميتة، لشعرك، لأفكارك لملابسك الميتة، للألم الذي يمكث في رأسك كصخرة. قل هذا. قل إنّك نادم الآن وأشعل سيكارة أخرى وانفث دخانها على مهل كمن يفرّغ قربة اختناق. ثمّ انظر إلى أبعد ممّا تستطيع عيناك. تراب على تراب على تراب. والبلاد كلّها تنفضها كالكيس ولا تجد حبّة هواء. لك. وماذا تصنع بها، البلاد؟ إذاً يأتون، من تحبّهم، في الليل وفي النهار في الوقت وفي غيره ويقولون: رحلنا، والمساحة من حولك تزداد اتّساعاً والضحكات والأنفاس والأحاديث والأبواب تضيق. قل إنّك البستاني هنا وتعرف كيف تنبت فاكهة الليل وشوك النهار. كيف تعدّ أصابعك وتدخّن كمن يرغب في اكتناز دخان العالم وقطرانه في رئتيه، وتفكّر. البلاد. وحدك. ماذا تصنع بها، البلاد؟

«حتّى لو كانوا 995 مليوناً وأنا وحدي، هم المخطئون يا لولا، وأنا على صواب لأنّني الوحيد الذي

يعرف ماذا يريد: لم أعد أريد أن أموت».

لوي فردينان سيلين

(رحلة إلى أقصى الليل)

لا تذهب. في آخر الطريق حفرة كبيرة وحلمت بالأمس أنك تسقط فيها. قد لا يكون هناك حفرة، حتى ولا طريق، لكن لا تذهب. لأنّك لا تدري متى تسير في حلم رجل آخر. وتخيّل أنّ الرجل الآخر يحلم بحربه. وتخيّل أنك تزحف، في الحلم، تزحف، على صدرك وبطنك وركبتيك ورؤوس أصابع قدميك. وتشعر بالألم. وحين تظنّ أنك تتقدّم تبتعد عنك الحفرة أو يستيقظ الرجل وتظلّ أنت هناك، بين البيت والحفرة، تتلاشى ومعك الحرب والطريق والحفرة. تخيّل رعباً مجرّداً كهذا لا تستطيع أن تفلت منه لأنّه مجرّد، أي خارج سحر الوسائل والطرائق. تحومان معاً إذن، أنت والرعب، ولا أحد يحلم لك بخشبة خلاص أو سكّين أو عصا لتقتله وتستريح. لا تذهب إذن. قل إنّك لا تعلم لماذا لا ترغب في الذهاب وإنّك فقط ينتابك إحساس بالخوف. لا لأنّك تخاف على شيء ما، على نفسك مثلاً، بل لأنّك لا تحتمل الخوف، لأنّ قلبك ضعيف لم يألف الحروب بعد. بل - وإن أزعجكم ذلك - يكرهها ولا يرى سبباً مقنعاً يجعلها ضرورة بين كائناتٍ وكائنات، أو بين معادنَ

ونيرانٍ وبيوت، أو بين أحياء تتراصف بالإسمنت وتتراشق بالدويّ الذي يفسد الأذنين ويفث عصب القلب. قل إنّ قلبك ضعيف ولا يحتمل حتّى أربعين سيكارة في النهار. ولا مشهد دماء. ولا حادثة طارئة. ولا خبر موت. حتّى مشهد الجنازة يصيبك بدوار. وتشعر بالحقد على الميّتين الذين يتجوّلون في الشارع مع أحياء وسيّارات وتراتيل وبخور وعيون دامعة. وحين يمرّ الحشد في الأسفل في محاذاة نافذتك تسدل الستارة وتتراجع وتجلس، على كرسيّ أو على حافّة الكنبة أو تسند ظهرك إلى الحائط المقابل وتطوي ركبتيك وتنزلق، ظهرك إلى الحائط بقوة، وتجلس القرفصاء، لساعتين، لثلاث ساعات، أكثر، أقلّ، حتّى تعتم، وتتلاشى الأصوات من أذنيك، الغبش، الغثيان من عينيك. ويذهب المعزّون إلى بيوتهم. الميت إلى التراب وأهل الميت إلى عزلاتهم الراعبة. إلى الهمس المجوّف، إلى الصمت الذي، لا كالمستنقع، لا كالنوم، لا كالمحيط، كالأنفاق التي تخترق جبلاً وتأسر روحه بثقل التراب والصخور. كالسراديب في عالم سفلي وأعمق. من دون صوت أو وقع أقدام أو لهاث أو خلجة عين. صمت أعمق من الأعماق، من عين مطفأة: من مياه سوداء. من مرآة مظلمة. من الجحيم. من قلب الأرض. من الكوكب الذي ينوص وهو يبتعد. من قلب مثقوب. من صدى القطرة الوحيدة التي تنزّ من الحنفيّة وتوجع إلى آخرها.

إذن لا تذهب، إلى الحفرة. كانت سيّارة تمرّ. بيضاء

وكان حشد يمرّ. كتلة تمر. سوداء. وأنفار يحملون الحفرة في أعينهم. في رؤوسهم المطرقة. لا تذهب إذن. تمسّك بسلك. بحافّة جدار. بعمود الكهرباء. لا تذهب. باردة. رطبة. لا حطب هناك. لا نار. تكون وحدك. إلى آخر ما في الوحدة. وحدك إلى آخر ما في دموعهم وآلامهم. إلى آخر ما في حروبهم، في النسيان. وقل، وإن أغضبتهم، ماذا يجدي إن... لستَ تدري. فقط... قلبُك ضعيفٌ والليلُ وحده يخيفك. ولا تدري لماذا تظنّ أنّ ربع ساعة فقط من الليل يتّسع لكائنات غريبة لا تعرفها. مئات. آلاف. مئات آلاف من الكائنات الصامتة والغريبة. إذاً ماذا تفعل بدهرٍ من الليل. كيف تتّجه، كيف ترى، كيف تتنفّس. تخيّل صفحة مطليّة بالحبر الصيني. ويقولون لك اجلس هنا لا تتحرّك، بئراً ينزلونك، إلى منتصفها ويقولون لك تشبّث جيّداً. نحن لن نأتي. أحد لن يأتي. ولست تحلم لتستيقظ. ماذا تفعل؟ تفكّر أنّ البئر ليست هنا، أنّك لست هنا، أنّك خفّاش؟ تموت رغبة في أن تكون خفّاشاً. لكنّك لا تستطيع. إذن، لا تذهب إلى الحفرة. تصنّع السعادة وقل: سعيد هنا. بِكُم. بالآخرين. وبالأجناس الأخرى التي لا تعرفها. بالغ السعادة، بالكرسي، بالنافذة، بالمارّة، بالمقاهي، بالبنوك، بالموظّفين والتلامذة، بكلّ شيء، بلاشيء، بك، بالأخوة الذين يسيرون خلف السيّارة البيضاء. وتواسي: عظّم الله أجركم. أو تتمتم شيئاً لا تفهمه، كأنّك تحكي لغة غريبة. وعيناك، منذ ولدت، حمراوان. لا لأنّك عاطفي.

لأنّك مدمن. تخيّل تفاهة أن تملك عينين اثنتين وتحفظهما (لأيّ شيء؟). تشتري أنبوباً من الصيدليّة وتقطر فيهما. صباحاً ومساءً. عينان ولا تتلفهما بتحسس الأشياء. كأن تغمضهما في العتم. تنام، تقلبهما إلى الداخل، لا لترى لتظنّ أنّك ترى في الحلم وفي الكوابيس. عينان ولا تنظر من النافذة. ولا تستيقظ. يدان وتضعهما في جيوبك. فم ورأس ولسان وفخذان وجذع وعانة وما تبقّى، وبعد ذلك تقول: اذهب إلى الحفرة. تبّاً لك ولي ولهم. ينتظرون. صنّاجاتٌ وعيونٌ تدمع ومحافل. فقط قل إنّك لن تذهب. وماذا لو ذهبت ولم تجدها. الحفرة؟ تكون ضيّعت وقتك ووقتهم. لا تذهب لأنّهم دائماً يعودون. يرشّون تراباً وأكاليل. وأنت متى؟ سنة، اثنتان، ثلاث. تستطيع ربّما أن تظلّ تحت البلاطة الثقيلة ونصف طن من التراب، وتحبس أنفاسك، شهراً بعد شهر. وبعد ذلك؟ أنت تذكر. وهم؟ أنت تختنق، تضجر، وقد تموت غيظاً. وهم؟ تظنّ تستطيع أن تطرق باباً، يأتي أحدهم، يفتح لك وتدخل ثمّ تنسى. تظنّ أنّك تجد صورتك على الحائط وأنّ ثيابك في الخزانة. وأنّك تستطيع إذا شئت أن تتذكّر وتضحك. أو أن تتذكّر وتبكي. أو فقط تقول: ها عدتُ. ويكفي أن تستأنف كلّ شيء. الأحاديث والكتابة والنافذة ومزاحك الثقيل. وتكون سعيداً وهم أيضاً سعداء بك ولا يخافون من أطرافك المتربة ووجهك المتكلّس وعينيك الغائبتين. قل: لن أذهب إذن. واجهد

أن تظلّ يقظاً، أن تتذكر. كلّ شيء. وحين يتبدّد شيء من أمامك ويتلاشى. وحين تشعر أنّك، أنت نفسك، تسقط في دوار عميق. ثبّت عينيك على الجدار الذي أمامك. هو لن يسقط. يلتصق بك. على الأقلّ، هو لا يموت. لا تتّسع حفرة له. وهم ينتظرون. دعهم. تبّاً لهم. لتذكارهم السخيف.

«إنّ السمة الحاسمة (للنشوة) تكمن في أنّ مَنْ يشعر
بها يكون أصبح ليس هنا، فهو إذاً لم يبقَ هنا ليشعر بها».

(موريس بلانشو)

لم أنم طويلاً أمس. ليس لأنّ الأرق لا يفارقني كأنّ ألفةً بيننا وصحبة كأس. فقط كنت أرتّب أمور البارحة. كانت كثيرةً عليّ. كان عليّ أن أتنفس كلّ النهار. وأن أسير، دون توقّف، بين الغرف. وصدّقوني كانت الغرف كثيرة وما كنت أحسب أنّ الضّيق الذي بي يصيبني في مثل هذا المكان الفسيح. رواق، كلس أبيض رماديّ وأبواب. كنت مرهقاً وكان عليّ أن أنجو بأيّ ثمن من الأبواب التي تفضي إلى غرف فارغة، أو إلى غرفٍ غادرها النائمون، وما زال قليل من أنفاسهم ومن مزيل الرائحة وحفيف قمصانهم النظيفة في المكان. كان عليّ أن أحتمل كلّ هذا. تمّ النهار كلّه. كلبٌ لا يطيق هذا الضوء الذي يأتي من كلّ مكان. هذه الضوضاء. كأنّ كلّ الأشياء أحيلت إلى بقايا والسعادة بها يحتملها كلاب أو مياومون في ورشة الضجر وطنين الذباب الهائل. كان عليّ أن أرتّب كلّ هذا قبل النوم. تخيّلوا: أطناناً من الهواء أطلقتها رئاتٌ لساعات، وأفكاراً من هنا وهناك، وبقايا صراخ، من الأمس، وأشياء محطّمة، الألم الخرافيّ في الرّأس. ليس صداعاً. مطاحن خردة أو عتلات أو تروس صلبة تطحن بين الصّدغين وجلبة

وأقاويل وأصابع لا تدري ماذا تصنع بها. النّهار كلّه وأنت تفكّر ماذا تصنع بالأصابع التي لا تدري ماذا تفعل بها. وتكتشف قبل النوم أنّه لا يكفي. وأنّك لم تفعل شيئاً، كدت أن تقول أو تضحك أو تبكي، لكنّك لسببٍ تجهله لم تفعل شيئاً. حتّى هذا الشيء الذي تراه من النافذة، المكوّر، بساقين ورأس وبذلة نظيفة، الشيء الذي يمشي ويكاد يغيب عند الناصية يستطيع أن يفعل شيئاً لا تدري ما هو بالضبط، لكن ما من قوّة في السماء أو في الأرض تجعلك تقتنع بأنّه مثلك الآن خلف النافذة، مرهق بثقل أصابعه ويديه وجسمه ولديه الكثير ليفعله لكنّه الآن يفكّر ويستغرق حتّى يغيب هذا الشيء عنه كأنّه لم يكن أصلاً أو كأنّه مرّ من هنا ليجعلك تحسّ بثقل الوقت الذي تظنّه، منذ مدّة، مجرّد ضيق في الصدر والتنفّس، مجرّد صداع لا يقتلك لكنّه يؤلم. يؤلم.

إذن. لم أنم طويلاً. كان عليّ أن أشرب القهوة اليوميّة وأن أدخّن ما تبقّى من سكائر. وكان عليّ أن أقف خلف النافذة لأطمئنّ إلى أنّ الشارع هنا، وأنّ البشر ما زالوا يبكرون في صنع ضوضائه ووحله وطوله الذي يكاد لا ينتهي. ثمّ كان عليّ أن أجلس خلف الطاولة. وأن أنهض. أن أجلس ثانية. وأنهض. وأقرّر أن أفعل شيئاً. أو أن أنتظر أن يطرأ ما يستحقّ أن أفعله غير التنفّس والسير بين الغرف والإصغاء إلى أصوات أتخيّل أنّها من أمكنة أخرى. ثمّ أقرّر أن لا علاقة لي بها. وأنّها ربّما كانت أشياء تلفتني لأنشغل بها، والوقت ضيّق كما

تعلمون، إذ كيف أنجز كلّ هذا برغم أنّي لم أنم طويلاً وتعقدت أن لا يعكّر صفو نومي حلم أو خاطرة، أو عطش أو حاجة. فالأمور لا بدّ أن تنتظم في الصباح الباكر: القهوة والنزهة بين الغرف ثمّ القهوة والزائرون والكلام والقهوة والنزهة بين الغرف والسهوة الطويلة والغثيان والكتب والأقلام والأوراق البيضاء أو الهاتف، ثمّ الأبواب والأبواب والأبواب. وكان عليّ أن أحتمل كلّ هذا وحدي. حتّى اليوميّات لا تتّسع. وكنت أفكّر دائماً أنّني إذا كان عليّ أن أكتب كلّ هذه الأشياء فإنّ وقتي لا يتّسع للأفكار. ولم أستطع أن أقنع نفسي بجدوى كلّ هذا إذا كانت الأفكار لا تأتي أو إذا كان الوقت لا يتّسع للأفكار الزهريّة الصفراء، الحمراء، الأفكار الكبيرة التي لا بدّ أن تكون في رأسي أو في مكان من جسمي ما عدت أحسّ به ونسيت أين هو، لذلك، صدّقوني، كانت تشغلني أمور كثيرة غير تلك التي في الصحف والإذاعات والكتب والرؤوس الكبيرة، بل كنت لا أجد وقتاً على الإطلاق لمتابعة الأمور المهمّة والمصير والأوبئة والهدنات والدّولار والابتسامات المخفّفة والمصافحات والترتيبات التي، صدّقوني، لا ترتّب شيئاً من أموري إذ تستغرق منّي كلّ هذا الوقت.

إذن. لم أنَم طويلاً. وحين استيقظت قرّرت أن أكتب شيئاً. يوميّات. نوعاً من المياومة على الورقة البيضاء وقلت أبدأ بصدق: «كم كان اليوم جميلاً. نهضت مبتهجاً وبي شهيّة كاملة. قلّمت أظافري التي تنمو بسرعة

غريبة. وجلست أنتظر. ولكي لا يظنّ من يقرأ هذا بعدي أنّ انتظاري كان مملاً ورتيباً رحت أبتسم. أستدرج أفكاراً وأبتسم لها. وكان يستغرقني هذا التمرين. أبتسم ثانية. فالسعادة ينبغي أن تظهر. والروح، يقولون، ترتسم على الشفتين قبل أن تنتشر في عضلات الوجه والدماغ، ثمّ في القلب والرئتين ثمّ نزولاً حتّى أسفل البطن والساقين. إذن. كانت ساقاي سعيدتين وكلّ جزء من جسمي، لذلك أحافظ على الابتسامة وإن بدت ابتسامتي غريبة بعض الشيء. ما أقلقني وجعلني أرتاب بكمال روحي وحدسث أنّ تشوّهاً ما يجعل ابتسامتي فاترة وكأنّها مجرّد شرخ في فمي، وأنّ الأسنان المبقّعة بالنيكوتين ليست من الفنون الجميلة، لذلك أقلعث. وحاولت أن تكون ملامحي حياديّة، رصينة، ثمّ بائسة مجعّدة حتّى كدت أبكي، أنا نفسي. فأقلعت».

إذن أتابع: «هذا يوم جميل آخر. فتحت النافذة أغلقتها. كانت الأشياء سعيدة من حولي بما في ذلك أنا نفسي. اليوم جميل وأشعر بالسعادة. أتوسّل إليكم أن تصدّقوني».

أتابع: «هذا يوم جميل آخر. كالسابق الذي تكلّمت عنه. (راجع الفقرة أعلاه)».

أتابع: «هذا يوم... إلخ». وأشعر في الكتابة أنّ الأيّام كلّها جميلة. وما دمنا نشعر كلّنا بذلك أتوقّف إذاً لكي لا أستنفد السعادة كلّها والأيّام الجميلة كلّها. ثمّ أكتشف أنّ لا شيء يبقى لأكتب عنه. لأحدّثكم بين الحين والآخر.

لأصدق أنكم سعداء، مثلي، ومثل الآخرين الذين لم أنم طويلاً لكي أفتح النافذة وأراهم في عجلة كأنّ الوقت لا يتسع أو كأنّ الوقت ينقضي. ليتابعوا الوظيفة والمدرسة وصحيفة الصباح. ليتابعوا الركض تحت نافذتي في الاتجاهين. على الأقدام وفي العربات. وحيدين ويبتسمون. خائفين ويبتسمون. مطحونين ويبتسمون. ناموا طويلاً، هم. واستيقظوا لأنّ الأمور المهمة لا تنتظر. الضوء والضوضاء والمكاتب والدكاكين. الأبنية والحفر والأزواج والزوجات والأطفال. العرق والغبار. هذا يوم جميل آخر، فشمس. التلاميذ ينتظرون الباصات. الغسيل الملوّن يجفّ على الشرفات. الكلاب والقطط تتخاصم على أكياس النفايات. سعادة البقاء. لم أنم طويلاً. يومٌ جميل حقّاً. لديّ ما أفعله: أشرب القهوة على الشرفة العالية. أقفز. أخيراً يحدث شيء ما.

«الوقت هل هو موجود حقًا، هذا المدمّر؟»

(راينر ماريّا ريلكه)

السير في اتّجاه النافذة يستغرق وقتاً إذا تكرّر جيئة وذهاباً، طوال فترة الصباح وما يليها. وحين يتبيّن أنّ الوقت المتبقي قبل المساء لم يعد يتسع لشيء آخر، يتواصل السير في اتّجاه النافذة. أو ينحرف الرّجل قليلاً في اتّجاه الطاولة، يقف عندها قليلاً يشعل سيكارة يجول بنظرات غائبة على الأبنية في الناحية الغربيّة ثمّ يتابع. يتكوّن لديه إحساس عميق بأنّ الوقت المتبقّي لا يكفي لأيّ عمل. ولو كان ينتظر شيئاً لحسب أنّ الانتظار ليس أكثر من وقت ميت وأنّه يتحرّك في وقت ميت فينتابه شيء من الفرح. إذ لا يستطيع الرّجل أن يجمع الانتظار والقيام بأيّ عمل. حتّى الأفكار تكون في حالته عابرة، والمخيّلة تزدحم، بخاطرة من هنا، بخاطرة من هناك، ولا بأس أن يشرد الرجل قليلاً، أن يشعل سيكارة أخرى وأن يحمل فنجان القهوة بين إصبعين، وأن ينتظر طويلاً قبل أن يرتشف منه حتّى يكاد ينسى أنّه أشعل سيكارة ثانية ليرتشف القهوة، وهو يقف خلف النافذة بعد أن واصل السير إليها، وبعد أن انحرف قليلاً نحو الطاولة. لكن لا بأس إذ ينتبه فجأةً فيعود إلى الردهة ومنها إلى الرّواق، يمشي حتّى يصل إلى الباب. يقف وينظر من ثقب المنظار المكبّر ليطمئنّ أكثر ـ لأنّه يعرف سلفاً ـ أنّ ما سمعه أو ما توهّم أنّه سمعه ليس الجرس الكهربائي ولا قرع باب، وأن لا أحد

خلف الباب المغلق ينتظر وصول من غادر النافذة عبر الرّدهة والرّواق حتّى الباب ليختلس نظراً فلا يجد أحداً، ويحسب أنّه توهّم قرعاً خفيفاً على الباب أو رنّة جرس خافتة. ولا بأس أيضاً إذ يتواصل التمرين حتّى ساعات المساء الأولى أو يستمرّ إلى ما بعد منتصف الليل، سوى أنّ الأضواء المربّعة في النوافذ المقابلة تتلاشى تباعاً، والأشباح المتسربلة بأثواب النوم التي تعبرها بين حين وآخر تذهب إلى الأسرّة في الغرف الداخلية، أو تسدل ستائر فلا يبقى من المربّعات سوى أضلاع ضوئيّة تنعكس على زجاج النافذة حيث يقف الرجل متعباً من هذا السير الطويل في اتّجاه النافذة. لا بأس عندها لو يفكّر الرجل، قتلاً للوقت، أنّ النوم يحفظ بين جدران سميكة وستائر مسدولة وأبواب مغلقة كأنّ الجلبة الخافتة للنعاس تنيم الأجساد المتعبة من زحمة النهار. كأنّ من أسرار النوم أن توصد الأبواب والمنافذ لكي لا تهرب شخوص النوم الشاذة وتقيم حفلاً ليليّاً على القارعة المقفرة. ولا بأس أن يصغي الرجل لروائح الأنفاس الطالعة من صدور النائمين، أن يرى الشخوص تهيمُ في هواءٍ حالكٍ تخترقُ الأضواء الضعيفة، غلالاتها وأبدانها الشفيفة كأنّ العين الساهرة لا ترى غير الوقت الذي يضيق بين منتصف الليل والثانية صباحاً لعمل مرهقٍ ونافلٍ كالكتابة.

الجلوس وراء الطاولة يستغرق وقتاً. الغرفة مظلمة. لمبة المكتب المستطيلة تترك بقعة كبيرة من الضوء

على مساحته الصغيرة والأغراض المهملة عليه ويقع ما تبقّى منها على جنباته وعلى قسم من البلاط الذي يحيط به. عينا الرجل تحدّقان في الورقة البيضاء المضاءة. يده المضاءة مرخاة عليها. رأس الرجل ثقيلٌ ومحنيٌ وغائب. جذعُ الرَّجل المقوَّس إلى الأمام ساكن. زحف نمال من قدميه دبيباً حتى أعلى الفخذين. وخز خفيف بين الكليتين. تعبٌ لا يفضي إلى النعاس. ويقظة لا تفضي إلى الحركة. رجلٌ معلَّقٌ في بقعة الضوء. يجلس والجلوس وراء الطاولة يستغرق وقتاً لا يتنبّه إليه. يرفع الرجل يده بمشقّة ظاهرة. يتثاءب. يفرك عينيه. يرخي الرجل يده. فتقع في انحراف بسيط عن موضعها السابق. الورقة البيضاء لا تزال بيضاء. والرأس لا يزال ثقيلاً كأنّ الدم تجمّع في مساربه الضيّقة وأثقله. كأنّ الثقل غياب الأفكار. يلتفت الرجل إلى يساره، النافذة لا تزال هناك. إلى يمينه أكداس الكتب لا تزال هناك. لا يجرؤ على الالتفات إلى الوراء. الباب الزجاجي الجرّار يطلّ على الشرفة المشرّعة للظلمات. يضطرب وتسري رعشة خفيفة من أسفل ظهره المقوّس حتى كتفيه. يرفع يده، يتحسّس جبينه الذي ينضح عرقاً بارداً. يشرب من الكأس المضاءة أمامه بالتماعات مذهبه. يصغي. ويتلذّذ بالرجعة الحارقة تخترق الحلق والمريء حتى المعدة. يغمض عينيه فتتلاشى العتمة وتلتمع في الرأس أفكارُ نحاس. يفتح عينيه. لوهلة تنتشر غشاوة بيضاء فتختلط الأنحاء في فضاء متمايل

متمازج. ثمّ تستقرّ. تعود بقعة الضوء إلى مساحتها. وتعود الظلمة إلى اللامكان الذي تكتنفه. يحدس الرجل أنّ المكان الوحيد لا يتعدّى بقعة الضوء فلا يجرؤ على النهوض. فالخطوة الواحدة تفضي إلى فراغ. يظلّ جالساً. والجلوس وراء الطاولة يستغرق وقتاً. والوقت يضيق بين الثانية صباحاً والفجر، والوقت الضيّق لا يتّسع لعمل شاق ونافل كالكتابة.

الإصغاء لدبيب الجلبة الضعيفة في صباح الشارع يستغرق وقتاً. وما تبقّى لا يتّسع لأعمال تافهة كالنوم. النافذة، إلى يسار الجالس، تضاء رويداً بأنوار مغبّشة. يتلاشى ضوء لمبة المكتب التي لا تزال مضاءة. يتسرّب فيمتزج بالضوء الذي يأتي من النافذة. يمتزجان. الورقة البيضاء لا تزال بيضاء كأنها هي ذاتها. عينا الرجل تضاءلتا ويحسّ بحرقة الاحمرار فيهما. الجلبة تتضاعف ومعها نبض قلبه. الكأس فارغة. المنفضة تدلق أعقاب السكائر والرماد. بلاط الردهة يعود تدريجاً إلى مكانه. الهاوية تتلاشى. الشرفة عادت تطلّ على الشارع الذي تدبّ فيه حياة بطيئة. المصعد يعمل بهديره. الأقفال تتك بضجيج واضح والأبواب تصفق والستائر ترتفع. دفء قليل ينتشر في الأرجاء. النافذة مضاءة. ضوء لمبة المكتب المستطيلة يتلاشى تماماً، موتورات النقل الخارجي ترجّ السكون بهديرها الراعب. كائنات، في الخارج تتحدّث أو تتبادل تحيّات الصباح. والوقت يضيق بين الفجر والصباح، يحمله الناس معهم إلى

الوظيفة أو المشغل أو المدرسة. والرجل يتعب. يفرك عينيه. ينهض. كم قهوة الصباح الساخنة لذيذة، خلف النافذة.

أقوال كلبٍ مُرهَفٍ وحَزِين

ليس لأنّ الأمر يقلقني فمنذ سنوات أنا تعسّ هكذا. لا صاحبي ولا العلم البيطري استطاعا أن ينقذاني من الإحساس العميق الذي ينتابني بلا جدوى أن تكون كلباً في هذه الأيام. ومن لمسات صاحبي الصباحيّة على وجهي المستطيل أحسّ كم أنّ صاحبي حزين عليّ أو على نفسه. فهو لا يدري هل الأمر يستحقّ فعلاً. وإن كان بين الحين والآخر يقول ضجراً، ودون أن يقصد إهانتي أو المسّ بمشاعري: «إنّها عيشة كلاب حقّاً». لكنّني لسبب ما لا أستطيع أن أكون كإخواني جوّابي الأنحاء، البوّالين برشاقة على أسفل الجدران حيث الشعارات الجميلة المكتوبة بالفحم (سوداء) أو بالبويا (خضراء أو حمراء). فأنا لا أحبّ الروائح الكريهة وأخاف من عدوى الأوبئة التي تنقلها النفايات المكوّمة على أبواب البنايات الشاهقة والأرصفة. ثمّ إنّني أخاف من هؤلاء الذين بأسلحتهم الأوتوماتيكيّة لا يحترمون حقّ الكائن في العيش ويشعرونك حقّاً أنّك كلب وأنّك إذا اخترقتك رصاصة تظلّ ممدّداً في الشارع حتّى تهترئ ولا أحد يسأل عنك. حتّى صاحبك يخاف أن يبكي عليك أو يحزن لكي لا يبدو كلفاقد عقله أمام الجيران المحترمين الذين يجيدون تقدير المأساة والقضايا الكبيرة والجواسيس. ثمّ إنّني تعسّ جداً. ولا جَلَد لي على الحراك. حتّى الطعام الذي ينفق عليه صاحبي كثيراً أكاد لا أذوق طعمه. ولم أعد أبالي هل الطوق الأنيق مشدود على عنقي، لأنّني في الحقيقة،

منذ أشهر ما عدت أجول في الحديقة، داخل الأسوار، إذ لا ينبت فيها شيء. وأخاف على قوائمي الطريّة من علب السردين المفتوحة والمهملة هناك والتي تكاثرت في الفترة الأخيرة. كأنّ البشر باتوا فجأة مولعين بالسردين وما عادوا يأكلون سواه. أمّا أنا فلا أطيق رائحته، حتّى صاحبي حين يقرب فمه ليقبّلني قبلة الصباح ينضح بها، ولكن تهذيبي ومحبّتي الكبيرة له يمنعاني من إبداء أيّ امتعاض أو تقزّز. ولأنّ تربيتي لا تسمح لي. ولأنّ صاحبي أحنّ عليّ من الآخرين ولأنّني لا أحقد كإخواني وأشباهي. جوّابي الأماكن المعتمة والزوايا، الذين تدهسهم سيّارات الشحن اللاندروفر والدرّاجات الهوائية لفتيان في مقتبل العمر وفي مقتبل الشراسة يشعرونك باختصار، أنّك حقّاً تستحقّ حياة كلب وليس لك أن تعوي احتجاجاً أو أن تهزّ ذيلك، أو أن تربض، لا أكثر، آمناً في ناحية ما. ويتّهمونك بالبراغيث التي تملأ المكان كالسحاب مع أنّ صاحبك لا ينسى أن يغسلك مرّتين في الأسبوع ويخضعك لفحص طبّي كلّ شهر. وحين يلحظ التعاسة في عينيك، يطلقك لتبحث عن أنثى تختارها ولا تدفع لها مقابلاً لأنّها أيضاً تبحث عنك ولا تخفي عنك انشراحها وغبطتها بإيماءة أو ضربة فك. لكنّني برغم العناية والنظافة والاكتفاء التي أنعم بها هنا لا أدري لماذا، منذ سنوات، لا تفارقني التعاسة وأشعر أنّني لست على ما يرام فأدع الغرباء يمرّون، والقمر المكسوف يمرّ، والدويّ يمرّ، دون أن أمرّن

صوتي بالنباح أو حتى دون أن أفكّر في ذلك على الإطلاق. لا أدري لماذا مع أنني لا أتعاطى أياً من مشتقّات الكيف ولا الحبوب المنوّمة أو المهدّئة. وأحاول أن أكون نباتيّاً قدر المستطاع لمن هو مثلي ومن أنصار الماكرو بيوتيك والبيئة والسّلام. وأحبّ اللون الأخضر وأستمتع بهواء البحر كلّما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ومع أنني لا أقرّب الكحول وعشرة السوء وأنام باكراً برغم الأفكار التي تأخذني بعيداً وتشغلني، وأحرص على النهوض باكراً، لكي لا يفوتني منظر الفجر الرّائع. ولو كنت كلباً شاعراً، أو كلباً كاتباً لوصفت ذلك في كتاب كبير من النثر الفصيح أو الموزون المقفى أو المرسل أو قصيدة النثر. ولألقيته قبل الديكة المتبجحين وشاحنات القمامة وموزّعي الصحف، ولكنت سعيداً لأنني أعبّر بطلاقة عمّا أشعر به ويختلج في قلبي. لكنّني لا أستطيع لأنّني لا أجيد الإيقاع ولا أمتلك الموهبة ولا وقت لديّ لغير التعاسة التي تلمّ بي حيناً وآخر ولا تعود تفارقني لا في اليقظة ولا في النوم، حتى انعكس الأمر على صحتي وبتّ أشعر بنحولي الظّاهر وبعظام منكبي تنخر جلدي الساتاني المبقّع وتؤلمني. لكن لا حيلة لي، فالأمر أقوى منّي ولا أستطيع أن أكفّ عن التفكير في كلّ هذا. في كلّ هؤلاء الذين أفسدوا الحديقة والأسرّة والطعام، الذين لا يجدون سوى اسمي وصفاتي لسنّ شتائمهم ويصطادون من بين الضحايا أضعفها ويتباهون بالأسلحة الناريّة، وبالدويّ

الذي يوزّعونه بين الحين والآخر في الهواء. حتّى أكاد أفقد عقلي وأفكّر جدّياً في الرحيل، لولا أنّني أحبّ صاحبي، وتعاستي لا تترك لي الوقت لأفكّر في نفسي كثيراً، فأنا، كما تعلمون، غَيريٌّ بالغريزة أفكّر في من هم في حاجة إليّ لأعيلهم وأحميهم وأنبح في وجههم حبوراً وثقة. مع أنّني الآن شبه متبطّل وأتظاهر بالكسل أو بالنوم أو بالموت كلّما شممت رائحة غريبة أو كلّما انتصبت أذناي لدبيب ولو في البعيد. لذلك أفكّر في التقاعد مع أنّني لم أبلغ السنّ بعد وأن أنصرف قبل موتي (فنحن كما تعلمون لا نعيش كثيراً) إلى أشياء أخرى كتدوين مذكّراتي أو يوميّات ما تبقّى لي من أيّام، علّني أخلّد ذِكري. وأنضمّ إلى قافلة المسنّين الحكماء الذين، من دون شك، يتركون أثراً ويفسحون لسلالتي في هذا التاريخ الغريب. على كلّ حال لن أفقد روحي ليس لي واحدة. لا تنتظرني سماء أو مَطهَر أو جحيم.

«لم يكن علينا إلّا أن ننظر إلى الكلب لنرى أنّ اللعنة الأبديّة نفسها لا يمكن أن تكون أكثر سواداً».

غونتر غراس
(سنوات الكلب)

فقط حين يعود إليّ الصدى، بعد أن يتراطم على الجدران الضخمة المعتمة، أعرف أنّ العواء يضيع في الليل ويبتعد. وأعرف أنّني لولا تعلّقي بهذا الهدوء الغامر للّيل، لكنت تخلّيت عن كلّ شيءٍ غيرَ آسف، لأنّ الحياة، تعلمون، تزداد صعوبة. كأن تجد مكاناً في هذا الازدحام. حتّى إذا عثرت عليه بجهد وتكاسلت رابضاً، في دفء أشعّة الشمس، نطحك حذاء أنيق على كاهلك أو قفاك أو في جماع بطنك. ويكون عليك أن تغادر. تهرول إلى الأمام ملتفتاً إلى الوراء محاذراً أن يتبعك صبي بعصا أو حجر أو آلة حادّة. ثمّ البحث من جديد والأشياء (كائنات ومعدن) تزعق من حولك والذباب يطارد إصاباتك الطفيفة، وكم ينبغي أن تنتظر لكي يلتئم جلدك، ويبقى برغم ذلك، أثر الجرح، خشناً، مقزّزاً يشوّه لك طراوة الفروة التي تحرص دائماً أن تكون نظيفة. وأذكر، ما دمت عاهدتك على الاعتراف بكلّ شيء، أنّني نجوت مرّتين من سيّارة البلديّة ومن مكمن بالحبال والعصي وأشلاف الحديد نصبه لي فتية يلعبون على الناصية ويتمرّنون على رؤية الدماء والتعذيب. كانت جثّة هرّ أسود معلّقة بحبل دقيق يتدلّى من عمود كهرباء. وصدّقوني حين رأيت ذلك ارتعدث وقاومت

الإجهاش الذي ينتابني في هذه الحالات. إذ كان عليّ أن لا أبدو عاطفيّاً أمام المأساة وأن أتابع سيري ببرود أعصاب ولا بأس من إبداء بعض الصلافة كأنّ أتصنّع الغضب وأرتجل زمجرة شأنها أن تقنعهم، وهم هنا، بصلابة عودي وسخطي على هذا السلوك الذي لا يطول إلّا الأبرياء. كان عليّ أن أفعل برغم لامبالاتي حيال أولئك المؤائين الذين يفيدون من دفء المنازل في الشتاء ويتحرّشون بنا برغم ضآلة أحجامهم وقلّة حيلتهم وشدّة خبثهم. فأنا أقول إنّني لا أحقد عليهم وإنّ واحدهم المدلّى هنا إذ نفقت أرواحه السبع يثير فيّ مشاعر التعاطف والتقزّز من هؤلاء. لولا أني انتبهت إلى المشهد استوقفني والأجساد المنتصبة من حولي وهرج من الضحك والصياح أعادتني إلى خوفي. ولاستدراجي بادر أحدهم إلى رمي بقايا لست أدري ما هي. فالرائحة تلتبس عليّ حين أكون خائفاً وأحسست أنّ شيئاً عظيماً سيحلّ بي وأنّني هالك لا محالة، فلو كنت أستطيع فقط أن أنهرهم أو أستغيث وأستنجد بالآخرين عليهم. لكنّ الموقف أربكني فأطلقت صوتاً وأحسست للتوّ أنّ الصوت استحال كتلة معدن وارتطم في رأسي فتمايلث وكان ألمي كبيراً. فحاولت النفاذ لكنّ ثقلاً هوى عليّ فسقطت وكانت الشتائم تطنّ في أذني والتفّت حبالٌ وأمراسٌ حول عنقي وقوائمي فقلت إنّها النهاية لا محالة.

كانوا برغم براءة ملامحهم وأياديهم الطريّة أقوى

منّي. وعيونهم تلمع بالغبطة. كانوا أبرياء، لا تغشى بياض قلوبهم سحابة. وكنت أعلم أنّ الأمر لا يتعدّى المزاح أو السلوى، وأنّهم عائدون من مدارسهم، وأنّ الأمكنة ضيّقة والظروف لا تسمح لهم بارتياد الحدائق والمكتبات ودور السينما، وأنّهم لا شك يعانون ضجر البيوت وأنّهم ينبغي أن يمرّوا بتمارين الشراسة قبل الزواج أو قبل أن ينصرفوا إلى مشاغل الحياة. وأنّني، إلى ذلك، من الأجناس التي لا تعنيهم، ولا أقوى على الكلام، ولا أشرب في الصباح كوب الحليب، ولا ألعب معهم، ولا أقتل، ولا أضحك، وأنّني إذا ما نفقت أظلّ هنا حتى يمتصّ بقاياي التراب أو عجلات المركبات أو الزفت الحارق بعد الظهيرة. لكنّ الألم كان كبيراً. وكنت أحاول أن أستجدي، أن أستعطف، أن ألحس اليد التي تنهال عليّ. لكنّهم في براءاتهم كانوا لا يأبهون، لأنّ جسدي لا يستحقّ، برغم النزف، ولأنّ لا روح لي، وهم يعرفون أنّ الروح وحدها تستحقّ، وغيرها لا طائل من ورائه، ثمّ إنّني أكبر ما غنموه منذ الصباح، ويعلمون أنّ جرائي (إذا كان لي جراء) لن تبحث عنّي، لن تشغل الهواتف ومراكز البريد، والقادة لن يصرّحوا، والمجالس لن تنعقد، وعمّال البلديّة لن يضربوا، فأمثالي، تعلمون، يعاديهم القادة وتكتمهم المجالس، وتطاردهم البلديّات، ثمّ إنّ الأمر لا يستحقّ، ما دمتُ لا أمتلك الضراوة التي تخيفهم، وأقرأ الرواقيين، حين أستطيع وصاحبي يطلقني لكي أمرّن قوائمي من دون حراسة. فالأجناس

مثلنا تضلّ أو تشرد أو تهترئ ويتعلّم الأحياء أن يبقوا بعدنا، فنحن لا نستحق أن تتغيّر المواعيد لأجلنا أو أن يزدحم السير. ثمّ لا نذهب في جنازات كبيرة. ونحن لا يقتلنا الأشرار أو المتسلّحون أو الجنود، لأنّ لهؤلاء أهدافاً من الكائنات العموديّة والبيوت والأرزاق، كما لا نستحقّ النشيد، والتحيّة والحداد، ولا النصب والمزار وصفحة الوفيّات والاستنكار. يكفي أن نبقى هنا. حتّى يجفّ ماؤنا ودمنا. حتّى تتحلل أوصالنا وجلودنا وفرواتنا. حتّى تتحوّل إلى كومة تراب أو إلى قشرة يزيلها المطر في الشتاء. ولا ندخل في قضيّة كبيرة. في مطلب. أو احتجاج. تموت كأنّك لست هنا. خطأً. أو عمداً، أو مجرّد حادث أليم. ومياومون من درجة عاشرة يتولّون الأمر. حتّى صاحبك لا يعلم. وبعد أن يملّ الانتظار. يحزن قليلاً أو كثيراً. ثمّ يشتري أو يلتقط أو يستعير أو يشحذ غيرك. وتكون في النسيان. لا صورة. لا خبر. لا مجلس عزاء. حتّى إنّك في الأيّام التي تقضيها بين قطع السكّر أو فضلات اللحم، بين القيلولة والهناء، لا تكاد تشعر بالغبطة التي يشعر بها الآخرون إذ يتنفّسون ويسعدون ويتناسلون. فالوقت ليس لعمرك. والهوء ليس لرئتيك. ويكفي أن يكون لواحدهم براءة الأطفال لكي ينزل بك كلّ هذا العذاب. كلّ هذا الألم. وكنت تفكر أو تتخلّى أو ترحل، لكنّك تعرف أنّك لولا الصدى، لولا هذا الهدوء الغامر في الليل، لما تجزأت على انتظار يومٍ آخر. وأنّك في الليل تبكي أو تنام. أو تحرس

الوحشة الكبيرة من حولك. وتهنأ. وتمدّد جسمك النحيل وتنتظر هبوط الليل من جديد. تلاعب البراغيث التي تطير من جلدك. وتمرح. وتمشي في الخلاء المعتم. تئنّ وتعلم أنّ الأنين الذي يخرج من جسمك حالة من غبطة العيش لا من الألم. وأنّ الوجوه البريئة تغيم في أحلامك. وتمسح بلسانك، روائح يوم كامل. تشعر بالطراوة. وتطمئنّ. الطوق هنا. قاسٍ على رقبتك. الحديقة نفسها. الوحشة نفسها. صاحبك الذي ينام هناك. بدعة. باطمئنان. بغيبوبة كاملة. كنت تظنّ أنّك لا تحلم. لأنّك لا تكذب. لا تصانع. لا تشتهي ما لغيرك من الكائنات. لا تكره. لا تحقد. فقط تعرف أن تحبّ. كما تقدر. كما تعرف. كما تستطيع. إذاً من أين تأتيك هواجس الشر؟ لماذا تبكي؟ لماذا تشعر الآن أنّك لا تستطيع أن ينهرك السابلة. أن يؤلمك حذاء. أن يمرح فتية بتشويه فروتك، بإيلامك وهم يضحكون؟ كأنّ إيلامك سعادة لهم. نشوة. فائض لذّة. حالة نعمى. قداسة. برهان على أنّهم لا يؤذون أحداً. واللاأحد أنت. أنت فقط. الروح الكلبيّة التي فيك. الجسد الكلبيّ. المصير والغاية والعيش. تتجوهر فيها بالعواء. بالأمكنة الضيّقة والمهملة التي ترتادها للنوم أو لقضاء حاجة. بالألم الذي تشعر به الآن لشدّة ما أنهكتهم في تحمّل ضرباتهم. وهم، تراهم يتجوهرون في القسوة وتلتهب غلماتهم حتّى تستيقظ فيهم شهوة القتل. ويتفنّنون. يخترعون أساليب وأدوات. أغصاناً يابسة. أعواداً

بأحجام. ملح المائدة. كبريتاً. سيور الأحذية. سنانيرَ منزليّة. عويسيّات. براءة الأدوات، التي مثلهم. تُستعار أو تُختلس من المنازل. لكي يتمّ لي جحيمي. لكنني تمرّست بالتعاليم وأصبحت أرضخُ كرواقيٍّ محنك لعذابي، أعني، تعلمون، لمصيري، الذي هو أيضاً، تعلمون، كلبي لا يستحقّ أن يذكر. حتى ألمي له الصفة المشابهة. وأراهم الآن بحبور: كم أنهكتهم هذه السعادة. فأنجو.

«إنّ الحنين إلى الفردوس هو رغبة الإنسان في أن

يكون إنساناً»

(ميلان كونديرا)

أقول لكم إنّني لم أرَ، في سنوات عمري القصير هذه، كآبة تضاهي تلك المسحة المتغضّنة التي كانت ترتسم على وجه صاحبي حين جاء، في مطلع إحدى الأمسيات، ووقف أمامي طويلاً دون أن يكلّمني أو يمسّني كعادته. ثمّ عاد كأنّه يشعر بالأسى لشيء ما لا علم لي به ولم أحدس به. فتطامنت وقلت لنفسي: هي أيّام عصيبة يمرّ بها هو الآخر، ويغصّ بالبوح بما يكابده منها. وأشفقت حتّى فسدت عليّ قيلولتي، وأتعسني التفكير فيه وحاله، ما دفعني أن أطلق أنيناً خافتاً وأغمض عينيّ وأسند حنكي إلى الأسفل إلى قائمتيّ الأماميّتين وأسترخي دون أن أنسى المشهد الذي رأيت وانشغالي به حتّى الأرق. وحسبت لسذاجتي التي لم يهذّبها علم أنّ أمور العيش تضغط وأنّ الفسحات تضيق، ويكاد الكائن يعمل ليلاً نهاراً للقمته وعلبة سكائره والكأس لتفسد عليه عقله في الليل وتواسيه حتّى مطلع الصباح. وكان صاحبي حزيناً في الصباح، وحزيناً في المساء. وحين يأتيني بطعامي المعتاد، يتهالك في قرفصاء رجل مسنّ (برغم أنّه لم يتجاوز الثلاثين) ويزفر طويلاً وينظر إليّ خجلاً كأنّه يعتذر منّي أو يعتذر لنفسه عن هذا التقنين الذي أصاب وجباتي كلّها منذ

فترة. وكنت أودّ أن أقول له، لو أستطيع الكلام، إنّ الأمر لا يستحقّ وإنّه ليس بالفضلات وحدها يحيا الإنسان. فأنا، تعلمون، أحبّ صاحبي وجاوزت الآن سنّ الترف وحسبي التأمّل والزهد في أيّامي المتبقية، لأنّني أعلم، شقاً، أن الأمور تسوء وأنّ أحدهم حين لا تقعده الصدفة أو القصد، يضيق به ما تبقّى من الدنيا. وإذ تنقص كلّ يوم شروط الحدّ الأدنى للعيش تطارده هواجس. والكائن تعلمون بالخبرة أو التواتر، مهجوس كلّ لحظة في الهواء الذي يتنشّقه، حتّى إذا تخلّى عن شيء صار الشيء مكسباً لأولياء الأمور فيلقحون بمزيد من التخلّي لأنّ الأمكنة لا تتسع للجميع ولأنّ الزهد في الدنيا يوسّع آفاق الآخرة، ولأنّ الأمر على ما هو عليه ولا قوّة تقدر أن تبدّله. فليس ممكناً أفضل ممّا كان والتراب أغلى من النفايات التي تحيا ومصيرها إلى التراب عينه. والكائنات ليست إلّا سماء هذا الاتّساع من الصخر والهشيم والجمال.

كن صاحبي حزيناً في الصباح فلا يلقي التحيّة ولا يربّت جلدي المتكاسل، وكان صاحبي حزيناً في المساء يمرّ بي ولا يلتفت حتّى ظننت أنّ الحبّ ليس سرمديّاً وأنّ الكائنات تضجر أو تملّ أو تتبرّم أحياناً برغم سعة الهواء وبرغم الدفء الذي ينعم به في أمسيات الشتاء، والقهقهة التي تخترق النوافذ في الليل وتصمّ أذني وتقضّ مضجعي فلا أقدر على النوم وأكون راضياً لأنّني إذا غافلت نفسي بالنعاس أشعر أنّني أخلّ بالأمانة ومن

هو مثلي لا ينام في الليل ولا يجد في النهار مكاناً يتكاسل فيه لأنّ الأمكنة تغض بالجموع ولأنني، تعلمون، لا حيلة لي ولا مكان يجيرني من غضب الصغار والبالغين أو ضجرهم ولأنني سعيد بهذا المصير علّه يكون نثرة بهجة لقلوبهم التاعسة. لكنّ ذيلي إذ يتهدّل (ليس بوطأة العمر فقط)، أعلم أنّني لا أقوى على التغاضي وأنّني معنيّ بحبّ صاحبي والآخرين وأحسب أنّ الوكر الخشبيّ الذي يكاد لا يتّسع لي هو مكان وأنّ الكائنات التي تشبه صاحبي أو صاحبي نفسه في حاجة إليه. لذلك عرّجت في وصيّتي (والأعمار ليست في يدنا) على الأزمات التي تنتاب الخلائق وأوصيت جرائي بالرأفة بالأجناس الأخرى من بشر وقطط وزواحف ويرقات ويعاسيب، لأنّ المدى رحبٌ وقوائمنا تسعفنا ولا تسعف الضعفاء والزاحفين. فالملكوت لأجناس المتسلّقين من الفقريات العليا والعالم أشبه بأقفاص لأولئك الدميمين المتقافزين على الأسلاك والأغصان، والمفوّهين بالصوت والصورة، وحمّالي الإكسسوار والقضايا الوهميّة، والمؤّائين في هيئة زئير. أمّا الكدّ الذي أنهك سلالتي والعواء الجميل بين الجنبات المعتمة فلا طائل من ورائه الآن، وآخرون، معارف وأصدقاء وزملاء، وظّفوا حاسّة الشمّ لديهم في سلاح البوليس، أو الحراسات الخاصّة، أو تدرّبوا على التفتيش والمطاردة فاستحقّوا النياشين وبدلات نهاية الخدمة. أو قادوا العميان إلى حتوفهم، أو تدلّلوا حيث يكثر

الحليب والضأن والكافيار، أو تطاحنوا حتّى فقدوا حاسة النباح وأخلوا الليل من أنسهم وباتوا كالكائنات، ينامون، في الليل وفي القسط الأصغر من النهار. وابتعدوا لكي تتبعهم حشود من أبناء جلدي، أو اقتربوا من الهناء والرغد والرفاهية.

وكنت أحسب أنّ ما تدفعني أريحيّتي ونكراني لذاتي وهواجسي، الدنيا إليه، إنّما هو بفعل الغريزة، وتعلمون، أنّ إخلاصي لصاحبي ووفائي له يدفعاني لأن أبذل كلّ قوّة في كاهلي وحنكي لكي أزيح عنه حمل الكآبة، وأنا أصبحت مسنّاً وأعلم أنّ الكائنات في مثل حالتي تتقاعد أو تلوذ بخلوة طويلة أو تنتحر إذا كانت تجرؤ. لكنّ غريزتي تمنعني عن مثل هذه الأعمال البطوليّة النبيلة. وأنا في أيّة حال، لست أكثر ممّا أنا عليه وداء المفاصل يقتلني من الألم وبحّة صوتي ما عادت تملأ المدى الليلي ما تبقّى لي أحياه قرب العتبة فيما صاحبي يأتي حزيناً في الصباح وفي المساء. يقف أمامي صامتاً كأنّه يفكّر في حالتي أو يدبّر لي أمراً لا علم لي به ولا أحدسه. فأحزن معه وعليه. وما لم أعلمه لطيبتي أنّ الطريقة هي التي تقلقه وترميه في ارتباك الحيرة. حتّى شممت في الوجبة الصباحيّة رائحةً لم أعهدها. وحدست أنّها جرعة وضعها في الفضلات والخبز المبلل وكنت أفضّل ألف مرّة أن يكون أكثر رأفة وأن يستخدم، كما في القتل الطبيّ، حقنة هواء في العرق فأكلت وكنت حزيناً. وكان صاحبي حزيناً. وكان يؤلمني حزنه



«ثمّ عاد إلى الثعلب فودّعه الثعلب وقال:
ـ أمّا السرّ الذي وعدتك بالكشف عنه فهو على
غاية من البساطة: لا يرى المرء رؤية صحيحة إلّا
بقلبه فإنّ العيون لا تدرك جوهر الأشياء، فردّد
الأمير
كلام الثعلب خشية أن ينساه».

(سانت أكزوبري: «الأمير الصغير»)

هذه الكلمات أقولها إشفاقاً وكنت أشفق على نفسي منكم. ثمّ أضع حدّاً لهذه المسخرة التي لا تنتهي والتي تسفونها في المجلّدات ذاكرة أو تاريخاً أو كتابة. فإذا كنت أظنّ في البداية أنّ في مصيري وفي تجربتي التافهين ما يستحقّ أن يقال للاعتبار فإنّني كنت واهماً، وأنا الآن نادم وأشعر بالسعادة لأنّني لست منكم ويكفيني أنّني أقيم في جلدي وحيداً لكي أنجو من مذابحكم فيكتب لي عيش قليل لكنّه يفيض عن حاجتي الآن، ومذ وهنت قواي واختلطت عليّ الأمور فأصبحت على عتبة الجنون. حتّى صاحبي أراه كئيباً وفي نظراته حسد لا يخفيه كبرياؤه ويؤلمني أنّني أفهم وأحدس بما يدور في خلده لكنّني عاجز عن مواساته كسابق عهدي ولو بتلويحة حنونة من ذيلي المترهّل العجوز أو بلحس كفّه أو وجنتيه. فأنا منذ سنوات ما عدت أتودّد له وأعلم أنّه في مشاغله لا وقت لديه ليطلعني، ولو من طعم جلده المتغضّن، على حاله. وفي الأيّام الأخيرة راح يجلس في غرفة جانبيّة بعد هجر

بيته الفسيح، وأراه كلّما طلع الدويّ ينقبض وينكمش على نفسه ويحتضن أطرافه كأنه يحاول أن يلوذ بداخل ما في جسمه، ضيّق ولا يتّسع لأطرافه المديدة. ولشدّة خوفه بات ينسى (أو يتجاهل) وجودي ولا يفكّر في درء الأخطار عنّي وهو يعلم جيّداً أنّ هذا الدوي يجوّف كياني ويهرب قلبي عند التماعة ضوء أو اندلاع نار. لكنّني أعلم الآن أنّ الهواء والأمكنة والبيوت لم تعد محرّمة عليّ وحدي، فالأحياء خالية والشوارع الممتدّة من حولي تثير فيّ الرهبة التي تشبه الموت. ولا أكاد أرى آدمياً إلّا في سباق مع خطاه، محمّلاً بأكياس النايلون والأرغفة والعرق يتصبّب من وجهه وهو يتلفّت جزعاً في كلّ اتّجاه. حتّى إنّ أحدهم، حين سمع الدويّ الهائل لهذا الشيء الذي يهبط من السماء، لم يعرف أين يذهب، فهرول إليّ وحاول أن يختبئ في ركني الصغير فتغافلت عنه إشفاقاً وحاذرت أن أنظر إليه لكي لا يحسب أنّ نظرتي عداء. فالبشر طيّبون لكنّهم على درجة كبيرة من الغباء. وإذا كان الأمر لا يعنيني، فأنا أشعر أحياناً أنّهم من أجناس دنيا ولو مستقيمي الظهور والقوائم، والعواء الذي يصدر عنهم له ضوابط ومخارج وألفاظ، حتّى إذا فتح الواحد منهم فكّيه حدسوا أنّه يضحك أو يبكي أو يتثاءب أو يشتم بشراً آخرين أو يلقي خطاباً أو موعظة أو ما شابه. أمّا أنا فيلتبس عليّ الأمر برغم عشرتي الطويلة، لكنّي لا أبالي فالكائنات أسرار وحكمة. وأنا أعلم بالطبع أنّ الكائنات كلّها لها

أنياب ومخالب وأظافر ولكن ما رأيته في أيّامي الأخيرة هذه لا يكاد يصدّقه عقل، ولولا إحساسي بالوهن وبقرب اندثاري إلى تراب لحسبت أنّني أبالغ بعض الشيء. مخالب تقذف معدناً نارياً وأنياب تطحن البيوت والأبنية وشتاء حارق لم أشهد له مثيلاً من قبل. لذلك أقول إنّ البشر أصيبوا بلوثة جنون، وأنا المتهالك على تعبي أراقب من بعيد وتنتابني الحيرة بين إشفاقي عليهم وسعادتي لأنّني لا أنتمي إلى مذابحهم ونيرانهم المشتعلة. وأعلم الآن أنّ ما كنت أحسبه مكابدة لمصير مختلف عنهم ليس سوى حسن طالع، حتى إنّني أنكر على نفسي أحياناً ما ظننته حلماً أو أمنية كبيرة حين تقدّم بي العمر وقلت لنفسي إنّني لست سوى هذا الشيء التاعس الذي يطعمه الآخرون ويتكاسل طوال الوقت في حزنه وإشفاقه على نفسه. لكنّني الآن لو أتيح لي أن أختار مصيري من جديد لاخترت أن أكون كلباً، أو كنت أطمع في مثل هذه الحال أن تكون فروتي شهباء، وأن أكون أقلّ ذكاءً وتفهّماً للأمور لكي لا يقتلني إحساسي بأنّني كئيب وبأنّ هؤلاء الذين أخاف على مصائرهم لم يحسنوا الاختيار. وبأنّني ضالع في كلّ شيء. لأنّني أرى. أسمع. وما زال النبض يرهق قلبي.

(إلى غسّان، أخي)

«وقال لي اذكرني كما يذكرني الطفل، وادعُني كما تدعوني المرأة».

(النفري)

...وكان صاحبي جمع المؤن والأواني القليلة ورحل حين حدّثت نفسي، بحياء، أنّ ينبغي الدخول إلى بيته الذي أعلم الآن أنّه يخلو من إنس وجنّ. فيما الحائط الغربي المهدّم يفسح لأشياء الداخل أن تندلق قليلاً وتتبعثر إلى أبعد من العتبة، أبعد من طرف الرصيف المقابل. كأنّ الأشياء خرجت، في صبيحة صيف، للنزهة من طول احتجاز، فانتشرت على القارعة عرضة للشمس والنسيم وبول الكلاب والحرائق. وكنت أرى، بين الحين والآخر، من أشباهي مشرّدين يدخلون ويخرجون وأنيابهم حملت خرقاً من ستائر أو ثياب أو بقايا من دمى المطاط والدفاتر والصور الفوتوغرافيّة. وكنت أحزن لأنّ صاحبي يفقد ماضيه المصوّر، لحظة تلو لحظة، ولأنّ العيش في الحاضر أليم ودامٍ والمستقبل في الترحال متاه. وكنت أحسب دون أن أصدّق نفسي كثيراً، أنّ مثل هذه الأمور تحدث لأنّها قدر، ولأنّ الجور المتبادل سنّة وقانون بين ذوي القائمتين (بلا أرياش). وأنّ الداخل إذا فقد الحيطان والأبواب والنوافذ بات مشرّعاً، بل بات خارجاً بلا نظام. وما كنت أشعر بالحسرة لأنّ الداخل (وإن كان ذات بيت حميمة) لا يكون إلّا بالدفء الذي تشيعه أجساد بشر فيما الأشياء

باردة لا معنى لها ولا حول. إذ تنكسر الدمية، لا فرق، أن يرحل الأولاد، وتحترق الكنبة، لا فرق، أن تغادره الأقفية السمينة لأزواج وزوجات، وليظلّ الباب مفتوحاً، إذ كان ليس من يقرع وليس من يفتح وليس من يرمي تحيّة المساء ومن يبشّ لملاقاة ضيف أو شقيق أو صديق. فما الذي تفعله الحجارة غير التناثر في الأرجاء في ليالي الصمت المطبق، العتم الذي يستدرج الأشباه.

قلت أدخل، من أيّ فتحة في الجدار وأرى «الداخل» كيف يصير بعد انفجار كما حدث قبل أن يغادر صاحبي بمؤنه وأوانيه القليلة. قلت لو خلّف شيئاً من عطره أو من رائحة عرقه، قلماً لهادي أو قطاراً أو سيّارة كهربائيّة، صورة، ربّما، كالتي رأيت أشباهي ينظرون إليها ولا يفهمون. شعر أشقر جعديّ، وقامة بطول شمعة مزيّنة. ابتسامة غامضة، هي مزيج حياء ورهبة وإغواء. وكان صاحبي يقول هذه فتاة العائلة. لذلك شعره كالخواتم المذهبة. ولا يُردّ له طلب. ولو كان عنيفاً. وكان صاحبي سعيداً، وسعادة صاحبي أن يعود مساء إلى البيت، ويرخي جسمه المتهالك على دكّة في المطبخ، زوجته تحضّر العشاء، وأولاده يثيرون ضجيجاً ينفجر له رأسه، فيصرخ متوعّداً. كان صاحبي يحبّ التعب والبيت والضجيج من حوله. قطارات وسيّارات كهربائيّة، و«توم أند جيري»، من بعيد، يلعبان في الأضواء المتراوحة للتلفزيون الذي تظنّ أنّه هو يشتغل ولا أحد يبالي، لا أحد يسمع. فالداخل في البيت له أجزاؤه وتفاصيله

وينبغي أن تتكامل حين يعود متعباً. وكان صاحبي يحبّ التعب والبيت والصور الفوتوغرافيّة التي يراها كلّ يوم بالسعادة نفسها. حين كانت تلمع أو تدمع عيناه فصاحبي له هذا السرّ الذي لا يُعرف في عينيه بين البكاء واللمعان. بين التعب الشديد والراحة الشديدة. بين الغضب الشديد والحنان الغامر. حتّى أظنّ أنّه كان وجهاً وحيداً لحشد من الأحاسيس. وكان صاحبي جميلاً حين يتعب أو حين يشفق أو يخاف. وكان جميلاً حين يعود إلى البيت المرتّب والمطبخ المضاء. حين يسكر أو يشاجر أو يضحك. حين ينام. حين يستيقظ والرصاص يخيفه، ويعمل والرصاص يخيفه، ويعود والرصاص يخيفه. ويسألني وهو يعلم أنّني لا أجيد النطق في المحافل والندوات، ويعلم أنّ الأسئلة حين تسأل لا تنتظر أجوبة. كان لا يبالي بالأجوبة إذ له البيت الذي يعود إليه في المساء.

قلت أدخل وهممت. كان قلب البيت في الشارع. الكتب وأدوات الزينة وبعض الثياب الداخليّة التي غادرتها أجسادها النظيفة. لم أستطع أن أدخل. لأنّ الداخل لم يبق مكاناً. كأنّ الدويّ أزاح الفاصل. هل أدخل من الخارج إلى الخارج؟ وأيقنت أنّني أقع في شرك لغوي لا أفقه منه شيئاً. عناصر الداخل كانت في العراء مكفهرّة كأنّها تلامس الهواء لأوّل مرّة. كلب كهربائي يشبهني لكنّه شديد التطوّر: يمشي ولا ينبح. ذيله يتحرّك ميكانيكيّاً وعيناه مضاءتان. فروته من

البلاستيك المقوّى. لا يشمّ، لا يرى، لا يلحس يد صاحبه. أقلّ غباء مني، أكثر سعادة. ثوب استحمام وعيدان لتنظيف الأذنين بعد الحمام الساخن، مبعثرة، سراويل صغيرة وشهادات ميلاد وإفادات مدرسيّة، مفكّرة صغيرة، أرقام تلفونات، كارت بوستال (حديقة اللوكسمبورغ: «أنا بخير، باريس مدهشة، بسّام وزوجته بخير. قبلاتي». آب 1979). صورة لثلاثة أشخاص. اثنان احترقا حتّى أسفل البطن. الثالث يبتسم. شاربان ووجه متعب. ووجه حيرة. صورة أخرى. مائدة وكؤوس وأضواء احتفال. زوجان يبتسمان بحياء. كأنهما يخفيان عن الكاميرا شهوة منتصف الليل. صورة أخرى. ثلاثة أولاد يجلسون على كنبة ينظرون كأنّهم تجاوزوا الأربعين. صورة أخرى. بقيّة احتفال، وجوه أطفال وجانب المائدة، والباقي تفاصيل متفحّمة لم تكمل احتراقها. كانت هنا. والنار أيضاً.

قلت أدخل. وهممت. لم أكن أعلم أنّني أسقط في خطأ لغويّ. كنت أحسب أنّ البشر وحدهم يفعلون.

تبّاً لهم

«كان الذعر يستولي عليّ أمام كلّ ما يطلق عليه ـ بسوء فهم يصعب قوله ـ اسم الحياة».

«... إنّني عرضة للخارج بصورة لا شفاء منها».

(راينر ماريا ريلكه)

(من «رسائل ريلكه ـ سالوميه»)

ما الذي يتعبك؟ ليس الأرق. بل الاحتفال الليلي لزواحفي وحيواناتي. لم أكن أعتقد أنّ الليل كبير وموحش بهذه الطريقة. النافذة تعتم. ولا أحد. أعني لا حشرة. لا صوت. أعني الصمت الذي يرتّب مناخاً لما هو أكثر من الضجر. أكثر من قياس المسافة بين الجدران. بين غرفة النوم وردهة الجلوس والمطبخ. لكنّ النافذة هنا لا تفضي إلى أيّ مكان. إلى مصباح رصاصيّ. وإلى ليل فاحم. على الحائط «الأفكار الواضحة» لماغريت (غيمة مستوحشة على صورة صخرة عابثة على صورة غيمة، وفضاء نيلي). كنت تحسب أنّ كلّ شيء يتبدّل إلّا النوافذ. هي في كلّ مكان. مصفاة الضوء الغازيّ. الثقب الذي تتلصّص منه على الصقيع الذي أصبح، في الأثناء، عالماً! بل العالم نفسه. الليل لزواحف وحيوانات الروح، وللوحة ماغريت. حفنة سكائر، حفنة كؤوس والرأس يصحو ـ أعني الأفكار ـ السكاكين التي تحزّ من الصدغ. أعني، وأنت تعرف، أعني البكاء الصعب الذي، كالمنبّهات، يجعلك، من الحائط إلى الحائط، تنسى

النافذة وتدهشك الزواحف التي تدبّ في أوصالك. والمعدن الذي يطرق فيك. الماء، كثير من الماء. القهوة. كثير من القهوة. والإحساس أنّك الأجوف من داخل. أنابيب معقّدة تنقل الأصداء البعيدة لطرق موجع. أنابيب وأنفاق لحيوانات الدّم. للوساوس التي، في الليل، ترسب في السائل المغبّش لعينيك الحمراوين. تعرف؟ المضحك أنّك بين الحائط والحائط تصنع مدًى لروحك. تعرف ذلك من الرائحة، من الانكسار. من الرغبة في أن تتجنّب النافذة كلّ هذا الوقت. ليس الخارج، بعد النافذة بقليل. القعر الثاني للزجاج. وبين صفحة الزجاج وقعره الثاني، انعكاسات الأضواء القليلة. سماكة العتم الذي يدخل، يتسرّب إلى الداخل. تضيء لكي ترى نفسك لكي لا يذيبك الظلام بطحينه ومائه. تطفئ. هل تخاف رؤية هذا الجسد السائل؟ هل تخاف؟ تعرف أنّك لو أدخلت إبرة في الحائط تقتل النائم في الجوار. أنّك لو أثرت نفساً، ولو متهدّجاً، أحالك البواب إلى تأنيب مجلس المدينة. والنفايات. في آخر الليل تفكّر في النفايات. وما كان ينبغي أن تنجزه في الصباح. الساعة هنا. لكن التوقيت صعب. تظنّ أنّك تفعل كلّ هذا إذا كتبت المواعيد على المفكّرة. مثلاً: آكل في الواحدة ظهراً. أذهب إلى السيّدة التي تحبّ الغرباء وتبتسم لهم وأشتري خبزاً غريباً. وأكتب: أذهب في الساعة العاشرة إلى طرف المدينة الذي يشبه نهاية العالم. وفي الساعة العاشرة لا أفعل. وحين يأتي الليل أكتب: ما هذا

الوقت؟ لا يتّسع لإصبعي الصغيرة. وأكتب: هراء. ولكي لا تفوتني المواعيد الأخرى أشتري مفكّرة جديدة. أضعها على الطاولة. ولكي لا أبتعد كثيراً. أقرأ أيّام الأسبوع. تخيّل: من بين الأسماء أقرأ: الأحد. السبت. الجمعة. الخميس. الأربعاء. الثلاثاء. الاثنين. ثمّ مرة ثانية أقرأ: الأحد ـ والمساحة التي تليه بيضاء. الأحد: صفحة كاملة. تخيّل. صفحة كاملة لكي أكتب: تبّاً لهم. يوم الأحد ثراء روحي مؤكّد. تستيقظ. وفيما الكائنات في عطلة تكتب مصنّفاً في الضجر: تبّاً لهم. ثمّ النشوة التي تتبع ذلك. بين الحائط والحائط متّسع لخطوات، مليئة بالانشغال. مثلاً: أين تقضي هذا الصباح البهيّ؟ وفترة ما بعد الظهر؟ والمساء. آه، المساء. خاصّة المساء. وبصورة استثنائيّة تقرّر أنّك متعب وتكتب في الخانات للفترات المتتالية: لا رغبة لي في أيّ شيء. وتعرف أنه شيء عظيم. الأشياء كلّها هنا. فقط لو الوقت يتّسع. هل النّهار الرصاصيّ الذي يلغي النافذة وقت؟ هل الكلاب في الحديقة؟ هل البشر (أليسوا كذلك؟) الذين أراهم من ارتفاع شاهق يفعلون سوى أنّهم بشر وأنّ اليوم الأحد الذي يظلّ في صفحته وحيداً. لذلك أكتب في خانة الصباح: امرأة تركض إلى الأوتوبيس أو المترو. امرأة ليس لأنّها بين احتمالين (امرأة، رجل) يحدث أن تكون امرأة، بل لأنّ كعبها العالي يدقّ ضجيجاً هائلاً في الفناء الخارجيّ. وأكتب في خانة ما بعد الظهر: النيام بعد الغداء وكأس النبيذ،

يمددون أرواحهم المطمئنة على سرير أو كنبة وانتظام تنفسهم يصنع هذه السكينة. وأكتب أيضاً لكي لا يكون المساء متعباً: سعادة أن ينقضي كلّ هذا. أخيراً، المساء! وبعد ذلك أظلّ واقفاً في ركوده. بعد هذا الإرهاق: أشعل سيكارة. ثمّ أخرى. أتذكّر النافذة. أتّجه نحوها. أقف هناك أيضاً. وأفكّر في العودة إلى حيث كنت أقف في السابق. أفكّر طويلاً. وأحسّ، بسعادة غامرة، أنّني كنت محقّاً. النافذة تفصيل زائد في أبنية ينبغي أن تكون لها نوافذ. ليس للهواء. ليس لكي تصبح المدينة مرئيّة، بل لكي تتذكّرها في المساء، تقف خلفها وتفكّر في العودة إلى حيث كنت تقف في السابق. والذي تراه مضاءً بالمصابيح ليس المكان الذي يعبره بشر. وتخترقه عربات. مكان لزينة الأضواء والإشارات الكهربائيّة. إذاً تكتب في خانة الأحد: أمس كان السبت. غداً الاثنين. وبين ما كان ينبغي أن تفعله، وما ستفعله بوجه الدقّة لأنّه مكتوب على صفحات المفكّرة الصغيرة تجد وقتاً للاستراحة. هذه كأس لأنّ روحك لشدّة انشغالها في «استخدام الوقت» الذي هنا، إن كنت لا تدري، يتكرّر كلّ ست صفحات. ولكي لا تخترع ذريعة: صفحات بيض. تكتب شيئاً إذاً عن الوقت. عن طرق استخدامه لكي يكون مسّوغ لشأن تافه كالتنفّس. وها أنت تغمرك السعادة. لم تترك مليمتراً واحداً من البياض. وحين لا تجد شيئاً. تكتب أيضاً كم هي المسافة بين لوحة ماغريت والطاولة. وكم يستنفد الوقت من السكائر.

وكم أنت محظوظ لأنّك اكتشفت المفكّرة الصغيرة ومعها لا سبيل لأن يلتبس عليك مسار الأيّام. على التوالي: الأحد (بالخطّ الأحمر). الاثنين. الثلاثاء. الأربعاء. الخميس. الجمعة. السبت. الأحد أيضاً. وحين تقتضي الإشارة: الأعياد الموافقة للتواريخ أعلاه. والأرقام الضروريّة للطوارئ: المستشفيات. الشرطة. المطاعم. دور السينما والصيارفة. مع خرائط وإعلانات شديدة الفائدة: «إنّها سيّارة من أجل الحياة». أو «لسعادة القط الذي يتبرّز في الأرجاء. وطني، سيامي أو هجين، وللأخوة الكلاب من كلّ الأعراق والسلالات: بول دوغ، ألماني، برجيه، سان برنار كانيش أو غيرها». أو «لكلّ اللقاءات الحميمة: مستوحدون وعمّال مهاجرون عجائز وعاجزون. السعادة كما يجيدها اختصاصيّونا». أو «أميركا أميركا». السيدا. الأجبان. حليب الصباح. أس. أو. أس. التمييز العنصري. كولومبيا: الإغاثة إلخ...

ليس الأرق إذن، بل طريقة خاصّة في الحقد على الليل. إذ لا يتّسع الوقت إلّا لأن تكتب في الحاشية المخصّصة لأنواع الأطباق التي يسهل تحضيرها في أوقات الفراغ: لا شيء. أو باختصار أشدّ: لا. وترسم النقطة جيّداً لكي لا يظنّ القارئ أنّ البياض الذي يتبع من صلب العبارة. وتكتب شيئاً. لا من قبيل الدعابة وتضع له عنواناً لكي تنتقم منهم: القرّاء والموظّفون ورجال الأعمال وعمّال النظافة والنقابات والجمعيّات

الخيرية. لأنها الطريقة الوحيدة لكي تواجه أيّام الأسبوع. والسرير البارد وأدوات الحلاقة وفرشاة الأسنان ورائحة الصابون وأكداس الورق الأبيض على الطاولة. لكي تواجه الصباح في كلّ صباح. فتفتح عينيك وتنهض وتستعدّ طويلاً لكي تقول: تبّاً لهم. ولو كان بينهم شعراء وأطفال ونساء حوامل وقدامى المحاربين. ثمّ تتكبّد عناء أن تنظر من النافذة وترى المشهد منذ أمس وأمس الأوّل... تغسل وجهك بماء بارد. تصنع القهوة. تشعل (لنفسك) سيكارة. وتمتدح (لنفسك) حسنات الطقس البارد. وتلك المداخن العملاقة. والعربات البرتقاليّة والحمائم التي تهدل بقصباتها الهوائيّة المبحوحة وأرياشها القبيحة. وتعرف أنّك ينبغي أن تكون حماراً لكي لا تستمتع بهذا الصباح النظيف يطلع لك من المفكّرة. ثمّ تستجمع قواك (ينبغي أن تكون شجاعاً) لكي تذهب إلى النافذة وتنظر إلى البعيد. لكي تنظر إلى المطر (الذي بدأ) وكأنّه يبللك وتسري في أنحاء جسمك قشعريرة. وتفكّر في أشياء تقولها لآخرين حين تنتظر دورك أمام الهاتف العموميّ. أو حين تكتب رسالة لنجيب وتقول له إنّك بخير. أو إنّك مصاب بالزكام. فينشغل عليك كثيراً وينسى أن يتابع البحث عن جثّته بين البساتين أو في قنوات الرّيّ أو على التلال.

ليس الأرق إذن، بل هو الصّباح أيضاً. كأنّ الليل وحده لا يكفي. والباقي لسيرة كلب مرهف وحزين لا تكاد

تنتهي لكثرة ما ينشغل بالتأمّل وقراءة الكتب الرصينة حتّى التعاسة. إذ ما الذي يجعلك تظنّ أنّك لمجرّد أن تضع نقطة أخيرة على السطر ستخفّف الأشياء عن رعبها. ويعود الموظّفون إلى مكاتبهم والتلاميذ إلى مدارسهم. والمقاتلون إلى متاريسهم. ما الذي يجعلك تظنّ أنّ القارئ يحيا من دونك ويرى منامات سعيدة. إذاً تركض إلى مناماته وتجد مكاناً تجلس فيه. لا تغادره. لكي تستطيع بين الخيالات الليليّة الهانئة أن تطلق نباحاً فيكتمل مشهد الخواء.

ما الذي يخيفك إذن. أقفلت المنافذ والمنامات. وروحك الصغيرة تطمئنّ إلى الهواء الراكد الذي أخلته عربات الصخب والأخيلة. الأشياء تعود من تنكّرها منهكة. واللغة تفكّك أفخاخها. النيام يعرفون الآن أنّ في رؤوسهم المغشي عليها تتّسع مساحاتٌ للخلاء. اليقظة لا تخيفك. إذاً تعود إلى النافذة، تلصق جبينك بالزجاج. تنظر. ترى هاوية يصعد قعرها إلى السماء. وتنتظر أن يسقط منها النجم الصباحي. فالمفكّرة لا تخطئ. ليس فيها فرصة للنسيان. والتوالي: الأحد (بالخط الأحمر). الاثنين. الثلاثاء. الأربعاء. الخميس. الجمعة. السبت. الأحد أيضاً. عطلة الأسبوع.

تنتظر قرعاً، ولو خفيفاً، على الباب. إذ تحسب أنّ الباب يُغلق من الداخل لكي يعرض نفسه في أوقات، ولو قليلة، من الليل أو النهار، لأن تطرقه قبضة يد، أو نقر أصابع خفيفة. وإلّا لما كان باباً هذا الذي يغلق

الصمت على ذاته ويجعلك في الداخل فيما يجعل الآخرين في الخارج. تعلم، طبعاً، أنّ الحياة لها حكمة وتجارب وأنّها تكون قاسية أحياناً كأن يمرّ نهار وبعده ليل ويظلّ الباب المغلق مغلقاً وصامتاً، فتنصرف إلى غير الانتظار، من مشاغل تكلّف النفس مشقّةً كالطعام والنوم. لكنّك في الأثناء تنتظر طرقاً ولو خفيفاً على الباب. أن تكون، مثلاً، في حالة استرخاء أو تأمّل أو تكاسل ويأتي النقر الخفيف (أو القرع الصاخب) على الباب ليشغلك عن هدأة القيلولة أو لذّة الانفراد. فتفتح الباب، بامتعاض تحاول أن تخفيه وترحّب بالقادم (بالقادمين) وتجلس للتسامر أو للصمت وتختلس، بين حين وآخر، نظرة إلى ساعة اليد أو إلى موضع الشمس في السماء عبر النافذة. لأيّام خلت كنت تحسب أنّ مثل هذه الأمور لا تحدث هنا، أن يأتي أحد (ومشقّة أن يأتي) ويقرع بابك أو ينده عليك من الخارج. لا تدري لماذا. لكنّك كنت تحسب أنّ هذه الأمور لا تحدث وأنّ الأبواب ليست أكثر من جدران واقفة وأنّك حين تجتاز تدخل إلى حيّز خارج الوقت والمكان وأنّك ستفاجأ في يوم، حين تستيقظ وقد نبتت لحيتك حتّى أسفل صدرك، وبيوت العنكبوت وخيطانها تتدلّى من ورق الجدران الباهت. لا تظنّ أنّ أحداً يأتي في السهو الكبير الذي ينيم الهواء والوقت. لأيّام خلت كنت تحسب أنّ الجلبة التي تسمعها في آخر الليل، وقع الخطى والضحكات والقرع على أبواب أخرى، هي أمور تحدث

هنا، لكنّ الآخر الذي لا تعرفه هو الذي يتعرّض لها. وأنّ كلّ هذا الصخب لا يمكن أن تحدثه أوهام أو أخيلة أو كائنات المنام الرطب. وأقنعت نفسك أنّ هذه الأشياء تحدث فقط في رأسك وأنك حين تظنّ أنك ترى بشراً إنّما تهذي أو أنّ الحمّى ألهبت أطرافك ورأسك. ولكي تطمئنّ تبحث عن «الأسبرين» أو تغسل وجهك لأنّك تظنّ أنّ الماء يطرد الأرواح ويردّ صفاء الذهن. لأيّام خلت كنت تحسب أنّها أمور لا تحدث. فالأبواب لا تعني شيئاً. فقط تنغلق على حيّز فارغ. حتّى تكاد تظنّ حين تغامر في الرواق الطويل أنّك إذا وقفت لحظة واحدة، لا بدّ أن ينفرج أحد الأبواب الواقفة في صفّين صارمين وبدل أن ينكشف الداخل عن حجرة وأثاث ترى الهواء الطلق، الهوّة التي ترتفع إلى 15 طبقة وتبتلعك. فالأبواب، هنا، حيلة العدم الذي وراءها. وحين تنفرج عن بشر فكأنّهم يصعدون إلى عتبة الحياة. يدارون إحكام الإقفال وراءهم لكي لا تتبعهم لعنة المغلق. ويسيرون بشحوب لكي تأخذهم القاطرات. بعد ذلك أصبحت أكثر إصراراً على انتظار الطرق الخفيف على الباب. على الأقلّ، طفل يلعب، يطرق ليزعجك، شخص يخطئ العنوان، يطرق وحين تفتح له يعتذر، وتفهمه بتهذيب، أنه أخطأ العنوان، أو تؤنّبه لأنّه قطع عليك هذا الانتظار. أو تصفق الباب إشارة منك إلى غضب لا تريد أن تعبّر عنه، أو أيّ شيء ممّا يحدث عادة حين تكون الأبواب ليست هي الجدران، وحين يتكبّد الناس مشقّة

أن يلاعبوا أصابعهم على صفحتها الملساء.

تعرف أنّ مثل هذا الأمر سيحدث. وإلّا لكان الباب الذي وجدته هنا منذ مجيئك، مجرّد سوء فهم، أو سوء توزيع هندسي. لذلك تنتظر. وفي الأثناء، تكتب فصلاً في حكمة «وجود الأبواب». وتتخيّل أنّ الملوك كانوا يضعون حرساً على جانبيها لكي يمنعوا السابلة والعامّة من رياضة الطرق الخفيف عليها. وفي الحاشية تكتب أنّ الأبواب هي المداخل النهائيّة (الأبديّة ربّما). وأنّها لا بدّ أن تكون مثيرة للرعب بحيث يتجنّبها المارّة، ويغلقها السلاطين والموظّفون، ويحرسها العسكريّون، ووحدهم اللصوص يقتربون منها بدعة وخشية، لأنّ اللصوص سحرة الداخل، وإن كانوا لا يطرقون الأبواب لكنّهم ينيمون أرواحهم ويعالجون أبدانهم حتّى إذا وصلوا إلى العدم الذي تخفيه بثّوا فيه حركة بطيئة لكنّها تؤنس وحشة النوم الراكد.

لذلك حين يئست من أن تسمع طرقاً على الباب، بتّ تنتظر اللص ـ المخلص. وأصبحت تتصنّع النوم باكراً. حتّى إذا دهمتك الحاجة تحاملت عليها، لكي لا تقلق الحياة التي يأتي بها اللصوص، مقنّعين وشبحيين وذوي دراية ومراس. ولأيّام خلت كنت تحسب أنّ هذه الأمور، أيضاً، لا تحدث. فأقلعت عن قراءة الروايات البوليسيّة. وانتظرت. وأكثر من مرّة في النهار، تتوجّه مسرعاً إلى الباب، تفتحه بلهفة وارتباك لكي لا تجد أحداً. تطلّ برأسك، يمنة ويسرة، وتكرر الإطلالة يمنة ويسرة، وحين

تتأكّد أنّك أخطأت، أو أنّك سمعت ما ترغب في سماعه، تغلق الباب مبتسماً. أو لكي تخدع نفسك تتركه مشرّعاً لأنّك تعلم أنّ لا أحدَ هنا، وأنّ الأبواب (الخفيفة) ليست سوى هفوات المهندسين الذين، في غفلتهم، وفي تسارع القاطرات، استبدلوا بالجدار الرابع مستطيلاً من الكرتون المقوّى ولكي يحكموا الخدعة أكثروا من الأقفال.

لم تعد ساذجاً، فقط تعلم أنّك تنتظر شيئاً لا يحدث. تفعل ذلك لتمضية الوقت. لكي تحلق ذقنك كلّ صباح. لكي تلبس ثيابك. لكي تعرف أنّ هذا الصباح قد يكون غير ذلك الذي انقضى. لكي تشرب القهوة الساخنة. لكي تقنع نفسك أنّك في الداخل تسعى، تنام وتنهض، تنهض وتنام، وأنّ الباب ليس حارس العدم، ليس حارس خيوط العنكبوت، أنّك، في الأثناء، تنتظر أن يرتطم ضرير بالباب الوهمي، أن يشبّ حريق في المدينة فتهرع الكائنات المصلية إلى الأروقة فيما يحترق الداخل الذي تمنعه الأبواب من النجاة.

لكثرة ما انتظرت تهذي. هذه الأمور لا تحدث هنا. الأفراد ينامون، بعد العمل والقاطرات، بدعة. لا شيء يقلق أحلامهم البيضاء. فالأبواب، أقنعة الرواق، حرّاس العتبة التي تفضي إلى هاوية ترتفع بدل أن تتعمّق. المساحيق على الوجه، والبطّانيات الصوفيّة تعزل الهواء الذي يبترد قليلاً. الأشياء هانئة في أفضل العوالم الممكنة. أن تأكل، أن تقرأ، أن تنام خلف الأبواب الصامتة. إذاً ماذا تفعل الجدران؟ ولماذا تقلق الأبواب

راحتها، مفاصل من معدن تصرّ إذا خرجت الأشباح من رقادها. الوجوه شاحبة، هذا الصباح أيضاً. الغرف، في الساعات الأولى، تتخلّص من الأبدان التي تفرغ أنفاسها. الفضلات تغادر السكينة التي تحرسها الأبواب. الأبواب، الآن، وحيدة. كذلك الرواق. لا الخطى، لا التنفّس، لا السعال المكتوم، لا جلبة الحياة الجارية في المرحاض. التكوين يبدأ الآن من بداياته. من طينه، من حشراته التي تصنع حياة في المستنقع. الموظّفون، بصمت، إلى حجرات الإسمنت. التلاميذ، بصمت، إلى ردهات الاستماع، اللصوص، بصمت، إلى انتظار الليل القادم. والباب إلى انغلاقه الأبديّ. نيرفانا الوقوف بين زاويتين، لذّة ابتكار الفراغ الكبير بين أن لا يحدث شيء وأن تنتظر، وفي كلّ يوم، بشهيّة لم تكن تعرف أنّك قادر عليها. وفي الأثناء: «فصل في أنّ الباب يعذّبك». في أنّ الباب ليس من طبيعته أن يقرع. وأنّه في، الحقيقة، جدار.

تنتظر قرعاً، ولو متهوّماً على الباب. وفي الأثناء، لا تهدر وقتاً. تهيّئ «صباح الخير» لكي تتقن لفظها. لا تغادر كثيراً أو تجهد في أن يكون غيابك خاطفاً. ماذا لو يأتي أحد، يطرق ويطرق ولا يجد أحداً، يحزن ويمضي. الأبواب قاسية كالعسكري. لذلك لا تغادر. تحاول أن تفهم منطق الأقفال. الخشب الواهن الذي يأسرك. لا بدّ أن يكون الباب مصاباً بعقدة الجدران. يتكلّس من مفاصله. تغطيه الملصقات والشعارات و«ع... من يبوّل

هنا». أو إشارة مرور: «طريق مسدود». حلمت، لأيّام خلت أنّ شرطيّاً يجيد الإيماء الرسمي، يقف هنا ويقطع السير. وحين استيقظت كانت الشوارع خالية والعربات كأنّها لم تبتكر بعد. كانت الأفاعي واليعاسيب والزواحف تملأ المكان. كان قلبك لا يزال هنا. كنت تسير وكانت الأبواب لطيفة ملساء وتجد، حين تعود إليها، رسالة: وردة، ورقة كلينكس، عقب سيكارة، علبة «روثمان» فارغة. وأحياناً صورة فوتوغرافيّة.

تنتظر. ينبغي أن تنتظر عمراً كاملاً لكي تفهم حكمة الأبواب المغلقة.

«أن أكون فقدت الصمت، أمر لا يجعلني أنجو من ندمي عليه. فأنا لا أستطيع أن أصف مأساة الرجل الذي، في يوم ما، بدأ بالكلام».

(موريس بلانشو: «وقف الموت»)

«الأشخاص الذين أحبّهم أبنيهم بقلقي حتّى يخيّل إليّ أنّهم خرجوا من وساوسي».

(عبّاس بيضون)

العين حين تتريث قليلاً، كما يحدث الآن، على مواضع متفرّقة من الطاولة أو الحائط أو زجاج النافذة المعتم، العين، إذن، لا تحدّق، توزّع خواءها على الأشياء المبعثرة. كأنّها تطمئنّ إلى أنّها (الأشياء) جميعها هنا، ومعها أنت. توزّع خواءها على الكأس، على الصورة والورقة البيضاء. ثمّ تستأنف انتباهها السابق إلى شيء ما، خلف الزجاج، خلف العتمة التي بين الزجاج والمبنى المقابل، خلف المبنى المقابل، إلى شيء ليس هنا، ولست معه أنت. برغم جلوسك وانكبابك على الورق الذي أمامك، الذي على الطاولة، لا تفكّر في شيء محدّد، وربّما لا تفكّر على الإطلاق. تجلس هنا فقط. فقط هنا، أنت. تعرف أنّك إذا أردت تشغل نفسك بالإصغاء إلى صمت الغرفة. والأغنية (تفكّر؟) التي تسمعها دائماً هي نفسها، من الصباح حتّى آخر المساء، أصبحت جزءاً من صمت الغرفة. حتّى إنّك حين تخرج لا توقف آلة التسجيل. ولا تنتبه حين تبدأ الأغنية بل حين تنتهي

ويدور الشريط صامتاً، فتحسب أنّ الصمت أصبح فجأة، أعمق، كأنّ باباً لسردابه انفتح فجأة فتقع الأشياء فيه، كأنه أصبح مختلفاً عمّا تعرفه (وأنت تعرفه جيّداً)، أكثر عمقاً ووحشة، أكثر فراغاً. تروق لك الفكرة، وتفكّر إذن: هل تصحّ الإضافة أو النقصان إلى الفراغ أو منه؟ متى يكون الفراغ أكثر أو أقل فراغاً؟ ثمّ تتخلّى عن كلّ هذا العناء وتكاد تؤنّب نفسك لأنّك لا تختار إلّا المسائل الصعبة. ولشدّة غبائك تظنّ أن الأسئلة الجيّدة ليست بالضرورة تلك التي نعثر على أجوبة عنها. إلخ.

الأذن حين تنتصب أحياناً وتتهيّأ للأصوات، الأذن لا تصغي. فقط تطمئنّ إلى غياب الحركة أو النبرة أو الصوت. حتّى إن تنفّسك الذي يحدث صوتاً غريباً في أوقات التعب والإرهاق يصل إلى المسالك الملتوية للأذن الداخليّة كأنّه هدير متقطّع لقطار بضائع يكمل رحلته بين الصدغين، وبما أنّك لا تستطيع، لسبب ما، أن تتوقّف عن التنفّس تكتفي بأن تلعن الصداع، وتشتري أقراصاً كلّما ذهبت لشراء الصحف اليوميّة والخبز والسكائر وزجاجة النبيذ. مع ذلك لا تعرف. بعد أن تشتري عدداً من العلب وترتّبها في الدرج بعناية، ماذا تفعل بها. لأنّ الصداع لا يصيبك، ولأنّ الأذن حين تنتصب أحياناً، لا تصغي، كأنّها تبطل الأصوات، تبطنها فتحدث زحمة شديدة في رأسك الصغير من الحافلات الكهربائيّة والجزّارات وأعمال الصيانة والمطرقة الآليّة والساعة الضخمة للمحطّة المركزيّة. لا تصغي لكي تميّز

نبرة أو نغماً أو صوتاً ما دام الضجيج يتكوّم في كتب تتضاعف أحجامها وتكرج عملاقة لتمعس الحشرة الصغيرة التي تسعى على الرصيف، أو في الحديقة العامّة، أو على بلاط المطبخ. كنت تحسب أنّ جارك، المياوم في صيانة الطرق والجسور، يضع قطناً لكي يحمي رأسه من الضجيج، لكنك حين سألته أخبرك، ولم يخف انزعاجه، أنّه يضع قطناً في أذنيه لكي يستطيع أن ينام، لكي لا يطلع الضجيج من رأسه العمالي ويفسد عليه نومه العمالي وسكون حجرته العماليّة.

الفم، حين تنفرج الشفتان ويتجفع اللسان بين الحلق وأسنان الفك الأعلى، الفم إذن، لا يحكي. ليس لأنّ الكلام ثقيل، أو لأنّ إعاقة وراثيّة تمنعك من ذلك، بل لأنّك في معظم الأحيان تحسب أنّ الأشياء التي تخطر لك وترغب في أن تقولها لا تستحقّ فعلاً أن تقولها لنفسك. تعلم أنّ من الغباء أن تقول لنفسك المتعبة إنّك متعب، لنفسك التي تموت ضجراً إنّك تشعر بالضجر، أحياناً، أو إنّك حزين أو إنّك تتألم، أو أيّ شيء آخر. لذلك تفضّل أن تحفظ فمك، الذي لا يحكي، لمشاغل أخرى: أن تبتسم حين تلتقي بعجوز مستوحدة ولطيفة حين تبتسم لك، أن تقول لبائعة الخبز: بونجور، ولكي تثرثر قبل أن تغادر: أورفوار وتحرص في اللفظتين أن تحافظ على عجمتهما وتداري لسانك الأجنبي. تحفظ فمك إذن، لمرارة طعم النبيذ الذي عاقرك وعاقرته، مرغماً، في المساء السابق، لعطر النيكوتين الذي تحسّ

أنّه يفسد أسنانك. ولكي تمرّن فكّيك تتغرغر بالماء البارد عند الصباح. وتتهيّأ طيلة الصباح، تغسل وجهك، وتشرب قهوتك بلذة كبيرة، وتسرع إلى المغادرة. يغضبك المصعد البطيء. وعلبة البريد الفارغة. تتهيّأ. لم تصادف أحداً، لا في الرواق ولا في المصعد. تتهيّأ. الكلمة على رأس شفتيك. أخيراً تأتي، بمعطفها ونظّارتيها. بشعرها القطني وكلبها الأنيق الناعم والنحيف. تبادرها بصباح الخير، فتبتسم وتردّ بصباح مثله وتضيف ملاحظة عن الطقس: «أؤكد لك يا سيّد أنّ الطقس ليس حارّاً هذا اليوم». وكنت تتهيّأ للزكام. وتشعر أنّك تكلّمت كثيراً. وأنّك لا بدّ ستتعب (من الكلام) حين تذهب إلى بائعة الخبز، أو إلى اللحّام، أو إلى عاملة الصندوق الدميمة في «السوبر ماركت». «صباح الخير أو مساء الخير يا سيّد» تهزّ برأسك متعباً، تشتاق إلى الصمت.

اليد، حين تشعر بأصابعها الثقيلة، لا تصافح. اليد إذن، قدم صغيرة أو قائمة تحك بها أسفل أو أعلى جبينك أو ترفع بها خصلة من شعرك الطويل الرطب. تحسب أنّها تفصيل زائد في الجسم. إذاً تكتب. اليد تكتب حين تشاء. أو تظلّ في جيب «الأنوراك»، تعرق أو تسترسل الأصابع في مداعبة قطع النقد المعدنيّة. أحياناً، لا تعرف ماذا تفعل بها اليد التي لا تصافح. ولكي تطمئنّ أنّها هنا، تتحدّث عنها. أو ترفعها إلى شعرك أو شاربيك. تقول (لنفسك) إنّها تؤلمك تمسكها باليد الأخرى. أو تفطن إلى

المكنسة. تحرص أن تحرّكها جيداً. بعد ذلك تحرص أن تكتب بها. أن تفتح الباب، أن تغلق النافذة، أن تلوّح من خلف الزجاج بها، لأيّ شيء، للّاشيء. ثمّ تقول (لنفسك): طبيعي أن لا تعني اليد شيئاً. يحسّ بها عامل التنظيفات والميكانيكي والروائي والشاعر وشرطي المرور. وأنت لست من هؤلاء. تمسك قلماً باليد التي لا تصافح وتكتب هذه المورفولوجيا المملة.

الجذع، حين ينطوي بشكل دال أو يتمدّد بشكل سين، لا يدّعي الراحة أو الوهن أو الإنهاك. فقط يداري ثقل الرأس والأطراف. يداري الحمى ورعشة الصقيع، وأحياناً تطلع له رائحة. الجذع ينشغل، عادة، بالرأس. تحرّك، يتحرّك، انهض، ينهض. نَم، ينام. والآن ماذا يفعل. البطالة تجعله شيئاً مع الكرسيّ وراء الطاولة، شيئاً مع السهو والصمت والليل على السرير، شيئاً في الشارع، شيئاً يكرر الدم نفسه من الصباح حتّى آخر الليل، تحسب أنّ الجذع محرقة للكحول والنيكوتين. لشهوة تتفتّح وتنطفئ فيه. مقبرة لقلب ورئتين ومريء ومعدة. للنوم، لتعب السير. لفراغ يحتلّك فتظنّ أنّ الهواء يصفر في داخلك وإلّا من أين كلّ هذا الصقيع.

القدم للسير. على الرصيف. أو بين الخطوط البيضاء للجادّة أو الجسر أو الأوتوستراد.

الرأس لأيّام العطل، يتنزّه في الحدائق والمقاهي وصالونات الحلاقة.

القلب ليس هنا، طاولة أخرى. ونافذة أخرى. ليس

هنا. ومعه أنت.

«أوّل شروق الشمس

ثمّة غيمة

كأنّها غيمة في لوحة».

«إنّه الشهر الثاني ـ

لا أذهب إلى أيّ مكان

لا أحد هنا يأتي».

(كتاب الـ«هايكو»)

هل يجدي الصباح حقّاً؟ أعني حين يأتي (دائماً يأتي) ولا أعرف، صدقاً، ماذا أفعل به. وليس لديّ، حين أفتح عينيّ الحمراوين وأنهض أو حين أشرق قهوتي، ما أحدّثه به. ما أفعله لكي لا يبقى وحيداً، صامتاً خلف النافذة. هل يجدي حقّاً ما دمت لا أذهب إلى مواعيد لا أتّفق مع أحد عليها ولا أفتح النافذة لكي أتنشّق هواءه الغازي كما يفعل الموظّفون والجنود والشعراء أحياناً، لا أعرف، حين يأتي، هل ينبغي، حقّاً، أن يأتي، أعني ليس لأنّني لا أحبّه، أو لأنّ بيننا مشادة سابقة، أو لأنّني بطباعي البورجوازيّة ومزاجي الرومنطيقي، أحبّ أن أشرب قهوتي منفرداً على الكرسيّ، منفرداً وراء الطاولة ولا أجد في دوران الطائر الغبيّ ما يلفت، ما هو خارق إذ لا يجد بين المبنيين وجهة لتحليقه. أعني: لماذا يأتي الصباح بطائره الغبيّ ولديّ أكوام من الخبز اليابس، ولسبب ما، لا أفتّه له بل أفضّل أن أرميه، مع الزجاجات الفارغة، في مكبّ النفايات لتسقط من الطابق الخامس عشر بضجيج يزعجني ويجعلني أشعل الراديو على

آخره. هل يجدي حقّاً حين أشرب نبيذي وحدي، أو أدعوه إلى نافذة جاري الذي في الستين يعرف ماذا يفعل به، أعني حين يبتسم لي ويدهشني ببياض أسنانه الاصطناعيّة. لو يأتي بين حين وآخر، الصباح، لقلت إنّه لا يتقصدني، وإنّما يمرّ بي أحياناً بمحض المصادفة، لكن أن يأتي كلّ يوم ويمكث هنا بين التاسعة والظهيرة هو خلف النافذة وأنا، أمامه، على الكرسي، أمر يقلقني ويربكني، حتّى أحسب أنّني لست طليقاً في هذه المساحة الصحراويّة، فقط لو يصطحب في زياراته الصباحيّة ظلّاً لصدقت، لسذاجتي، أنّه إنّما يفعل لينزّه ظلّه الشاحب، كما تفعل العجائز بكلابهن، في البقع النادرة لشمس جليديّة. ولا يعنيني كيف يمسك الصباح برسن ظلّه لأنّ اللافتة تقول إنّ الكلاب الفالتة ممنوعة في الحديقة وفي المقهى وفي قاعة المحاضرات والحافلات الكهربائيّة.

أمس أحسب أنّه كان حزيناً أو ظننت أنّه كان كذلك وإلّا لما مكث طويلاً، كان يكفي أن أفتح النافذة ليتمّ التعارف بيننا. لكنّني لم أفعل شيئاً. لم يفعل شيئاً وكان الصمت بيننا ككتلة معدن. لا. لا أقول ذلك، كما يحسب القرّاء العارفون، لأنّني، ربّما أحبّ الليل (أحسب أنّ الليل ظلّه) أو لأنّني حزين وسوداويّ (كنت أضحك حين أرى سرج غينسبورغ بترنّحه وتأتأته) ليس لأنّ كافكا ينظر إليّ وهو يكتب رسائله إلى ميلانا، ليس لأنّ ريلكه لم يغادر الرفّ الثالث خلفي منذ أسابيع، ليس لأنّ الطقس

رديء والحانة تقفل في السابعة والنصف، ليس لأنّ صدري يؤلمني ورأسي كحجرات مليئة بالفراغ والعمّال المهاجرين والموبيليا والمعلّبات، ليس هذا، لكنّ الصباح يحرجني حين يأتي ولا أعرف ماذا أفعل به. لا أقول له سوى هل يجدي حقّاً أن يأتي بين التاسعة والظهيرة فأفتح عينيّ ولا ألتفت إليه بل أفتقد مكاناً آخر. ولكي أشغل نفسي بتّ أحاول أن أتخلّص من كلّ شيء، إذ خيّل إليّ أنّ الصباح ربّما ليس أكثر من وهم يطلع من رأسي. قلت أنسى. تخلّصت من كلّ شيء: أعني الساعة والمنبّه البنتطرويلي، من المفكّرة، من صابون الحلاقة والشفرات، من كتب عبّاس وحسن ووضّاح، من عيني بيار الدامعتين، من ابتسامة مروان، ونسيت كم تستغرق المسافة سيراً بين ساحة النجمة ومثلّث الراهبات، نسيت أن أكتب، أن أحلق ذقني، لكنّني حين يأتي لا أنجو منه، الصباح، يمكث هنا كالصداع بين التاسعة والظهيرة. أعني أحدّق في المكعّبات التي أمامي، لا نافذة مضاءة. لا أحد يذهب إلى المقهى وينتظر، يقرأ الجريدة وينتظر. ويضحكني أحياناً حتّى الإغماء أنّ الساعة ترنّ لنفسها، كأنّها تتذكّر فجأة وتستعجل الذهاب إلى موعد أو لقاء أو وظيفة. وأضحك أيضاً لأنّ الصباحات دائماً أكبر ممّا نحتاج منها. أعني المؤلم فيها أنّها شاسعة. حين تأتي لا تعرف سوى أن تنظر إليها كأنّك تراقب سقوطك فيها ولا أحد يمسك يدك أو طرف قميصك، لا أحد يدلّك إلى نومك كأنّ نومك بعيد

وعينيك تبحثان عنه، وتظنّ أنّ الصباح حين يرحل أخيراً، تهتدي عيناك وتنتهي الحكاية. لحظة، اثنتان، ألف، ولا تنتهي، كأنّ الصباح جغرافيا لا تعرفها كما تتأمّل في أطلس الأرض، أو خارطة أفريقيا. كأنّها جغرافيا خرافيّة تنتشر على حواسك فيصيبك الخدر الذي تخاف منه، النوم الذي تخاف منه، والصمت المتراكم في الزاوية، يتكلّس في الشقوق بين الباب وإطاره في الجدار.

هل يجدي الصباح، حقّاً؟ لا تعرف هل عليك أن تنتظره أو تتجاهله وتحيا في وقت خرافيّ. وفي وقت حسابيّ لا ينقضي إلّا على الأصابع. أو حين تكتب بلهفة صباح كلّ يوم لكي تؤرّخ في أعلى الصفحة البيضاء وتكتشف، حين تقرأ ما كتبته من قبل، بدهشة من لا يصدّق أنّ الصباح الذي يمكث خلف النافذة ليس نفسه، ليس هو الذي كان هنا طوال البارحة وإن كان هذا الذي يقف الآن يشبهه في كلّ شيء. إذاً أكتشف الكتابة من جديد ولا أعود أسأل (نفسي) هل يجدي حقّاً؟ فالأمر لا يعنيني، كأنّه لا يأتي لأجلي، أتجاهل هواءه الغازيّ الذي يلطّخ زجاج النافذة، وأقرأ رسالة إلى ميلانا فأهتدي إلى طريقة للتخلّص منه حين يأتي، كعادته، ولا أفكّر هل لديّ ما أفعله به، لأنّني، وهو هنا، أفكّر في الذي يليه، في اليدين اللتين تدلّاني إلى نومي، في الصور التي تستدرج أحلامي إلى فخّ الغبطة أو الكآبة. فأنهض، حين يأتي، أغسل وجهي وأضع نظّارتي أحدّق وأنتظر

وأحسب أنّ المشهد يتبدّل بعد حين، أو أفكّر فيما يخفيه المبنى الذي أمامي منذ ثمانية أشهر، منذ سنة أو سنتين، منذ دهر أو دهرين أو ثلاثة. هو في الخارج، خلف النافذة، وأنا، في الداخل، على الكرسيّ. وأفكّر أحياناً أن أعطيه، حين يأتي، لجاري لكي يستخدمه في عمله ونزهاته، أو لعاملة التنظيفات التي تحتاجه أكثر مني لداء مفاصلها، أو أطويه وأضعه في الخزانة أو على أحد الرفوف مع الشراشف المتسخة، أو أتبرّع به للأخويّات الغامضة ومضيفات علب الليل لكي يجدن وقتاً لنوم أعمق. أو لا أدري، أدعه هنا ولا أبالي. لا أنشغل به أو أكتب عنه، ثانية، لكي أتخلّص منه، أو أضع له مصيدة على حافّة النافذة، أو أرشّ سموماً، لكي أنهض في اليوم التالي وأراه ممدّداً على الناصية القريبة، أكثر شحوباً، وأكثر تصلّباً، محاطاً بجثث طيوره الغبيّة كالأوراق اليابسة فيأتي المسعفون ويحملونه ويذهبون، وتكتب الصحف خبراً عاديّاً جدّاً عن أسباب غامضة لوفاة مفاجئة، وهي أمور تحدث هنا، من درجات الصقيع أو 8، 9 غرامات من الكحول في دمه الغازيّ، أو أيّ شيء. وأحسب أنّني أقرأ خبراً مثل هذا، أنهي قهوتي وأتمدّد على السرير وأقول مثل هذه الأشياء تحدث وإنّني أخيراً سأستطيع أن أنام وإنّني حين أنهض بعد ساعات لن يكون هنا. وحين يفتقده الموظّفون والجنود والشعراء، ويسألني جاري، أبتسم وأقول له: «ألم تقرأ الصحيفة؟ خبر عاديّ في سطور

قليلة. والأسباب غامضة». وأحسب أنّ المحقّقين لن ينتبهوا كثيراً، فهم، بعكس الآخرين، لديهم، على مكاتبهم مصابيح النيون، والشوارع والبيوت والمكاتب ووسائل النقل أيضاً. إذن، هل يجدي الصباح حقّاً؟

هَا أنت الآن

ثلاثة أشخاص على الشرفة

لذكرى ماهر ونجيب)

«[...] في كلّ صورة: عودة الميت»

(رولان بارت: «الغرفة المنيرة»)

الصورة أمامي الآن.

يجلسون جنباً إلى جنب على الشرفة. خلفهم يرتفع الفاصل الحديدي. ويبدو من نظراتهم المثبتة على نقطة ما أمامهم أنّ كاميرا المصوّر ماثلة قبالتهم، في الوسط بين الدرابزين المطلّ على الشارع والباب الجرّار الذي يفضي مباشرة إلى إحدى الغرف (ردهة جلوس أو صالون). هم ثلاثة أشخاص (كانوا)، رتّبوا جلستهم وتهيّؤوا لومضة العدسة. كأنّ في نظراتهم إلى مشهدٍ محتمل ما يأسر أجسادهم في هيئات لم يستعدّوا لها كثيراً. أنظار أشخاص يجلسون على الشرفة وينتظرون ومضة العدسة لكي لا تثبت اللحظة والنظرات في نقطة ما من المكان، بل في الفراغ. وأحسب أنهم الآن، باختلاف بسيط في زاوية النظر فيما بينهم يحدّقون في وجهي. الصورة أمامي الآن.

في الوسط فتاة تضحك بشيء من الخفّة، بشيء من الغياب. كأنّها في اللحظة التالية نهضت واستأذنت الرحيل مبتسمة أو نهضت مسرعة لاستدراك شيء ما في الداخل ثمّ تعود وتستعيد لمسة غبطة على وجهها. هي الآن هنا ـ في الوسط ـ ترفع يدها اليسرى إلى فمها

بينما تحاول أن تردّ، بيدها اليمنى شعرها الأسود الطويل عن كتفها. والآخران يبتسمان بجهد واضح. كأنهما يستجيبان لإلحاح المصوّر. أحدهما يجلس إلى أقصى اليسار، مطرق الرأس قليلاً كأنه لم يجلس هنا معرّضاً قسماته المصلية الحادّة وجسمه النحيل لصورة إلّا مرغماً. وفي جلسته المستقيمة شيء من الحيرة والارتباك. أمّا الآخر فابتسامته أضيق من أن تتسع لأسنانه الكبيرة البيضاء فبدا وكأنّه يهمّ بقول شيء ما لم يكتمل قبل أن تفاجئه الصورة. يرفع كفّه اليمنى بحيث تحجب قسماً من جذعه. اليد الثانية يلقيها مستنداً بمرفقه إلى جانب الكرسيّ المجاور وكأنّ في استقامة جذعه حذراً من أن تلامس كفّه الطرف المدلّى لقميص الفتاة الفضفاض.

الشرفة (أو القسم الجانبي الذي يبدو في الصورة) تكاد تكون خالية. في الجانب الأعلى من الفاصل الحديدي، فوق رأس الجالس إلى أقصى اليسار قفص معلّق لطيور ليست هنا. أمامه، في الوسط، طاولة صغيرة عليها علب دخان. صحن فارغ وأربع علب بيرة. وإلى جانب الحائط، على الأرض، عدد آخر من علب البيرة الفارغة، أو تبدو كذلك لأنّها مهملة كالأشياء التي حين نفرغ منها نضعها كيفما اتّفق.

لا بدّ أن تكون الصورة التقطت في ساعة من فترة ما بعد الظهر. لأنّ درجة النور لم تكن كافية فبدت خلفية المشهد معتمة بعض الشيء، حتّى إنّ الوجوه تكاد

تمتزج بظلّ يدهمها أو كأنّها انتزعت من ملامحها المحددة. فقط على وجه الجالس في أقصى اليمين ظلال تشي بلحية نابتة. بينما يغيب أعلى جبينه في طرف بقعة صفراء تطمس معالم شعره (الجعدي؟) والجانب الأيمن من الصورة. خلف الكراسي، بين الفتاة وبينه دكّة غير مرتّبة أو مجرّد كدسة من الصحف والمجلّات القديمة. وقبالة الأشخاص الثلاثة يبدو الطرف الأمامي من كرسيّ فارغ، لا بدّ أن يكون لشخص رابع نهض لتوّه وأحضر الكاميرا لالتقاط صورة تذكاريّة، كأنّه في إخلائه المشهد ينجو من مرارة التذكار. يقول (الغائب): «أحتفظ بها، الصورة. وأضعها في مكان. وأنسى أين وضعتها. لا أبحث عنها. فقط أعرف أنّها صورة لثلاثة أشخاص على الشرفة». أو ليس هذا ما يقوله (الغائب). يجهّز الكاميرا بصمت ويقول: «ابتسموا» ولا أحد يعلّق. ويتابعون جلستهم، أربعة أشخاص على الشرفة في لحظة تمرّ. أو يواصلون نقاشاً أو مزاحاً. ويرفع الجالس إلى اليمين كفّه لكي يقاطع أو يرفض أو ينكر فيما ابتسامته لا تتسع لأسنانه الكبيرة البيضاء والفتاة تخفي ابتسامة خفيفة (تغتبط أو تسخر أو تجامل؟) فيما يدها الأخرى ترفع شعرها عن كتفها ورقبتها بسبب حرّ ذلك الصيف. والآخر يلزم الصمت. شعر طويل يلامس كتفيه، وقميص كاكي ونظرة تحاذي الشخص المقابل، حين غادر كرسيّه ليصوّر، وتقع جانبيّاً على وجهي الآن. حدّة في ارتسام عظم الفكّين، من

أسفل الأذن حتى ترويسة الذقن النافرة. أنف حادّ كأنّه يقطع حقل النظر. فتتسع العينان لاستهجان أو دهشة أو مجرّد شرود انفعالي. كأنّ (الغائب) قال شيئاً قبل أن يذهب لإحضار الكاميرا أثار لحظة صمت تتواصل، أو كأنّه، إذ يتلافى النظر إلى العين الزجاجيّة الدائريّة يحدّق في المشاهد المحتملة للصورة، لكي لا تكون الصورة، بعد وقت، للحظة مشابهة. فالنظرة الحادّة، والجلسة المستقيمة، والشرود الانفعالي، ليست للحظة تتريّث الآن قليلاً، بل لوقت مقبل. والانتباه في مواجهة العدسة كأنّه إلغاء (إخفاء) لما كان يحدث للتوّ. هيئة حذفيّة (إضماريّة) للحيّز وللأشخاص الذين يملؤونه. تطهير للمسلك الذي كان يبدو، في تلك اللحظة، عارضاً. وكأنّهم يعلمون أنّه لا معنى لصورة لثلاثة أشخاص على الشرفة، بعد ظهيرة صيف، بين الدرابزين والباب الجرّار لردهة وتحت قفص معلّق لطيور ليست هنا. وكأنّ المصوّر حدس في ذلك فأخلى المشهد أو كأنّه لسبب ما، انسحب من الإطار وابتعد لكي يصبح النقطة الوهميّة لانتباه (أو لامبالاة) يفرغ اللحظة من الوقت الذي به تسعى حركة أو يختلج نبض. كأنّهم معاً في لحظة معلّقة لزمن مضى، وهم مضوا. واحدهم إلى الجنون والآخر إلى الموت والآخر إلى السفر. وأنا أكتب.

الصورة أمامي الآن.

أقلّبها على الطاولة هنا ختم نصفي كتابته غير واضحة: استد (...) الـ (...) وتاريخ لا أذكره جيّداً.

حزيران 1973.

على الإفريز كلب وعجوزان

(إلى وديع سعادة)

أعرف لماذا لا تريد أن تشرب. لأنّك تبكي بعد الكأس الثالثة. وتخاف، مثلي، أن يأخذ الصباح أحبّتنا إلى ناحية بعيدة.

لذلك لا تقف ـ وأنت عائد في الليل ـ إذا سمعت همساً على باب الكنيسة، أيقونة السيّد تحادث الحجارة الثقيلة. بل انظر في اتّجاه الشرفة لتطمئنّ أنّ الغرفة مضاءة، وأنّك إذ تعود من طوافك الليلي أمام الواجهات وفي الشوارع المقفرة، تصحب معك أجمل المانوكانات وتخبئ زجاجة كاملة في جيب معطفك الداخليّ.

قد لا تصل إذ يحدث لك أن تضيّع عنوانك. كيف يهتدي الواحد منّا إلى بيته باليونانيّة.

إذن لا تلتفت ـ وأنت عائد في الليل ـ تعرف أنّ السنونوات كثيرة لكنها تنام في كوى القبّة والجرس يكبت رنينه الهائل حتّى الصباح. قسّ شاب يركض خلف ابنه الصغير فيما زوجته تنشر الغسيل على شرفة بيتهم. مريم العذراء، مضاءة بشمعة، تنام في الأيقونة.

لا تحدث ضجيجاً فقد يطلق عبورك الخفيف أرواح الأجراس النائمة، فتقرع وتنهض ليماسول من نومها المبكر. وتحسب أنّك وقعت في الفخّ لأنّك ترتبك ولأنّك لا تجيد اليونانيّة: «كاليماري»، «كاليماري سي» وتظنّ فتاة الحانة، أنّك تركيّ عبرت الحدود خلسة وتبتسم أو

تقلّب شفتيها المكتنزتين لتقول إنّها لا تفهم. - هل تجيد الفرنسيّة يا سيّدي - هل تجيدين الفرنسيّة يا سيّدتي. لست تركيّاً ولم أصادفهم منذ 1918. «ليبانون»، أو، كما تقولون، شيء من هذا القبيل. لا أذكر. فقط أريد علبة سكائر وبيرة «كارلسبرغ» مثلّجة، دزّينة بيض وقطعة «فتّة» من الصنف الجيّد. أوكّي.

لا تلتفت - وأنت عائد في الليل - يكون هنا ديمتري، على الإفريز في صحبة كلب وعجوزين، يراك ويشير بيده كأنّه يجد صعوبة في رفعها. وتحسبه لا يراك لشدّة احمرار عينيه. هالو. لا ضجّة، كلّ شيء نائم وديمتري يحتسي زجاجة المساء. وتعرف أنّك بعد الكأس الثالثة تبكي أو تشتم كلّ من تراه. أو تغنّي بأعلى صوتك. حسناً ديمتري، صديقي، لن أغنّي، أنا متعب وحزين لأنّ الحانات تقفل في مثل هذه الساعة.

لا تلتفت - إذا عدت - فالأشياء كلّها تستريح الآن من نظرات المارّة. والمتربّثون لا يتركون سوى الصدى البعيد ثقيلاً متفرّقاً في الأرجاء - إذا عدت - تمرّ بالكنيسة فلا توقظ ليماسول التي استراحت من بحرها الآن، ومن باصات السيّاح، ولا توقظ السكينة في كاتدرائيّة «أيانابا». لا أحد هنا. صبيان الكورس عادوا إلى قراهم، والعرائس إلى قراهن، ينامون دزّينة قرب زرائب الماعز وشخير الجدّة والعمّات.

صدّقت وجئت ولم أجد سوى سنونوة واحدة والقبة التي بجوارها شجرة. ووجدت أيضاً قليلاً من الهواء.

صدّقتُ وجئتُ وجعلتني أكره السيّاح والبحر الراكد كأنّه بركة هائلة. صدّقت وكنت كلّ ليلة أطلق صوت أرمسترونغ الذي يشبه الذبحة الصدريّة وبحّته ترتفع إلى الطوابق الأخرى. لا تغضب يا ديمتري، ماذا أقول: «هوم سيكنس» ـ أتفهم ـ وديمتري يهزّ رأسه ويربّت على كتفي مشفقاً لغرابة أطواري. كنت حماراً ولماذا تريد أن تكون حماراً مثلي. ماذا تجلب معك من أستراليا غير تسوّس الأضراس والصلع الذي تخفيه بقبّعة. والأولاد، تعطيهم لكنة وباسبورات ويعتادون على قفز الكانغورو، وماذا أيضاً؟ إذا أردت أن تبتعد اكتب رسالة لنفسك وأرسلها إلى عنوان ما. وانتظر أن تصلك.

هل تخاف مثلي بعد الكأس الثالثة. أعرف أنّه لا ينام لأنّه يعرف أنّ الموت لا يأتي إلّا على مشارف الفجر. يخاف وينام والنور مضاء. أمّا أنا فحين أخاف أترك قدمي خارج البطّانيّة وأرفعها لألتفّ بها حتّى أعلى الرقبة. لا بأس. اضحك إذا كانت عيناك لا تؤلمانك. ـ في صحّتك. إذا كنت تودّ الابتعاد. نعرف أنّك تخاف أن تشرب. وأنّك تبكي بعد الكأس الثالثة. أنت أخبرتنا، وكنت تشرب لتخفي خجلك، وكنّا نشرب لنخفي خجلنا. نخلع ثيابنا وننزل إلى البحر. من هنا تستطيع أن تصل إلى أستراليا. أو إلى المكان الذي يبعد كفاية فلا ترى إلّا بالمراسلة. آخر مرّة عملتَ في مصنع في «سيدني» لتشتري تذكرة العودة. العودة من أجل البلاد والأصدقاء. لماذا تريد أن تكون حماراً مثلي وتصدّق.

هل صادفت «الراكب» الذي غادر الباص. أو «الرجل» الذي يقعد ويفكّر في الحيوانات. هل صادفت أخوة المساء. هنا لا أحد يصادف أحداً. هنا لا أحد. المدن تنغلق والبيوت كذلك. حسّن لكنتك الإنكليزيّة لكي تعود - حين تعود - تكتب شعراً أو رسائل للأصدقاء، أو تتذكّر أوقات الجزيرة.

لا تلتفت - حين تعود - فالنظرة هنا تحيلك إلى تمثال من الملح. ولا تخف، لأنّ التماثيل لا تعطش. لأنّ التماثيل لا تقيم ولا تغادر. لأنّ التماثيل حمارة، مثلنا، تصدّق أنّ لها مكاناً خارج الجزيرة. تصدّق وتقف، مثلنا، تصدّق وتقف.

مِهنُ القَسوَة

١٩٩٣

لذكرى أبي

لذكرى دلال

«إن تكلَمتُ لم تمتنع
كآبتي
وإن سكتُّ فماذا يذهب
عنّي»؟
(سفر أيّوب: ٦، ١٦)

لا تذهبي إلى الجوار المخيف

(لذكرى دلال، أختي)

تضجرين كثيراً هناك

أعرف،

ربّما تشعرين الآن بالقيظ،

وغداً بالبرد

وثقلِ الأبوابِ الضيّقة.

هل نسيتِ سترةَ الصوف

وفرشاة الأسنان

موعد نوم الأولاد

دفاتر التلاميذ

والضحك الكثيرَ في الأمسيات

الّتي ترتجلها

ابتسامتك الغامضة؟

نادي عليّ لكي أفتحَ الباب

أم إنّكِ الآن بعيدة؟

أوصيك ألّا تذهبي إلى الجوار

الّذي أخافُه

كم أغضبُ منكِ لأنّك فعلت

قولي إنّك أسأتِ استخدامَ الوقت

ما بعدَ الظهيرة

وإنَّك ذهبتِ

أبعدَ ممَا أظنُّ

أبعدَ ممَا أعرف.

ولكن قولي هل بيتُك الآن أرحبُ؟

هل ثوبُكِ يرضيك؟

هل اشتريت الكعك المثلّجَ والشموع

وزينةَ الميلاد المبكرِ هذا العام؟

أم إنَّك وحيدة؟

هل يأتي من يفتحُ النوافذَ في الصباح

وينفضُ غبارَ الأواني والستائر

ويقول: صباح الخير؟

أم إنَك تنتظرين بصمت؟

هل أغمضت عيناً بالرقّةِ الّتي تؤنسُ

الأمسيةَ

أم إنَك الآن ساهمة؟

نادي عليّ لكي أستيقظ

أو أسمع صوتاً

قولي كيف الصباحاتُ هناك،

أودّ أن أذهبَ

لكنْ لا أعرفُ من يأخذني

ـ هل تأخذني يا سيّد؟

وحين تعتادين العتم أخبريني

إذا سيّاراتُ الأجرةِ تمرُّ بجوارِ

نومِك،

أو إذا كان الطريقُ سهلاً

لكي لا أضيع.

صباح الخير.

أين أنتِ؟

هل نهضت من الزنبق الذابل عليك،

هل كان نومك هادئاً؟

أعرف أنك ما زلت نائمة

وأنك الآن تحلمين بالأولاد

والأمسياتِ

والأثوابِ الزاهيةِ،

أغمضي عينيك واستريحي

غداً سيأتي صباحُ الخير،

هل تكونين هنا؟

أنتظرك،

في البيتِ، على الناصيةِ، أمامَ البيت

فقط اقرعي البابَ

أو نادي عليّ

نأخذُ كأساً واحدةً ونغيب

فقط اقرعي البابَ

لكي تخبريني ماذا حدثَ في غيابِك

لكي أخبرَك ماذا حدث في غيابي

لكي أراك قبل أن تذهبي

على عَجَلٍ كأنّ عمرَك هُنيهة.

اسمعي،

كوني للحظةٍ في مكانٍ واحدٍ،

توقفي مرّة عن الضحك،

لا تحبيني إذا أردت

لكن اسمعي

هل أحضرُ لك سترة الصوفِ من الخزانةِ

أو ربّما كوبَ ماءٍ

سيكارة؟ أعرف «فايسروي لايت» أو

ربّما زجاجة كونياك في عيدِ زواجِك.

لا تقولي كلاماً سأندمُ عليه

لم يعد لديك وقتٌ

دعيني أراك:

جميلةً، لكنك لستِ هنا

رقيقةً، لكنك لستِ هنا

أين أنتِ؟

قولي لكي أرسلَ لك ورداً

في الصباحِ وفي السماء،

لأن السير يتعبُني.

أنتِ وحيدةٌ الآن؟

لا تغضبي منّي،

لم أحسبْ أنّ الهواءَ قليلٌ هناك،

وأنّ نومَك يستغرقُ كلَّ هذا الوقت،

لن أطرقَ البابَ طويلاً

سأعود في وقتٍ آخَر

في يوم آخر

علّني أجدُك

لكن نامي الآن

نامي الآن

لكي لا أجدَك متعبةً في الصباح

صباحُ الخير.

حقّاً؟

أعدُك أن أنسى،

عديني أنّك، في الحجرةِ الضيّقةِ

وحدَك،

لن تخافي.

(٢٩/٩/١٩٨٨)

مهن القسوة

قربي جافٌّ وضواحي قلبي موحشة كهواءٍ صفصاف، فارحلوا إذا كان الرحيل لا يزال ممكناً. يدي الّتي أمدُّها لمصافحتكم كأعلى ما يتكسّر في أعواد الثين اليابس. شُفيتُ من حبّي لكم، وشفيتُ من اليوم الّذي يعود كلَّ يوم. لم أترك أثراً، لذلك لن تهتدوا إليّ. محوتُ، وأنا أمشي، الطريقَ، تتقدّمُ من أمامي وتتلاشى من ورائي، وخطواتي ليستْ أبقى من نزواتٍ عابرة. لم أترك أثراً. عجوزٌ تكنس خلفي الغبارَ الّذي تساقط من شعري وثيابي، عجوزٌ تعسف الهواءَ الذي زفرتُه مراراً وأنا أختنق. لن تهتدوا إليّ. وسعادتي أن أُقيم بعيداً عن عيونكم التي ترى وأفواهكم التي تتكلّم وآذانكم التي نسمع. شُفيتُ من خوفكم عليّ ومن خوفي عليكم وبثّ الآن وحدي. ارحلوا إذا كان الرحيل لا يزال ممكناً. إذا كانت مقصورةُ الصّقيع لا تزال تنتظر. وخذوا معكم معاطفكم، خذوا معكم كلَّ ما يجعل رحلتكم هيّنةً كالوسن الذي يُطبق الجفنين، كلَّ ما يجعلكم سعداءَ في المنافي الحاضنةِ تعبَكم، في البلاد التي لا يقوّضها حقدُكم عليها وحقدُكم على أنفسكم، وحقدكم لأنكم تحقدون.

قربي جافٌّ ظلّلته بشجيراتِ الطراوة. شُفيتُ من المياهِ التي جَعلَتْ عطشي يدوم، من المهاراتِ المرهقةِ للمكوثِ حيثُ أنتم وحيث أنا من دونكم، وحيث أنتم،

معي، ومن دوني، وحيث واحدنا يبحث عن الآخر حين يفتقده، في الطّريق، ويرى أنّه وحده يزرع القفر صبّاراً وقيظاً.

ارحلوا إذا كان الرّحيل لا يزال ممكناً. خذوا معكم أبيضَ الجدران ونحاسَ الأواني وصمتَ النّزهة في الرّواق. خذوا زوّارَ الضّجرِ والرّغبات الكفيفةَ وفضّةَ الضّحكِ الزّائفة. شُفيتُ من حزني وحملت معي رفاته وطمرتها بالحصى. أنكرته وجعلت المداميك فوقه. شُفيتُ من أملي الشّفاء منه، وحملته كوَرمِ الرّأس أو انتفاخِ الأجفان. شُفيتُ من حبّكم. أستطيع الآن أن أحيا. أن أجمع شملَ العزلاتِ التي بدّدتموها وأسكنتم ظلالَكم فيها. أنفاسُكم ممزوجة بالهواءِ الذي أتنشقُه ولمساتُكم تبقّع جلدي. أثبّتُ أعوادَ الخلاءِ في أبصاري وفرَكتُ الطّراوة على أعتابي بالملح، وربّيتُ غرباناً كثيرةً وجمعتُ الأسودَ من كلّ ظلال وعتم. فماذا تريدون منّي بعد؟ ارحلوا إذا كان الرحيل لا يزال ممكناً، أو عفّروا أكواخاً في الجوار، وانتظروا الوباءَ الجوّالَ في الأنحاءِ لقنوطي الذي يُضاهي وحشةَ البئر المهجورةِ أو الحصاة في أميالٍ من الكثبان.

عشتُ وما رأيتُ وما رويتُ، إنّما كان السّرابُ الذي جمَعنا وأوفدنا الواحدَ تلو الآخر إلى مهن القسوة. كان اليباسُ في أبصارنا وكان في الشّجرة والجبلِ وكان في المدنِ والبيوت، وكان اليباس في الصّحراء. كان الملحُ يُستخرجُ من عَرَقنا ودموعِنا، ومن الأشواكِ التي نُنبتها

في البِرَك والأحواضِ والينابيع. وكان واحدُنا يُشبه الآخر حين يحيا وحين يموت. ويشبه الآخر حين يسير بمفرده. تتقدّم الطّريقُ من أمامه وتتلاشى من ورائه ولا يترك أثراً لمخلّص أو ملاك.

أحببتُ. وكنتُ امرأةً تخاف ورجلاً يخاف. وما أدركتُ سبباً لخوفي سوى أنّني أحببتُ وكنت أرى الأمكنةَ تغصّ برجال ونساء أحبّوا وأقاموا كلٌّ بمفرده في ردهاتٍ واسعةٍ حيث مقاعدُ كثيرة وحقائبُ وأضواء، وحيث لا أحد. أحببتُ وكنت لا أعرف طريقَ النّجاة، وكانت طريقُ النّجاةِ بقربي فأخطأتها وأخذني القطار وحين عدت كانت يدُك وحدها وكنت وحدي وكنّا معاً، يدُك وخوفي من النّجاة.

أحببتُ وكنتُ لا أعرف حبّاً يخلّص ولكنْ حبّاً يدلّكِ إلى البحرِ ويعلّمك تنفّس القيعان. أمدُّ يدي فلا تهتدي وأرفع رأسي فلا يُغادر المياهَ وظننت جلدي حراشفَ وحسكاً وذُقتُ لُعابي ملحاً يسيل. وناديتُ فلا يطلع صوتٌ، وحسبتهم يسمعون بآذان الشّمع وحسبتهم يردّون بأفواه الصّوّان. وكانت يدُك تُهدهد جسمي وشفتاك تمتصّان حمّى الجبين. وكنت أنام وأرى أوضح ما يرى السّاهم في راحتيك. وكنت أجمع مذلّات رأسي فيثقل وأغفو وأرى جسمك يتفتّح على شجرٍ ونباتٍ وينعقدُ طراوةً لتلتئم شقوقُ اليابسة، وكنت أراكِ في غلالة من صباحاتٍ ونومٍ وفي غلالة من سهاد. وأحسب قبلَتكِ اليقظةَ وقُبلتَكِ الحلمَ، وأرغفةً تتكاثر ولا تُعدّ.

ورأيت:

جمعُ كآبةٍ يأخذك منّي وملاكُ موتٍ وتبتعدين. بكاءٌ يابس في الحلق ولا يطلع صوت. كان الموتى يزورون أحلامَك ويهتدون إليك وإذ يغادرون يتركون الصّقيع في راحتيك. كنت هنا، أنظر إليك. هنا، ألمس وجهَكِ الغائبَ خلف عينيك ونظرتك الثابتة. جمعُ كآبة يلتمّ في رأسك وتبتعدين، وكنت أحسب أنّهم ينادون عليك، وأخاف أن تنامي لشدّة ما كان نومك شاغراً وبعيداً.

ورأيت:

أطيافُ نِسيان وعابرون بقربك لا يلتفتون. وكنتُ معك وما كنتِ هنا، وما كنتِ في المكان الآخر، وحديثُك كان البكاءَ الخافت، وحديثي يأسَ الغرقى. وكنّا معاً. طيفٌ لك يتراءى نحيلاً في البعيد. وطيفٌ لي يتبعكِ. وكنّا معاً، نتلامس. فلا يستيقظ جسدانا ولا أحد ينتشل قلبينا من البئر. جمعُ كآبة هو السّراب الذي تَبِعْته وكان القفْر في راحتيك. وكنت أقف كالظلّ الذي يدور حول أعواد الظّهيرة، أسمع صوتك ويداي لا تهتديان، أسمعُ صوتك يهبّ من نفقٍ مظلم وأبكي أو أمدّ يدي فيبتعد الصّوتُ وأنهضُ كي أبقيك على خشبة نومي فلا أغرقُ، أو أعود لأجد نومي خالياً منك.

ورأيت:

وجه لك بين الوجوه الكئيبة. وكنتِ ترين في المرآة. ولا أرى ولا أعرف أين تذهبُ المرايا بالوجوه. ولا أعرف هل الوجوهُ التي تأخذها المرايا تعرفُ أن تعود، ولا

أعرف هل لنا الوجوهُ التي في المرايا.

وجهٌ ليس لعينيك، بلا مدًى، بلا ملامح. وكنتُ أخافُ. أين تذهب الوجوه التي نحبّها؟ هل تعود؟ كانت أخيلةٌ كثيرةٌ في عقدة الجبين، وأشباحٌ في النّظرة الثابتة. أبعدُ النّظراتِ، كجبل ثلجٍ، كنتُ أراها، وأحسبُ أن المسافةَ بعيدة، وأنّك تصلين بعد هنيهة، وأنّني ينبغي أن أرتّب البيتَ وأنفضَ الغبار عنه، وأنّني ينبغي أنْ أقيم الزّينة والاحتفال. وكنتِ تبتعدين. تمدّين يدَك ولا أراها، وأمدّ يدي ولا ترين. وكنّا معاً، روحُك في منفاها وروحي تبحث عن منفاك، وكنت أبكي لشدّة ما أعرف ولشدّة ما أخاف.

ورويث:

كان الصّباح ينهض معها، وتغتسل لتسود الطّراوة. تمشي فتوقظ الجدرانَ بحذائها الخشبي. كانت النّوافذ تُضاءُ إذ تضحك ويبدأ الليل. وحين تنامُ تكون الأشياء مضجرةً وشحيحةً وتكون الأشياءُ يتيمةً وقاسية. وتكون هنا كالمياه التي تُهدر في صحراء كالتماثيل، كالأعواد يابسةً في الخلاء. كان النّوم مملكتَها. يأخذني إليه ويستبقيني فأبقى وأنامُ، ولا أعرفُ أيّ حلمٍ أنا فيه. حلمُها الخفيفُ كالفراشة، حلمُها الطّريّ. وكأنّ الصّباح لا ينهض إلّا معها، ويغتسل ليكون صيفاً. أو يكتئب ليكون شتاءً. وفي الصّيف مياهٌ لا تحصى في عينيها، وفي الشتاء مائدةٌ وخبزٌ ونبيذ. وكان الصّباح لها، وكنت أنهضُ، امرأةً، في صباحِها، وكنتُ أنامُ، طفلاً، في ليلها

وكنتُ الرّجلَ الذي يخافُ ألمَ المرأةِ وشوقَ الطفل.

ورويتُ:

كان حشدٌ من موتى ونيامٍ يأخذك منّي. وأمسكُ يدَك، وتحقدين عليّ. كان سفرُك بعيداً وكنتُ الأقرب وكانوا في زينة الاحتفال يغطّون صوتي بشراشف دكناء. وكان حشدٌ. وكان جسمُكِ ضئيلاً ويداك تعومان على موجٍ وكنت أخافُ الغَرَق.

وكان حشدٌ وكنتُ وحيداً. كان حشدٌ وكنتِ وحيدة. كان حشدٌ وكنّا معاً لا نلتقي إلّا إذا بكينا، إذا صدّقنا أنّ النّوم يجعلنا ملتصقين، وأنّنا ننام ريثما ينهض الصّباح معك، فتغتسلين ويغتسل الصّباحُ، فأنهض.

كانتِ الجدرانُ ثقيلةً وتبتسمينَ فترقُّ الجدرانُ وتظلّل وتحدّث وتُؤوي. وكان الرواقُ أعرَجَ السّكينة، وتمشين فيزدانُ برقّة قدميك. وكانت الخزانةُ صارمةَ الرّفوفِ موحشة الأدراجِ وتلمسينَ فتسيلُ مروحةُ ألوانٍ وهفهفةٌ.

وكانت السّاعة لا تمضي وينثالُ وقتٌ لكلّ شيء بغبطته. وكان عصفورٌ يأتي ويعلّقُ خفّته على باب مروى، وصباحٌ يأتي ويمكثُ على زجاج النّافذة، وعطرٌ لجلدك يهبُّ خفيفاً من قمصانِ نومِك، وكانت دَعَةٌ تأتي حين تنادي.

ثمّ ناديتُ وما وجدتك. نظرت وما رأيتك. وكنت تبتعدين. جوقةُ نساءٍ وكواسر تأخذك من أطراف ثوبك. وجوقةُ رجال، طبّالين وحواة، يضخّون مطارقَ الضّجيج

في رأسك، وأطفالٌ يلحسون ملحَ دمعك ويلتذّون. وكنتِ تجمعين أطرافك بين ذراعيَ وتقاسمينني رعشةَ يديك وخوفَك. أطياف تمسك بيديك وكنتِ تمتثلين كمن يهتدي، بعد الحيرة، إلى النّجاة.

وحدّثتك عن ملائكةِ الموتى وعن جنّ الأحياء. وحدّثتكِ عن وحشةِ السّماءِ ووحشة الأرض. وقلتُ بهتاناً عن الأشياء الجميلةِ التي لا نراها. وما صدّقتِ. وكان حديثُك يأتي كأنّه من النّفق البعيد. وكأنّك ترين، كما يرى العميان، أخيلةً تتراءى وتغيب وتغمضين عينيك فلا تتلاشى وتصرخين فلا تنقشع. وكنتِ تخافين أن أحبّك فتحيين من أجلي. وأخاف أن أحبّك لأرفَع عنك قسوةَ أن نحبّ. ولم نستطع، معاً، كأس الكراهية.

ورويتُ:

لم يكن في السّرابِ جرعةُ ماء. وسرتُ إليه، كانت الرّمالُ تبتلع ساقيَ والظهيرةُ تثقبُ رأسي. وسرتُ إليه. لم أهتدِ إلى طريق الغرقى، ولم ينتشلني زورقُ النّاجين ولا رحّبتْ بي ظلال. لم يكن في الكثبان شجرةٌ واحدة وكنتُ أرى الظّلّ. وسرتُ إليه. لم أهتدِ إلى الحلم الّذي حدّثتني عنه، لكنّني رأيت الأطيافَ وقطراتِ الملحِ يابسةً على شفاهِهم. ورأيتُ الطّريقَ الذي يبدأ من أمامي ويتلاشى من ورائي ولم أرَ البيوت. لم يكن في الجدار نافذةٌ لكنّني لوّحتُ بيديّ وناديتُ وقلتُ تسمعين. وما رأيتُك لكنّني أحسستُ الهواءَ يشفُّ، وما

كنتِ بعيدة. ورأيتُ أنّك قربي لم تغادري. ورأيتُ أنّني قربَك لم أغادر. ونهضنا، على ثيابِ نومِك رملٌ وظلالٌ وملحٌ، وعلى ثيابي غبارٌ وأصدافٌ وأعشابُ بحر. كانت النافذةُ معلّقةً على الجدارِ وكان الصّباح هنا.

(٧/ ١٩٨٩)

وصف (١)

أعمارٌ متقاربة

لأثاثِ هذه الغرفة

نباتاتِها وحشراتِها

ولكنّ الضّوءَ مسنٌّ

مريض

والنّافذةُ لا تبالي.

أقفُ

لا يتبدّل شيءٌ خلفها

حياةُ الباعةِ والحوانيتِ

والبشرِ الذين يتّكئون على يومٍ

قصيرِ القامةِ

أقف بين الأعمارِ المُتقاربةِ

لأثاثِ هذه الغرفةِ

أكبرُها سنّاً لكنّها تصمتُ

بالحكمةِ التي لها

كأنّ اليومَ الذي أفرحُ به

هذرٌ لا تحفل به

وكأنّ النّافذةَ تخطئ

إذ تنوّر وحدتي عندَ الصّباح.

أعمارٌ متقاربة

للورودِ في المزهرية

تتقصفُ برغمِ الماءِ

وتستبدلُها رقّةُ الأيدي

بورودٍ فتيّة.

أقفُ

لا يتبدّلُ شيءٌ

سيقانُها تيبسُ

ويفثُّ التويجُ كأنّه طلاءُ جدار

رطب

كأنّه غبار.

أكبرُها سنّاً لكنّها تيبس

بالحكمةِ الّتي لها

كأنّ الضّوءَ الّذي يبدّد الغمامةَ في رأسي

وهمٌ تصنعُه

كأنّ النافذةَ خدعةٌ ليصدّقها من هو

مثلي

يقفُ بين الأعمارِ المتقاربة

لأثاثِ الغرفة والنّباتات

يوقظه الأرقُ

وينيمه الأرقُ

وسعادةُ الأشياءِ الضئيلة

بين الغرفةِ والرّواق.

(١/ ١١/ ١٩٨٩)

وصف (٢)

ما الّذي تراه

لو جلستَ هنا، على هذا الكرسيّ؟

لا شيءَ وأنتَ:

طاولةٌ عليها مزهرية وأوراق

كنبةٌ لم تفتقد بعد

حركةَ اليدِ والمعصمِ ومزيل الرّائحة،

نافذةٌ أخرى

شاغرةٌ،

وبابٌ.

غزالٌ معدن ملبّس بالفضّة،

منفضةٌ

وأعقابُ سكائر.

ما الّذي تراه؟

لا شيءَ وأنت:

يدان ترتبكان إذ تلامسان صقيعَ الزّجاج

وعينان تحدّقان في الأطيافِ الهاربة.

ما الّذي تراه؟

الظل الذي يستقيم على الجدار

وينكسر على العتبة

ليس أنت

ولا الزائر الذي يوقظ الرواق

بعطره

وضحكاته.

ما الّذي تراه؟

الضّوء الّذي يغمى عليه

على الكئبةِ

أم العتمُ الّذي يعلّقُ بالزوايا

لا شيءَ وأنت:

اليدُ الّتي تلوّح

والقلبُ الّذي يشيخ

على صخرةٍ

بعيدةٍ

وسطَ المياه.

أوقات الجزيرة

هذه العصافيرُ البليدة

لا تعرفُ كيف تصمتُ العصافير

وكيف تفقدُ بهجتها أوّلَ المساء

عصافيرُ تصنع أدواراً رديئةً لعصافير

تحوّمُ وتصنع جلبةً

فيما الكنيسةُ تغطّي قبّتها

بالعتمةِ الرّماديّة لنيسان

وتنام

أو أحسب أنّها تنام

لشدّة ما أتعبتها الأجراش والقداديس.

الآحادُ الطّويلة

لكي تقفَ منفرداً على الشّرفة،

وتعدَّ، كما تعدّ مروى،

الآحادَ المتبقّية لشهرِ نيسان.

في الآحاد الطّويلة

تتعلّمُ كيف تكرهُ الشّجرة السّعيدة،

الشّجرة الوحيدة

في الباحة،

أن تحبَّ الجادّةَ الّتي تمشي عليها قبلَ المغيب

لأنّها هنا،

لأنّك هنا،

وتلتقيان

ولا تعرف ماذا تفعل بالآحاد الطّويلة

غيرَ السّيرِ باتجاه المغيب.

الوجوهُ الّتي تراها

نضرةً أو

متغضّنةً أو

متعبة.

الوجوهُ الّتي تراها

باسمةً أو

غاضبةً أو

حزينة.

الوجوهُ الّتي تراها

دافئةً أو

باردةً أو

محايدة.

الأقنعةُ الّتي تراها

تأتي وتظلّ وهي تأتي

من بعيد.

سوف تحيا مِنْ بَعْدي

لحيةُ كاهن

وعينا مراهقٍ في أواخر الخمسين.

كان يحادثها طوال الليل

وكان حسن يسقيه «ديمتري»

ـ مثلهم جميعاً، قال.

وكان عبّاس يرى أنّهنّ جميلات

تقف المانوكانات

في غرفةِ الزجاجِ المضاءة

أجسادٌ ملساء وسيقانٌ حاسرة

شقراواتٌ بثيابِ النّوم

وأخرياتٌ ـ أقلّ نزقاً ـ بتنانير زاهية،

غلالات وفساتين وسوتيانات أيضاً

تتوهّم أجساماً لها قامات

واستداراتٌ حاضرة فقط

في ظنّ «ديمتري».

الجميلاتُ الواقفات في نهارٍ متأخّر

يلتفتن بعينين كبيرتين وأيدٍ كاذبة

لا يتبادلن حديثاً

لا يدخّنّ ولا يسعلْنَ ولا يبصقْنَ

واقفاتٍ

وفي الصباح لا يغادرن كما تفعل المومسات،

و «ديمتري» لا يغادر أيضاً

ينام ويحلم بجوار قنّينة «أوتيللو» فارغة،

وهنّ حين يُطفئن أضواء مقصوراتهنّ

تأتي الجلبةُ والعرباتُ

يأتي الموظّفون والبائعات

والجميلاتُ الواقفاتُ لا يأبهن للحياة

العابرة على الرّصيف.

(ليماسول/ليل١٩٨٨/٤/٢٢)

كانت تقفُ بلا انتباه

على حافَةِ الإفريز العالي وبعدها

لم يكن سوى البحر.

جسمٌ ضئيلٌ تحضنه ذراعاها

وبعدها لم يكن سوى البحر

وعابرون يواصلون نزهاتٍ موحشة

كما ينبغي أن تكون النزهات

قبل المغيب

والبحر في كلّ اتجاه.

كانت تقف بلا انتباه

والنوارس تكرّر طيرانها بين

المراكبِ الصدئةِ

في المرفأ القديم

بائعو سمكٍ

ومراكب صيد ونوتيون يشربون «الأوزو» المثلّج

عجوزان يثرثران بالإنكليزيّة

ويلتقطان بسعادة

صوراً للبحر

وصخورَ الشاطئ

والهواء.

كانت تقفُ بلا انتباه

ولا تدري إذا كانت تحزن فقط

لأنّ البحر كان هناك

في كل اتجاه.

تفكّر حين يلي نومك

صباح مشرق،

ماذا تفعل - وحيداً - بالضباحات المشرقة

سعداء ومحظوظون

ينامون لكي يستأنفوا النّهارات المشمسة

ويمتلئ نومُهم بالرّمل والموج والملح

تفكّر حين يلي نهارَك

ليلٌ ثقيل

ماذا تفعل - وحيداً - بالسّكينة الّتي

تتقاسمها أنت والطّاولة والجدران

سعداءُ ومحظوظون

حين يكتشفون في دَعةٍ

أنّ الوقت تأخذه الحديقة والشّمس،

وبائعو الفستق على الأكشاك

تفكّر حين يلي الأفكار

حزنٌ خفيف

ماذا تفعل - وحيداً - بمثل هذه السعادة؟

(ليماسول١٩٨٨/٤/٢٥)

تنهض من نوم عائم

كأنّ شيئاً من نهار البارحة

تريّث على ثيابك

وفي عينيك المغمضتين

لم يمزجك السّرير بدَعةِ

أنفاسها والرّائحةِ الرّقيقة

لجسمها النائم

كنتَ تحلم وتتحدّث

تحلم وتفكّر

تحلم وتضحك

وتواصل شيئاً ما

فيتلاشى

لكي تجدَه في الصّباح

متروكاً على الطّاولة.

تنهض من نوم عائم

كأنّ قفراً بكامله في جوفك

والمياه الّتي كنت تراها،

رائقةً وكثيرة،

كانت عطشاً

لم تأخذك يد إلى أبعد

من النّافذة

وكنت ترى الأصقاعَ والسّهوب

مأهولةً بالمنازلِ والأراجيح والوجوه

وكنتَ تحسب

أنّ أطلس النّوم يأخذك معه

إلى بلدٍ تعرفه

فبدّلته الخرافاتُ

وكنت تخاف إذ تصدّق الخرافاتِ

وكنت تمدّ يداً وحيدةً

لكي تأخذك يدُها الرّقيقة

إلى النّوم العميق

فتحلم أنّك أحببت امرأةً من أجل

يديها الرّقيقتين

تنهض من نوم كالغلالاتِ

شفيف

لا يحجب العتمة الواطئةَ

كنت تحلم وتتحدّث

تحلم وتفكر

تحلم وتبكي،

وتواصل شيئاً ما

فيتلاشى

لكي تجده في الصّباح

مهملاً على الطّاولة.

(ليماسول١٩٨٨/٤/٢٦)

كنت ترى الظّلّ يفرد

برودته على الباحة

وتستردّ الكنيسةُ خشوعَ الهواء

فيضطرب

وينسلّ ريحاً خفيفاً

عبر المناور والكوى العالية

الأشياء تعود إلى ملاذاتها الضّيّقة:

في البيوت والزوايا والحانات المقفلة أبوابها

في الخارج ظِلٌّ بمفرده

يصغي إلى همسِ الموائد والصّحون

والأحاديث الّتي تسبق النّعاس.

في الخارج ظِلٌّ بمفرده

هو شخص الليلِ

أو رحماتُه اللطيفة.

(٢٧/٤/١٩٨٨)

المصعدُ الّذي تنتظر جلبة صعوده

في المساء

يظلُّ صامتاً.

كذلك الجرسُ

والبلاطُ الضّناعيّ للرّواق الخارجيّ.

بابٌ تصفقه يدٌ غامضة

فينغلق بصخبٍ أجوف وقاطع.

غمغمات بعيدة لأشخاص

يتهامسون

كأنهم يحاذرون أن يشيع وجودهم

فيُقلقِ روحَ العمارةِ

وصمتَها.

كأنهم إذ يعودون من النّومِ المدنَّسِ

لعيشهم

يواصلون الحياة سرّاً

خلف جدرانٍ وأبوابٍ موصدة.

أطيافُ أصواتٍ

تُهوِّم في الفناء

ـ إذ تعودُ ـ

وروائحُ ممزوجة بالتّنهّد والأنفاسِ والعطورِ،

وأحياناً،

ـ حين تصغي ـ

سعالٌ خفيف ومترف

رنينُ أقراطٍ وحفيفُ تايور السّاتان

ومساءُ الخير، غائمةً وعاجلةً،

ـ إذ يلتقي طيفان

لكي لا تطولَ المصادفة.

(٢٨/٤/١٩٨٨)

الّذين يقفون في الباحة

يومئون

ويتحدثون بالعافية الّتي لهم

في صباحِ الأحد،

لا أعرفهم.

ذوو بأسٍ وجسارة

بدروعٍ من الأنس

والمحادثة

والطّعام السّاخن

وفناجين القهوةِ على الشّرفات.

الذين يقفون في الباحة

أو يعبرون

بين مقهى «أندريا»

وأوراكِ السائحات ـ

باتجاه الكنيسة،

لا أعرفهم.

ذوو بأس وجسارة

كأنّهم يُطلّون من بطاقاتِ البريد

الّذين يقفون في الباحةِ

ساهمين أو منتبهين

يستبقون الأحدَ

في ساعاتهِ الأولى

على مائدةِ الغداء

وفي الأمسيات الصَاخبة.

الّذين يقفون في الباحةِ

لا أعرفهم

ويُقيمونَ على بوّابة الصَباح،

لا أحد منهم يعرف أنّ وقتي عاجل

وأنني تأخّرت

وأستعجل الصَباح الّذي يلي

الصَباح الّذي يلي

الصَباح الّذي...

(ليماسول/ليل١٩٨٨/٥/٢)

شجرة

أيأخذنا وسن الشّجرة

إلى ظلّ خفيف

بين الماء

الّذي يرش على قيظ العتبة

وقطرات العرق البلّوري

على الشفة المكتنزة لفتاة الحانة

الظّهيرة

بثقلِ فولاذِ مهمل

على أبواب الفبارك

والكلاب، منهكة، تقيل قرب بقعٍ من الماء

إذ يتجفّفُ الماءُ

بين الحوافِ ويأسن على مهل.

البحر يُريق زرقّته في الجهة الثانية

والأشياءُ تنتصب/كأنّما/

تدخل في ظلالها/لكي تبترد قليلاً.

(ليماسول/حزيران١٩٨٨)

الألم

«لا ليس أنا، إنه غيري من يتألم،

مثل هذا الألم ما كان في طاقتي واحتمالي»

(آنا أخماتوفا)

الألم

إبرةٌ تسحب الخيط

بين التخاريم

أصابعُ تومئ

ويد تقلّدُ ظلّها

على الجدار.

لا الرّشاقة

بل الألم.

(٢٣/٥/١٩٩٠)

الألم

نحيا

في الغياب الّذي هو

مكانك.

الأبناءُ قساة

والتنفُّسُ هو أيضاً

من أشغال القسوة.

نحيا

في المكان الّذي هو

غيابك.

حجرٌ

أو ضوء

أو زنبقة

وحيدةٌ

وبيضاءُ وبيضاء

وبيضاء

وبلا قلب

(٢٤/٥/١٩٩٠)

الألم

كلام

لشدة ما لا يُقال:

قطرة دماء على طرفِ إصبع

والبعيد

في نظراتِ أو ضحكات

أو دموع.

عينا طفلةٍ خلف النافذة

ويدٌ على الصّدر،

تمسك اليدَ الأخرى

لكي لا تنيمها الوحشة

ما لا يُقال:

الألم حين تنظرُ

الألم حين تصمتُ

وتنأى

وتتركُ نظرةً عندنا،

نظرةً علينا

كأنك تمسك بأيدينا

بأطرافِ الثّياب المعلّقةِ هناك،

بدرفة الباب،

الألم حين الدّموعُ أعمقُ

من عينيك

وتأخذك،

كمياهِ جوفٍ

وتصعد

كالكلام الّذي

يرتدّ صداه

مكتوماً

وحائراً

بين الجنبات.

الألمُ حينَ يجفُّ الحلق

ولا عطش،

حين يرفُّ جفنٌ

ولا يزول الغبشُ في صورتنا

ما لا يُقال:

صورتُنا في عينين ترحلان

على مهل،

بين جدرانٍ عالية،

في نفقٍ لا يفضي من عتمة وظلال.

ظلٌّ لك ـ

أهو الألمُ صار جسماً لك؟ ـ

نراه مبتعداً

فتجمعنا الحجراتُ الّتي

هي ملاذُ غلطتنا

إذ تفشو أنوارٌ

ويلوذ الأبناءُ بأيديهم

معوقةٌ وبكماء

معوقةٌ وبكماء وباردة.

ما لا يُقال:

عينا طفلةٍ خلفَ النافذة،

ورقراقٌ في عينين راحلتين،

ليس هو الدمع

بل الحضور السائل

لوجوهٍ لنا

لقبّعةِ فرو

وكوبِ ماءٍ ودوارقَ وكنباتٍ وملابس،

لنهارٍ

يوضّبُ أمتعةَ نهار

ويمكثُ، هنيهةَ انتظار،

قبل أن يغادر.

الألم

سريرٌ

ومخدّة ريش،

دثارٌ مطرّز

وبياضٌ بلا رحمة

لملاءاتٍ شاغرةٍ وملساء،

سريرٌ

نظيفٌ ومرتّبٌ ومتروك

بجانبِ سرير.

الألم

عارٍ

على المحفّة،

والأضواء الفاحشة

لخواءٍ

أملس،

مصلتٍ

وبارد.

الأصابع،

رقيقةٌ لكنّها

رخامٌ مبتذلُ القتامة.

عارٍ

على المحفّة،

أهو أنت الّذي رأيت

أم

الرّجل الّذي أخذه الموت؟

الألم

لا التّعبُ

ولا السّعالُ

ولا روائحُ الهزالِ والنّفس الّذي

يَزفُرُ من أعماقٍ غائرة.

أن يغادر،

بيننا،

حتّى قبلَ أن ننتبه.

الألم

ما لا يُقال

إلّا

هَمساً،

لا الألم،

بل مكانه بعد أن يزول،

مكانه الَّذي له

يبقى موجعاً

لشدّة ما يزول.

(٢٥/٥/١٩٩٠)

الألم

رأيناهُ

حوذيَ العربةِ الفاخرة،

وأعطيناه

مياهاً مباركة

وقرباناً

والصّندوقَ المقفلَ

ذا الحلقات النحاسيّة،

وتبعناه

مصحوباً بفتيانِ الجوقةِ

والأبناء.

كان موكبٌ في طريقٍ

وسنونوات تشفق

ولا تحسن التّحليقَ

عالياً

عالياً

لتدلَّ على السّماء،

كانت ظهيرةٌ واطئة وظلال.

ظلُّ حوذيَ العربة

ظلُّ فتيانِ جوقةٍ

وأبناء

ظلٌ طريقٍ

وظلٌ أشواكِ طريق

وظلٌ بمفرده،

يشيرُ إلى المكان

فلا يرى الحصانُ الأعمى

ولا ترى السنونوات.

كان موكبٌ

في ظهيرةٍ واطئة

وواقفون في ظلالهم يبتردونَ

وسياجٌ وصفصافتان

وباب.

وظلٌ بمفرده،

يُلوِّح بيديه،

يَدخُل

ويُغلقُ البابَ وراءه.

الألم

الأشياء زالت

تستطيعُ الآن أن تغمض عينيك.

الآخرون،

بلى،

في الجوار

يقيلون على الكنبات أو

يسرّحون شعورهم

ويرتّبون أشياءك في الأدراج

تستطيعُ الآن أن تُغمضَ عينيك،

الأشياءُ زالت من تلقائها

سالت في الظلالِ الرائقةِ

للستائرِ وأُصُصِ النبات:

السّرخسيّات المعرّشةُ

وقزم الصّبار

والسوسنُ الّذي يُشيعُ بنفسجاتِه

بين المنور والرّواق،

من تلقائها:

كما تزولُ الأشياءُ

حينَ لا تراها

ضجراً

وبلا اكتراث.

الآخرون،

بلى،

في الجوار

يغسلون مناديلك ويصنعون حلواك،

ماءَ زهرٍ وسكّراً

وأقراصاً وزبيباً.

قمصانُك المنشّاة

وحذاؤك الملمّع

والكأسُ الوحيدةُ قبل العشاء.

تستطيع الآن أن تغمضَ عينيك

من تلقائِها

زالت الأشياءُ

أم

هو الظلام؟

[الظّلام

المديدُ

الغامرُ

المترامي

الكثيفُ

الشاسعُ

الحاضنُ

الكفيفُ

السّماويُ

الرّائعُ

المقدّسُ

والسخيف]

أم هو الظّلام المظلمُ

فَحَسب.

(٢٨/٥/١٩٩٠)

الطَريق

أهي الطَريقُ؟

جاوزوا المنحدَر

والسهلَ والشعاب

سُبُلٌ أخرى

هناك،

سهولٌ

وشعابٌ

وسرابٌ

والطَريقُ

حقاً،

أهي الطَريق؟

زنابق

زنبقةٌ

ليست في كتابِ المساكب،

رتبةُ النّبات

الّذي يسقى

في مُعجَمِ الموتى.

زنبقةٌ

هي شقيقاتُنا

اللواتي هجَرنَ البيوتَ

في صحبةِ الغرباء

زنبقةٌ

هي الغرباءُ

يقطنون مطالعَ القصصِ

والدّروب

ونعرفهم

- حين نراهم -

من خفّةِ الظّلالِ

تحوّم

- إذ لا تمسّ الطّريقَ إلّا

سهواً -

ومن العيونِ

الّتي ترى

ـ حين تنظر إلينا ـ

أبعدَ مِنّا

أبعدَ من البيوت

أبعدَ من السّماءِ الّتي تعلو

الممرّاتِ فوق البيوت.

(٥/٧/١٩٩٠)

مسرّات

(إلى نجلا)

لكِ
مثلُ أناقةِ الظّلّ
الّتي
وحدُها الأيدي
أو البنفسجاتُ ـ
أسيراتُ الإناء ـ
ترمي بها
مُهمَلةً.
قفّازُ الساتان
حقيبةُ اليد
أو المنديل
هنا وهناك
في الركنِ أو على الكنبة.
لكِ
مثلُ أناقةِ الظّلّ
الّذي
يُرخَى قبل أن
تستيقظ المسرّاتُ
لي

مثلُ أناقةِ الظّلِّ

وحده.

(٢٣ نيسان ١٩٩١)

مدائحُ الصَيف

تقولُ ابنتي:

أيّتُها السنونوةُ

حَفِظتُ مدائحَ الصَيفِ

إلّا واحداً

فتعالي إليّ

أسودُكِ مثلُ

عيني

أبيضُكِ مثلُ

قلبي

أيّتها السّنونوةُ

تعالي إليّ.

(٩ أيار ١٩٩١)

تشبيه

السروةُ أيضاً

هي

الوحشةُ

مثلما

الحصاةُ

هي الصمت.

تشبيهٌ فحسب.

(٩ أيار ١٩٩١)

صانعو السلال

حسناً أيّها الصّفصافُ

إذا كنت لا تخاطبُ إلّا الموتى

فَقُلْ للجدولِ أن يتابعَ طريقَه

وللذّوريّ أن يبرّح ظلّك الشّاكي،

حسناً أيّها الصّفصافُ

ما أخبرْتَنا منْ قَبل

أنّ الموتى هم

أهلُك

الحطّابون وصانعو السّلال.

(١٤ أيار ١٩٩١)

شرفة

(إلى يولا)

أتبصرُ شُرفةً مضاءةً؟

أيُّها الغريب

يا شقيقي،

أتسمعُ همساً

وغمغمةً

وإنصاتاً؟

أتى الغريبُ قائلاً:

يتألّمون لشدّةِ ما أحببتُهم

ولشدّةِ ما أحببتُهم نجوتُ

وما حسبتُ الألمَ نجاتي.

أتبصرُ شُرفةً مضاءةً؟

إنّها قلبي

أيُّها الغريب.

(١٤ أيار ١٩٩١)

إصغاء

منوزُ الإصغاء، هو، الزجاجُ الناصعُ، بل الطَيفُ المقيمُ في البعيد، هو العناقُ إذا كان اللقاءُ والعناق، إذا كان البعادُ والدمعُ ملحاً لهذا وذاك، هو القبلةُ على الخدِّ، أو الجبين، على الشفةِ، أو في راحة اليد، الدافئة، هو اللمسةُ بالإصبع أنملُها الرعشةُ تسري مثل التعاريق في الأملسِ الكثيف، لعتمةِ هي القلب، هي الزخامةُ الأرقُّ من سماءٍ إذا السنونواتُ أخلّتْ بها، الأنصعُ من أقحوانةِ هي القبرُ، ظننتُ منه المياهَ، وكان لي التوأمَ، ملاذَ الغرباءِ رُحّلٍ ومقيمين، أشقّاء وأغياراً في صحبةِ الملاك، هو الملاكُ الأرقُّ من قطرةٍ مَكَثتْ برداً على التويجِ على البَتلةِ، على ساقة الإعياءِ لبخُورِ مريمَ، لزنبقاتِ يوسفَ، الوحيدة، هناك، على سفحٍ قريبٍ، على شُرفةٍ مائلة.

(حزيران ١٩٩١)

مُجَرْد تَعَب

۱۹۹۳

ما قاله أبي

حكاية الرجل الّذي صار ظلاً...

«حين يتحدّث الغربيون عن (أسوار الشرق) فمن الممكن جدّاً أنهم يعنون بذلك هذا السكون المحيّر قليلاً الّذي يضفيه الظلّ (...)»

(جونيتشيرو تانيزاكي: «مديح الظلّ»)

ما كنت منذ البداية هكذا. أقصد لم يخلقني اللّه هكذا، وحيداً ومتروكاً للحيرة إذ لا أجد مَن يصحبني وأكون ظلّه. ولكن ليتني أذكر بالدقّة الّتي تتوخّون كيف جرى لي ذلك فأصبحتُ ما أنا عليه الآن، أو منذ بعض الوقت.

أجدني لا أقوى على الحركة، مقيماً سوية البلاط لا أبرح. وما يدور عليّ من مواقيت يبدّل من أحوالي وهيئتي، فلي مع تبدلات الإضاءة بين مواقيت النهار والليل قصص أعجب من أن تُروى هنا، ولا يتسع لها مصنّف كامل من تزهات بورخيس. فالصباح يجعلني منبسطاً على سوية الأرضية المُلمّعة، والظهيرة تلصقني بالأشياء العمودية الواقفة ولا تتعب، ثمّ تتدرج بيَ الحالُ إلى استطالة تُشوّه قوامي الطيفي حتى يكسرني الغروب بانعكاسه الشفقي إلى نصفين. نصف من أسفل الركبة إلى القدمين، والنصف الآخر من أسفل الركبة أيضاً إلى هامتي، فأقف بانحراف ظاهر على جدار ولا شيء يسندني، إلى أن يحل الظلام فيذيبني في كنفه كأنّني قطرات حبر أو ماء ملوّن تمتصه ممحاة غريبة لا

قوام لها. بلى، ما أخطأتم الحسبان، فما أتحدث إليكم عنه هو الظلّ الّذي صرته منذ بعض الوقت، لذلك يصعب أن يبصرني أحدكم في الليل أو في عتمة المكان. كأنني أنتمي إليه أو أصبحت ملكاً له مذ غادرني صاحبي وانتظرته طويلاً هنا ولم يعد. فقط بوسع واحدكم أن يراني في الضوء. في ضوء فاضح لا أرى منه شيئاً. وطبعاً لن أشرح لكم هنا ما تعرفونه جيّداً بأنّ الظلّ لا يَراكُم حين ترونه جيّداً لكنّه يلازم حركاتكم وسكناتكم ولا يغادركم إلّا حين تلوذون بأسرّتكم الدافئة وتحلمون. ألمعيٌّ هناك يقول: وماذا عن السير في الظلمة حيث لا ظلّ يتبعنا؟ فأقول من فم الظلال إيّاها إذا جاز لي أن أقول: يكون مَن هو مثلي فدية نجاتكم من العبور إلى الجهة الأخرى. ليتخيّل أحدكم الظلام مرآة، ولو مُعتِمة، يسير بمحاذاتها على وجه الدقّة، ويصحبه الظلّ، في الجهة الأخرى من المرآة حيث يسود الظلام، ولن يخطر ببال أحدكم الأهوال الّتي يصادفها مَن هو مثلي هناك. ولكن لندع هذا الأمر جانباً، فليس في نيّتي أن أشكو أو أن أجعل من ذاتي المعدومة رمزاً لبطولة الخوض في عالم الظلمات وإلّا لأدركني المساء قبل أن أروي على مسامعكم ما صرتُ إليه منذ بعض الوقت.

ذات يوم ألفيتني وحيداً. كان الوقت مساءً والظلمة حالكة فلا يبصر صاحبي إصبعه حتّى لو ألصقها بعينه الحاذقة. كان مستلقياً على الكَنَبَة في ثيابه المعتادة وكان يجهش في البكاء. يشرب كأساً تلو الأخرى،

ويُشعل سيكارة تلو الأخرى، ويجهش في البكاء. وكانت الظلمة قد أذابتني في كنفها وامتصّتني لكنني، في هيئتي السائلة، كنت أقعي عند قدميه لا أغادر. أشبهُ صاحبي في كلّ شيء، أقصد في ما عدا التشوّه الّذي يسبّبه لي تبذل الضوء فَيُقَزِّمُني أو يمطّني لكي أبدو دميماً. أشبه صاحبي إذاً في كلّ شيء ولكنني ما سلكت نعمة البكاء أو عرفتها من قبل. وعلى الرغم من وفائي لصاحبي ما تمكّنت يوماً من مجاراته أو إبداء التعاطف بدمعة أذرفُها حتّى ظننتُ يوماً أنني من الغلاظةِ والفظاظةِ ما يفوق الوصف. كان صاحبي يجهش في البكاء. ثمّ غادرني. سمعتُ دويّاً أو ربما جلبة ارتطام هائلة، لست أدري. وفي اليوم التالي وجدتني هنا وحدي. وفي اليوم الثالث أيضاً. وفي الأيام الّتي أعقبت ذلك إلى اليوم، بتُّ وحيداً لا قدرة لي على الحراك من مكاني. زوجة صاحبي وابنته لا تعيران انتباهاً إلى الدُّكْنةِ الطفيفة الّتي تبقّع البلاط وموضعاً واطئاً من الجدار. وذات يوم، جاءت الزوجة بالممسحة وعدّة التنظيف وحاولت أن تمسحني بكل ما أُوتِيَتْ من قوّة وعصبية ولم يُمْحَ من هيئتي شيء. فَحَسِبَتْ أنّني مجرّد بقعة من الرطوبة تسرّبت من أسفل الحائط إلى البلاط. وكفّت عن المحاولة. وأضبَحَتْ تُحاذر إذا مرّت بقربي أن يداني ظلُّها ظلّي خوفاً من بلَلِ الرطوبة وشؤمها وكم وددتُ أن يألفني ظلُّها فأصبحَ ظلّاً له علّني أجد مَن أتبعه في رَوحاته وغدواته. حتّى الابنة لم

تتعرّف إليّ وكنت دائماً في صحبة ظلّها حين يرافقها صاحبي في نزهة قصيرة في الجوار. ليس بوسعي أن أكون شبيهاً به لأنّ لا مظهر ولا هيئة له. كان وسيماً، مستقيمَ القامة إلى نحول، عصبيّ المزاج والحركة. وكنت أحاكي حركاته وسكناته ثمّ غادرني ولا أعلم إذا كان يصحبه ظلّ آخر هناك.

وأصبحت هنا بلا نفع أو قيمة حتّى وددت لو تمرّ بي سلحفاةٌ فأكون ظلّها، لو يمرّ بي كلب فأكون ظلّه، أو حصاة فأكون ظلّها. ذلك أنّي بتّ أخاف أن تمتصّني الظلمة مرّة واحدة وإلى الأبد. ماذا أفعل بالضوء الّذي يطلع كلّ صباح إنْ لم ينهض صاحبي من نومه، بجسمه كاملاً. الرأسُ والذراعان والجذعُ والساقان، لكي أتبعه فتدوسني أقدام السابلة ولا ينال منّي ألمٌ، بل أواصل زحفي الخفيف بين الحصى والنّفّح والعجلات والنّفايات، لا تعيقني أو تلوّثني، خفيفاً وقانعاً لا أعرف لسعادة الصُّحبةِ مثيلاً.

ماذا أفعل الآن إذ غادرني وانتظرت طويلاً وما عاد بَعدُ؟ كيف أقضي ملاوةَ الدهر، فلا عمر لي، في الركن وحيداً؟ ما الّذي يُبقيني على قيد الحياة؟ آسِفٌ، لا بدّ أنكم أدركتم خطأ العبارة. أقصد ما الّذي يُبقيني، على أن تكون الحياة لكم ولسواكم ولمَن يرغب أيضاً. لا تزيلني أحماضٌ ولا يُحطّمني ثقلٌ ولا يطمرني تراب. رحماك أيّها الضجر!

ما قالَه أبي عن الشجرةِ والكناريِّ والشغّال

لسببٍ أو دون سبب، ولأسبابٍ كثيرة أحقد على المارّة الذين لا أعرف أحداً منهم وأجهل ما صنعوا بي وما يصنعون في الأيام الآتية، وعلى البائع الجوّال الّذي يبدّد خيبةً أعوامه الستين بين الحواري، وعلى الكلبِ التائهِ لأنّه أسود ولأنّه الكلب الّذي تظلّله شجرة منفردة، وعلى الشجرةِ إذْ تبذلُ ظلالَها رخيصةً على الإسفلت والحُفَر ومسارب المجاري.

ولأسباب أخرى أحقِدُ على النافذةِ وأجِدني واقفاً خلف النافذةِ لا أزال.

أعرف جيّداً أنّه ليس مؤلماً على الإطلاق أن تقف خلف النافذة كما يفعل من ينتظر شيئاً، أحداً ما، أو من يدفعه الفضولُ إلى الاطمئنان مرةً ثمّ أخرى إلى أنّ الأشياءَ في الخارج ما زالت هناك وأنّه لم يَفُت بعدُ لكي يفقدها. ليس مؤلماً أن تقف هكذا وتعلم جيّداً أنّك لا تنتظر ولست فضولياً، ولست ممّن يفتنه مشرقُ الأنوار أو عليلُ الهواء. تقف هناك لأنّك ينبغي أن تفعل شيئاً. أن تفعل ما لا تتعمّده أو تقصده أو ترغب فيه، ذلك أنّك لسببٍ أو دون سبب، لا تشعر بالخيبة أو الحزن أو الألم، ولا تريد أن تكون هذه المشاعر التافهة من بين المشاغل الّتي تفسد عليك نومَك ويقظتَك. فلديك من الأسباب ما يجعلك واقفاً هناك، هَمَلاً، شيئاً بين أشياءٍ تُزفَعُ بعد وقتٍ في صناديق مُحكمة الإغلاق إلى رطوبة المخازن

أو الأقبية أو الزوايا المهملة من الأبواب الخلفية وتُترك للنسيان.

ليس مؤلماً أن تقف هناك، لا تعرف ماذا تفعل بيديك وإلى أيّ اتجاه تنظر أو في أية نقطة تحدّق. حتّى التنفّس، أقصد مشقّة التنفّس، ليست بمقدار ما رواه أبي. كان أبي على مشارف السبعين وقد اهترأت رئتاه من الرطوبة والوحشة والتدخين والخدمة العسكرية ومن التجوال منفرداً بين الغرف، كان أبي يقول وقد اهترأت رئتاه إذاً لسبب أو دون سبب، إنّه لا يتألّم إلّا حين يتنفّس، لم يقل إنّ في الأمر ما يدعو إلى التوقّف عن التنفُّس. إذ دائماً يحين الوقت الّذي تعتاد فيه الألم، حتّى إذا زالَ الألمُ أوجَعَك غيابُه. ولم يقل إنّه اعتاد الألمَ بل قال شيئاً عن وحشةِ الأماكن الشاغرة. الخزانة الكبيرة خالية إلّا من قبعة الاستراخان. المشجب إذ يعلوه الغبار. السرير الّذي زُفِعت عنه الشراشف والأغطية وبقي الفراش عارياً وحيداً. الكنبات في ردهة الجلوس متقابلة كشقيقات مُسنّات. السروةُ بمحاذاةِ الشرفةِ يُخليها الهواء. الحصاة وسط الشارع. الغرف الّتي غادرها الزائرون. أعقاب السكائر. والرائحة الّتي تمكث خفيفة في الأرجاء. وقال شيئاً عن الوردةِ الّتي تشبه الفتاةَ وعن الفتاةِ الّتي أصبحت بعيدةً وقال شيئاً عن المكان البعيدِ الّذي يُناديه ويراه في النوم ثمّ يراه في اليقظةِ وقال إنّه في عينيه. وعن أشياء أخرى لم يقل إنّها في عينيه لكنّها كانت هناك.

أعرف جيّداً، ليس مؤلماً إنّ وددت أن تكون هناك وما استطعت. فقط تقف شيئاً بين أشياء تُرفَعُ بعدَ وقت وتُحفَظُ للنسيان. وأذكر أنّه لم يقل شيئاً عن النسيان. فقط يجلس قبالة أحدنا ويحدّق في وجهه، يحدّق في عينيه، كأنّه يودّ أن يمكث هنيهة في العين الّتي رأته. وإذا مرّ به أحد أمسك بطرف كمّه. بطرف سترته حتّى إذا التفت نحوه لم يقل شيئاً بل نظر إليه. كان أبي الّذي اهترأت رئتاه من الحرقة والتدخين والتجوال بين الغرف منفرداً، يعرف أنّ النسيان حالُ مَن يقيم على الحافّة معلّقاً في الفراغ. إذا سار اتكأ إلى الجدار وإذا وقف أسندَ كفّه إلى ما يكشح الفراغ من أمامه.

ليس مؤلماً قال. ولم يَبكِ. ولم يُطلق زفرةً واحدة. كان المكان البعيد في عينيه وقال إنّ الأمرَ ليس مؤلماً. وكان لا يقوى على النوم ويخافه إذ لا يعثر في النوم على يد يمسكها أو طرف ثوب يتشبّث به. ولسببٍ أو دون سبب، ولأسبابٍ كثيرة كان يحبّ المارةَ الذين لا يعرف أحداً منهم أو يجهل ما صنعوا به وما يصنعون في الأيام الآتية. وكان يحب البائع الجوّال والكلبَ الأسود الّذي تظلّله شجرة منفردة، ويحبّ الشجرة إذ تبذل ظلالها رخيصة على الإسفلت والحفر ومسارب المجاري.

ولأسباب أخرى كان يحب النافذة وما عاد الآن واقفاً خلف النافذة.

كان يعلم أنّ الأمر ليس مؤلماً إن وَدِدتَ أن تكون

هناك. ويحبّ أن تراه عينُ مَن أحبّ وأن يمكث هنيهة في العينِ الّتي تراه.

ولا أعرف إذا كان أبي قد أحبّ الموت. ولا أذكر أنّه قال شيئاً عنه. قال أشياءَ أذكرُها عن الشجرة والكناريّ والغرفِ والشعال.

وقال وَدِدتُ أنْ أكونَ السّروة هناك.

المشاتي البعيدة

أَلِكَي تردّ لنا خيبة ما أنبتناهُ من الشوكِ في أعمارنا تُمطر الآن هملانَ مياهٍ دكناء تنسرب متمهّلة على زجاجِ النوافذ المطفأة وعلى الشرفات الخالية؟

كنت أحسب أنّ شتاءً واحداً يكفي لعمر بأكمله وأخطأتُ الحسبان إذ يُدركني الآن عَبَقٌ من برودته الموحشة.

كنت أحسب أنّ شتاءً وحيداً يكفي ولا ننساه لشدّة ما يجمعنا في عزلات، منفردين، وحيدين، لا يدرك واحدنا جدوى أن يمكث بين جدران مغلقة. والشتاء طريقة في الكلام، تشبيه فحسب، لكننا نصدّق بَرْدَه ثمّ ندرك، بعد الفوات، أنّ في داخلنا ردهات فارغة إلّا من مشقّة الانتظار.

وندرك أنّ الانتظار هو المشاتي البعيدة لجسومنا المرهقة من ثقل رغباتنا وثقل كتمانها والإنصات إليها، كأنّ ما يواصل السعي فينا تذكار الغبطة التي ما أخسَنّا عيشها آنذاك فأخلَتْ أرواحنا مرّةً وإلى الأبد.

أَلِكَي تدفعنا إلى المشاتي البعيدة تُمطر الآن بصمت فلا نسمع في عزلاتنا إلّا ما تُخلِّفه وحشةُ الأماكن من أصوات. ليس لأنّها تشبه أن تكون قرقعة أو سحّاً أو حفيفاً أو ما يترامى من روح الخلاء إذ يعود الخَلاء خافتاً مهدهداً ومُطْمَئِناً، بل لأنّها تشبه أن تكون الهمس يلامس بخارُه الحارُّ طرفَ الأذن وأعلى الرقبة، فيكون

الكلام، ولو مكتوماً نصفه، بلَلاً ودفئاً رطباً.

ونسأل بالحيرة الّتي تصنعها عينان حائرتان، ما الّذي يصنعه الشتاء لكي يجعل الأماكن بعيدة. لكي يجعل أرواحنا كالمشاتي. طرقات وشعاب ومسالك وممرّات بين حيطان متداعية وأشواك وحصى مبلّل وروائح تراب جمُدت في الهواء كبقع وهمية لا تبرح مكانها. كالمشاتي الّتي يقصدها المسنّون لكي يدرك المسنّون أنّ المشاتي هي الأمكنة الّتي لا تضجر من البقية المتبقية من أعمارٍ لهم كانت تنقضي من دون أن ينتبهوا. ويصحبون معهم القطّ المعقر والكلبَ العجوز، وبعضاً ممّا يذكّر بأعمارٍ لهم كانت تنقضي من دون أن ينتبهوا.

الصور والتبغ والمعاطف والعكّاز والحكمة الملفّقة لمن يلفّق حكايةً ويصدّق أنّها حياته الحقّة.

ذلك أنّ المشاتي ليست الأمكنة الّتي نذهب إليها ثمّ نعود، بل هي خرافة المكان الّتي تجعل الوافدين إليها خرافات تُنسج على حدة ولا تعود الحياة الّتي سبقتها تشبه ما كانت عليه.

تذكارٌ ما لم يكن.

سيرةٌ معلنةٌ لما يحدث. إنّما تجعله البقية، وهي ختامٌ، سياقاً لحياة كاملة، مسكةً لحياةٍ كلُّ شيء فيها حقيقي وله سند وقوام، سوى أنّها حياة غائبة.

شتاء واحد لأعمار كثيرة. الأحبة والأصدقاء.

شتاء واحد يتّسع للفضلات من كلّ شيء. لبطالة الروح في ساعات لا تنتهي.

ونهارات لا تنتهي.

وأمسيات لا تنتهي، ومثلها الحكاية الّتي يصدّقها المسنّون عن أعمار كانت لهم.

كان الرجل يحيا وحيداً وكان الشتاء.

إنّها مجرّد استعارة.

كان الشتاءُ وكان الرجلُ يحسب أنّه يحيا!

هي ذي الأبوابُ المُغلقةُ

«اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيّق، وأقول لكم: كثيرون يسعون أن يدخلوا، ولا يقدرون».

(لوقا، 13: 24)

حسناً لم أصدق حين قال الغريب إنّ السّروةَ شَجنُ الشجرةِ وليس الشجرة. وإنّها لا تقيم إلّا بجوار الحجرات البيضاء، هناك، وحين قال: لا ظلّ لها لأنّها ظلُّ الشجرةِ وإنّ السروةَ هتافُ الوحشةِ إذْ يمرّ بها السابلةُ ويدركون أنّها مشجب الأصداء.

أو ربّما كانت الشجرة الّتي بَرِحَتها الحياةُ ومكثت بين الحجرات الضيّقة لكي تلتمّ فيها أصداء ما يرويه الغريب عن الشجرةِ الّتي يسقيها السّروة ويقول إنّها شجنُ الشجرةِ وليس الشجرة.

والغريب أراه حين أراني ولا يكذب قولُه لأنّه شجنُ القول.

ولأنّه التّضحية.

ولأنّه صوت ما يجيبني من جنبات الوحشة بمثل صوتي.

ولأنّه غريبي أنا، ولأنّي غريبه جَعَلْنا نصدّق ما ترويه السروةُ عن الغريب لا يقيمُ في جوارٍ ولا تبصره العيون إلّا طيفاً يمرّ بالحجراتِ البيضاء هناك.

وكانت السّروةُ صحبةَ أبي حين غادرني وكانت هناك

إذ أومأ بيديه مرّة أخيرة. ولا أعلم، ولم يُخبرني أحدٌ من قبل إذا أودعَ صدى خطواتِه المتثاقلة في سكون ظلّها أو إذا علّق تعبَ أعوامه على أعوادها قبل أن يدخل إلى حجرته الضيّقة لينام.

وكانت السّروةُ لا تحرس نبعاً أو طيرَ الفضاءِ وإنّما الحشرات الزاحفة واليباس وبقع الكلس والسقيفة الّتي عَلّت فوق غمغماتٍ ومصافحة بكماء تتلقّفها الأيدي حارّةً وليست تدرك الأيدي يُتمَ المصافحةِ أو العناق، أو تكاد، أوانَ الرحيل.

وكانت السّروةُ بين جمع تستدرك الوحشةَ وتميلُ إلى الجانب الأضعف من فضاء واهنِ الزرقة معتلّ الهواء.

بين جمعٍ في يُتمها الباسقِ كأنّ الألمَ هفهفةٌ من الرقراق في عيون دامعة، كأنّه الموضع الأرحب لغفران القسوةِ إذا القسوةُ كانت رجاءً لغُفران.

كانت بين جمع تفرّق في السكون المطبق لجدران واطئة وصلبان هي تقشّف المعدن المطروق أو خشب القطران، أو الحجر الأملس.

وتدلُّ واقفةً: هي ذي الأبواب المغلقة الّتي لا تُحسنُ أن تكون أبواباً أو نوافذَ أو حتّى كوى.

فتحاتٌ للداخلين قصار القامة والأعمار، بِتُروسٍ من الأقفالِ والفولاذِ البِلا قَلْب.

وتقولُ واقفةً: هو ذا الأبيض الكاذب أسالته الصلواتُ وأيدي الحفارين على الجدران. هي ذي الطيور مكّارة التغريد ومكّارة السواد. والزنابق ذوت إذ تبذل الروائحَ

سدى وأبيضّها العاجيّ ليَبَاسِ الصيف وظمي الشتاء.

وما صدّقتُ الغريبَ إذ قالَ الغريبُ وللسّروةِ روح. وما صدّقته خوفاً أو رجاءً، إنّما خوفي أن تكونَ شجنَ الروحِ الّتي هامَتْ بين أعتابٍ وأبوابٍ طرقتها وحَسِبَتْ صمتَها ملاذَ الهائِمِ وما كانَ الصمتُ إلّا ترجيعَ الخلاء.

وللسّروةِ روحٌ ربَّما كانت جندبَ الظهيرةِ الثّرثار، أو ربَما الأُوام، أو الأرق أو دوام الانتظار بلا رجاء، أو ربّما الرجع، لست أدري، وليس يدري الغريب كيف تكون الأرواح هائمة وهي لا تشبه أن تكون بشراً أو شجراً، وقال إنّ السّروةَ شجنُ الشجرةِ وليس الشجرة ولا ظلّ لها لأنّها ظلُّ الشجرة، ولا يُحسِنُ الظلّ أن يكون روحاً. ولأنّه غريبي صدّقتُ أنّ الصدى روحي وأنّني ربّما كنتُ روحَ السّروةِ الّتي تُقيم بجوارِ الحجراتِ البيضاء هناك.

وكنتُ السّروةَ. لم أبرح مكاني. وَهَبَني الشتاءُ ربَوَةَ المُزمنَ وأيبس الصيفُ بريقَ عينيّ.

لم أبرَحْ مكاني. كنت أجمع الأصداءَ من كلّ صوبٍ ولم أعثر على نبرة الاختناق المكتوم في صوته إذا نادى عليّ. وأدركتُ أنّ الصدى فتنةُ الأحياءِ إذا نَطَقوا أرجَعَتِ القفارُ أصواتهم مجوّفةً كأنّها طُرِقَت بِفِضّةِ القِفار.

وأدركتُ أنّني السّروةُ لم أبرَح مكاني أحزُسُ مداخل الوافدين بمفردِهم، بين الجموع، ولكنْ بمفردِهم. وإذ يُغلق الباب الّذي لا يُحسنُ أن يكون باباً، أمكث هنا، لا أبرح مكاني، وإذ تلتمّ في جنباتي الأصداءُ من كلّ صوب لا أعثر فيها على الصدى المتهدّج لصوت قال لي إنّه

متعب وفي آخر العمر ولم يقل إنه يحبني. لكنني رأيتني في عينيه. وكنت غريبته وكان غريبي وصدّقنا ما ترويه السّروةُ عن الرجلِ الّذي لا يُقيم في جوارٍ ولا تبصره العيون إلّا طيفاً يمرّ بالحجرات البيضاء هناك.

وما كُنتُ الرجلَ بل شَجَن الرجلِ الّذي يقيم هناك.

أربعون صَاحِبي

لم يتبدَل شيء. أقصد أنني لم ألحظ الفَزق. فها أنا ذا. وتلك هي الأشياء الأخرى على حالها. الأثاث والجدران والصور والبراويز وساعة الحائط وعدّاد الكهرباء والنوافذ والأبواب. والرواق أيضاً. لم يتبدَل شيء ولو حدث فعلاً أمر مثل هذا لما انتبهت لشدّة ما يستغرقني التفكير في قدرة الأشياء على الثبات على حال واحدة. وأكون ربما أخطأت العبارة مرّة أخرى لو خيّل إليكم أنّ ذكر الأشياء على ما هي عليه في هذا الترتيب العادي والسخيف أمر يدعو إلى البَرَم أو التّضجُر أو الشكوى. فالحقيقةُ أنّ مثل هذه المشاعر تدخل في عداد الهوايات النبيلة لمن لديهم المتسع الأوسع من الوقت، وفي مقتبل العمر، ويقرؤون سارتر وكولن ويلسون في أوقات الفراغ، ويزاولون مهنة أو يذهبون إلى الجامعة أو يمارسون شتى أنواع الرياضة البدنية. والحقيقة أنّ مثل هؤلاء أحبّهم ولا أبخل عليهم بمشاعر الإشفاق لكنّي الآن في الأربعين، أو على مشارفها الوشيكة. ولست أدري متى أو كيف وصلت إليها. لم أنتبه ولم يتبدّل شيء. فقط أصبحت رجلاً في الأربعين وعليّ أن أصرف المزيدَ من الوقت والانتباه لأواصل التجوال بين الغرف والوقاية من الزكام وتخفيض حصّتي من السكائر إلى أربعين سيكارة في اليوم. وهذه كلّها أشياء حسنة على غرار أشياء أخرى جميلة وتدعو إلى البهجة والإقبال على العيش كما

ينبغي.

ولستُ أدري إذا كان عليّ أن أفرح أو أحزن أو لا أبالي، لأنّ الأربعين، كالأعداد الأخرى، يمكن أن يصل إليها المرء إذا أحسن العدّ على نحو ما يفعله التلاميذ في كرّاساتهم وعلى ألواح الخشب السوداء. فالأربعون مسألةٌ بسيطة ولا تدعو إلى تدابير غير معتادة كأن تسير على يديك أو تقلّد صوت الحمار والذئب والدجاجة، أو أن تغرق في التأمّل طلباً للحكمة وصفاءِ السريرة، كأنّ الأربعين عتبةٌ إلى المجهول أو خوض في معلوم محيّر. فأنا أعرف أناساً أسوياء بلغوا هذا المقدار من الأعوام وما زالوا أحياء يرزقون. حتّى إنّ واحدهم لا يجد مشقّة في الانتقال من الصالة إلى غرفةِ النوم وإن أرغمته الظروف وما يطرأ منها غادر بيته لغرض يقضيه ثمّ يعود. وعرفت من صغري كائناً بلغَ ما يفوق الأربعين بعامين أو ثلاثة وأذكر أنّه كان يضحك ويتحدّث ويحرّك يديه كالمُعافى لم يَنَل منه خطبٌ أو كراهةٌ أو عياء. وكان، لذهولي الفاغر، يحمل جسقه العتيق بزهوٍ ويُقبل على الشيءِ إقبال صِبيةٍ كأنّه لم يره من قبل، في سالف الأزمنة من أعوامه الأربعين، وهي، لعمري كثيرة تجاوز عدد أصابعِ اليدين الاثنتين والقدمين الاثنتين مضاعفاً.

لذلك حين قال صاحبي إنّ الأربعين شأنٌ تافه كالزكام، لم أنتبه وما وجدتني كئيباً ولم ينبت في موضع مني مثقالُ ذرّة من الحكمة والجلال وما

صيّرتني الأعوامُ في تصَرُّمها أكثر ممّا كنت عليه وعجبت كيف تقدر الجسوم التالفة أن تكابد نزق نفوسنا، التالفة أيضاً، كلّ هذا الوقت. إذ كنت أحسب أنّ نفسي الأمّارة بالسوء والطيش وقلّة الدراية تحتاج إلى جسمين أو أكثر لكي تصل بي إلى مثل هذه السنّ المتقدّمة، وأنّ فماً واحداً لا يكفي وقلباً واحداً لا يكفي، ورئتين اثنتين لا تكفيان، وأنّني واهمٌ بلا ريب إنْ ظَنَنتُ عظامي الهزيلة قادرة على هذا العناء. ولكي أطمئنّ ارتجلتُ فكرةً أقنعتني مفادُها أنّ الرجلَ الّذي أصبح في الأربعين، أو على مشارفها الوشيكة، رجلٌ سواي، يشبهني، على الرغم من الفروقات الواضحة، ويحمل اسمي وينام في سريري، وهو زوج زوجتي، ووالد ابنتي، وصديق أصدقائي، أي في باختصار، هو أنا كما لا أعرف كيف أكون، وله رغباتي وهواجسي وأخطائي وصداعي وثيابي، لكنّه الآن في الأربعين ولا يعرف متى أو كيف وصل وكم استغرقه الوصول، ويسأل كأنّه لم يعش يوماً، أيَسَعُ واحدنا أن يواصل التفكيرَ في هذا المشهد المملّ كلّ هذا الوقت، ولا ينتبه إلى الأمور البسيطة كأن يصبح في الأربعين، ولا يتبدّل شيء. فالأشياء تقيم على حالها، وإذا تكبّد مشقّةَ الالتفات إلى ما وراء النافذة لأدرك أنّ المارّة يواصلون سيرهم والشتاء يواصل شتاءه على جاري العادة، وليس في العالم خطب وليست النهاية، بالتأكيد، أن يصل الرجل إلى أمر بسيط كالأربعين. فالأقدار كذلك. سوى أنّ

الأربعين قَدَرٌ آخر لرجل آخر، لا أقصد أنّه أسوأ حالاً أو أفضل حالاً، لكنّه في الحالين يشبه الّذي كُنْتَه من قبل، تعرفه جيّداً وتجهل عنه كلّ شيء. ولكن يحدث أحياناً أن تصادف رجلاً في الأربعين (ولِمَ لا؟) أو تذكر أنّك صادفته، ذات يوم، ولم يتبدّل شيء. قضاء وقَدَر ومكتوب كالأشياء الأخرى ولا حيلة لك. ركام من الأعوام في ركام من العظام، ولا يعود الوقت ينقضي. إذ أصبحت تجيد العدّ كالتلاميذ، بعد الأربعين، تصبح الأمور أبسط وأقلّ تعقيداً. واحد وأربعون، اثنان وأربعون، ثلاثة وأربعون، وهكذا دواليك... ثمّ أسِف، عرفته قبل أن يفارق الحياة، كان رجلاً في الأربعين، أو على مشارفها الوشيكة، كان هادئاً ورصيناً كما ينبغي أن يكون، ثمّ تبدّل كلّ شيء. كان صاحبي.

ويوسف لم يكن اسمي

[«قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف
وألقوه في غيابت الجبّ
يلتقطه بعض السيّارة، إن كنتم فاعلين»
«قال إني ليحزنني أن تذهبوا به،
وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون»]

(سورة يوسف 10 / 13)

أوْمأتْ للسرابِ شجيراتٌ هيِ الظّلال الناحلة، خليلة البئر الّتي جفّ ماؤها. بئر الأوام لا يترد؛ ليست هي البئرُ بل الحفرةُ لا جدوى منها. جنباتٌ للرّجْع إذا هوّتِ الأحجارُ في غمقها الشاغرِ وإذا دوّت الأصواتُ لا تنادي أحداً.

أومأتْ للسراب شجيراتٌ وغربانٌ تظمأ ولا تعثرُ على المياهِ إلّا تذكاراً وروائح تراب مبتلٍّ وماضي الطراوة. كانت خضرة الشجيرات تعتلّ واقفة في نسائم اليبَاس، ونعيق الغراب يرسب في القعر دُكنةً للطينِ والطينُ ليس تراباً وليس ماءً، بل الماء الّذي ترمّد بنذرة الهواءِ واجتمعَ في القعر لا يُحسِنُ التماوجَ والفسيل.

أومأتْ للسراب أذرعُ السابلةِ والأفواه الّتي أبكمها التحريقُ علّ السرابَ يسكب بردَه الموهومَ ماءً، أو علّه يذيب أكوامَ الملحِ الّذي تجمّع فوق الجنباتِ وأيبس الجوفَ واعتلّه. ألم يصادف طائرُ الشوكِ عوسجةً بالقرب منها وكان خبْئها مزّاً كمزّ الوحشة في الأعالي

ومرّ الأعواد الّتي تُنبِث الظهيرةُ ظلالّها المستوحدةَ بين كُثبان. وأخبرني طائرُ الشوكِ والقُنفذُ ورَتْلٌ من زواحفِ البرِّ أنَّ البئرَ الّتي جفّ ماؤها تَفسُدُ أنفاسها، وإذ تَفسُدُ الأنفاس يُصبحُ التنفس احتضاراً، لكنَّ احتضار البئر لا ينتهي. فلم يشهد الذئبُ، ذئبُ البوادي، ولم تشهد الهامةُ المعمّرةُ بئراً تموتُ إذا جفّ ماؤها. لا تعود البئر بئراً بل أعمق من الوهدِ وأبعد غوراً من جُخرِ الخُلد وأشدّ غموضاً ممّا تكتمه السريرةُ إذا اعتلّت بأشواقٍ وفقدان. وقال طائرُ الشوكِ لم أعثُرْ على شوكةٍ تضاهي البئرَ الناضبةَ المياه قسوةً في القَلْب. إذا أنهكني التحليقُ دَرَجتُ في الوعر حتّى أصادف عوداً وإذا جَثَمتُ عليه حَاذَرتُ شعابَه المرؤسةَ وتَقَذتُ حبّه المرّ. فالمرُّ أهون من عطش المسافة، وأرخيت تعبي في غفوة مستطيرة حتّى المساء. وقال الطائر وما جاورت بئراً إلّا كان النعاسُ في جفوة منّي إذ تستيقظُ روحُ البئر في المَساء وتضطرب. تكون الشجيرات نياماً والغربان معلّقة كبلّور أسود فوق أغصانها الهزيلة، فترتفع أنفاسُ الجوفِ، لا تُغوِلُ أو تئنّ لكنها تقلّد حداءً كأنّه يتناهى من البُعد. وربّما سمعتُ إنْ أحسنتُ الإصغاء مطرقاً، غمغمةَ الطين الراكدِ في القعر، وطيف المياه الّتي نضبت وصارت هي الجفاف المُقيم. وقال طائرُ الشوك: ما الّذي يَصّاعد كالأبخرة من الحفرةِ الّتي كانت بئراً، إنْ لم يكن مَزّاجُ اللوعةِ والظمأ الأشدّ؟ وقال: تزعم الهامةُ المعمّرةُ، وهي طيرُ الموتى، أنَّ ما يجتمع في الجوفِ الساكنِ بين

الجنباتِ إنّما هو الأمنياتُ الدفينة لرجال قصار القامة والعمر، فتظمأ المياه ويشتدّ الظمأ لِذاتِها حتّى تحيلها النجوى رماداً فترسُبُ وما عادت مياهاً، ويحسب السابلةُ والغربانُ أنّ البئرَ نَضَبَت. وما لا يدركه السابلة أنّ الأمنيات الدفينة كمياه الجوف ليست مياهاً بل فكرة المياه. والراحلون، قصار القامة، والأعمار، يجمعون ما تبقّى وقد أحالها الرحيل تراباً كمثل ما تستحيل الجسومُ تراباً لكنّه التراب الأخفّ من الطّلْع، والأخفّ من الهواء، فلا يمازج الطينَ ولا يُسلِمُ بدَدَه لحيلةِ الشمسِ والفضاء، بل يستكين إلى الجوف رَطْباً وقد تُحيل الفترةُ من الأعوام الماضية إلى غُبارٍ، إلى حباحب، إلى بيت عنكبوت، هي مباهجُ الظلمةِ الّتي تكتنف كلّ جوفٍ وزينتُها.

وأَوْمَأْتُ للسرابِ يَدي ليس لأني أصدّق السراب، أو لأنّ الّذي بي كان عطشاً، بل كان الرغبة في أن أحرك الجفوةَ بين لألاءِ السّراب وظُلمةِ البئر. وحسبتُ أنّ السرابَ ليس ماءً كاذباً بل الماءُ الّذي استبدلته البئرُ بأمنيات الموتى صار ماضيها البعيد. فلا يصحُّ الماءُ الكاذبُ لابترادٍ وليس في البئر إلّا ترداد الصدى. وما عدتُ أصدّق أنّ في البئر ماءً بل الظلمة الّتي تلقّفت جسومَ الذين رَمَت بهم تَصاريفُ القنوطِ أو الحبّ أو الجنون إلى رحابها، حيث يلاقي الطّيف شقيقاً هو الطيفُ أيضاً، وتمازج الأنفاس حداءً كأنّه هو البئرُ الّتي في داخل كلّ واحدٍ منّا. لا يغمضُ جفناً إلّا انتابه

الإحساسُ بأنَّه سقط في البئر العميقة. لا يصيبه الدوار إلَّا لأنَّ البئر ماثلة في عينيه العميقتين.

فأومأتُ للسراب وأعلم أنَّ ماء السّراب كاذبٌ، وحملت البئرَ الّتي جفَّ ماؤها في داخلي وكنت كلَّما أحببت أحداً أقع فيها. ويوسف لم يكن اسمي.

أيْنا، يا أيُها الطيفُ، يَحيا؟

«فإنَّ رؤية الشيء نفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمرٍ آخر يكون له كالمرآة»

(ابن عربي: «فصوص الحكم»)

أيّنا، أيُها الطيف، شقيق غربتك؟ إنّي أبصر مَن يشبهني سائراً بين وحشة الحصاة ويُتمِها، وأبصرهُ مقيماً في الضوءِ الماصِلِ بين أشجانِ المقيمين هنا دون رَجاء.

الخُفاةُ جعلوا الطريقَ إليك متاهاً والحزانى أنفقوا الصلواتِ وما قرَّب الدعاءَ إلينا منك إلّا الاشتياق.

رأيتُني بين يديك ورأيتني منفيّاً عنك ورأيتني بيني وبينك بحرٌ ولَمَسَتْ يدي ثَنيات ثوبِك. ثمَ رأيتني بعيداً وهالةٌ منك تصْحَبُني، ثمَ رأيتني بعيداً ولا شيءَ منك يصحبني فأدركتُ أنّي في حلمٍ لا صحوةَ منه إلّا الحلم. وقلتُ: أيُها الطيفُ، أسلك طريقاً أنارها العابرون بلَهَفِ أبصارهم وأوْدَعَتْها القِفارُ وحشةَ أسرارها، ومشيت وما خاطبت أحداً إلا أشار عليّ بالمشير حتى انهكني المسير فلاقتني ظلال ليس ها شجر ولا تدري بم تورف، لكنّها ظلّلتني بثقلِ الغفوة إذ أطبقت الغفوةُ على عينيَ فرأيتني بيني وبينك جبلٌ ومنحدرٌ وسهلٌ وشعاب، ورأيتُني بين يديك ومنفيّاً عنك ولَمَسَتْ يَدي ثَنِيّات ثوبك فأدركتُ أنّي في الحلم الّذي أسلَمني إلى حلم لا يقظةَ منه وإنّما الحلمُ الّذي يليه. وقلتُ: أيُها الطيف،

أسلكُ شعابَ الجبلِ والمُنحَدَر وإذا لاحَتْ طريقٌ أوْدَعتُها رجائي، ومشيتُ ولم أعثر على الهواءِ في أعلى الجبلِ ولم أعثر على الينبوع في أسفلِ المنحدر بل تراءت لي الوحشةُ في هيئةِ الشوكِ وترامى الوعرُ كالمفازات لا تحدُّها العينُ أو جناحُ الطير. فأسلمت جسمي للتعب يُحسن وفادتي كالبيتِ وليست له جدران وليسَ له سقفٌ وبابٌ ونافذة. وغفوتُ ورأيتني بين يديك، على مقربةٍ منك ومنفياً عنك، ولَمَسَتْ يدي ثنيّات ثوبك وأدرَكَتني الطراوةُ، أعرف أنّها ليست في شيءٍ إنّما يَجدها النائمُ واقفةً في الحلمِ الّذي أسلمني إلى حلمٍ لا صحوةَ منه إلّا إذا تلمّسَتْ يداكَ البابَ الّذي منه أدخلَك الطيفُ وأضلَّك، وقال لا تبحث عني لئلا تجدني، وما وجدني العابرون إلّا في حلمٍ لا يقظة منه لأنّه ليس حلم النوم بل حلم اليقظة، ولا ينهض اليقظانُ من نومٍ ولا ينهض النائمُ من موت. وليس إلّا النسيان.

قلتُ: أيّها الطيف، أيُّنا يحيا؟ إنّي أبصرُ مَن يُشبهني في الحلمِ الّذي يُبصرني فيه. أراني ضَلَلْتُ الطريقَ تُسلِمُني الشعابُ إلى شعابٍ، وأراهُ ضلَّ الطريقَ تسلمهُ الشعابُ إلى شعاب. وما ظننتُه العيشَ كان حلماً أبصرته، وما ظنَّه العيشَ كان حلماً أبصَره. أبصرناه معاً، الحلمَ الّذي ما كنتُ فيه وكان عيشي، والحلمُ الّذي ما كان فيه وكان عيشه. وحسبنا، معاً، أنّ الآخر منّا يحيا، وأنّ الآخر منّا أضلَّه الطيفُ إذ أدخله إلى الحلمِ الّذي لا يقظةَ منه إلّا الحلم الّذي يليه.

فأيْنا، أيُها الطيف، شقيقُ غربتك؟

الحفاةُ جعلوا الطريق إليك متاهاً، والحمَالون أنفقوا الحياةَ سعياً وراء الحلم الّذي يُفضي بهم إليك.

والأحياءُ، أشقّاءُ لنا، حلموا ذات يوم أنّهم يحييون وصدّقوا. وما زالوا، أيّها الطيف، يُصدّقون.

«ومثلما يَفْنى تَفْنى الحسراتُ
هلّا نعلمُ يقيناً أنّ الميتَ كانَ
ـ ذات يومٍ ـ أحداً».

(جو بوسكيه)

ما حِكْمةُ الأشياءِ في أن لا تبرح عينيك؟ رَمَدٌ ربيعيٌ لا يزولُ إنْ أغمضتهما، يَعْلَقُ في الأجفان، في بواطنها المحمرّة، المجهدة، إن أغمضتهما تُبصر الجانبَ المعتمَ منكَ. الظلمةُ الّتي في داخلك تُنسَكبُ كمياهِ جوفٍ دكناء.

وما حكمة العينين في أن تبصرا الأخيلة مترامية في المدى الشبحيّ لصباح متراخٍ، سائلٍ على الجدران والنوافذ؟ عادةُ العينين أن تبصرا كما الأقدامُ أن تسير والقلبُ أن ينبض، وعادة اليدين أن ترتبكا وتبحثا عمّا تفعلانه استدراكاً لفراغ الوقتِ، لبطالة الأشياء.

كلُّ الأشياء الّتي تبصرها تنال منها شيخوخة مبكرة، أمّا الأشياء الّتي تبصرها وتظلّ فتيةً في عينيك، وفي تمام صبوتها وصباها، فهي الأشياء الّتي تراها وأنت مَيت. حين لا تهرم الأشياءُ الّتي تراها فهذا يعني أنّك ميت وأنّها، الأشياء، تحيا في الصورة العالقة في عينيك. عينان مغمضتان كأنّ منهما تنسكب الظلمةُ إلى داخلك ومعها الأشياء، ولا سبيل لأن تمحوَ الأشياءَ دون أن تمحوَ الظلمةَ، ولكن كيف السبيل إلى مَحْوِ الظلمةِ إذا

كانت العينان مغمضتين؟

ما حكمةُ أن تبصر إذاً؟ الضوءُ ليس أكثر من مكيدة. حيلةُ الظلام الّذي بها يبصر الأشياء على حدة، بمعزل عنه، وهو يكتنف جنباتها ويمتزج بها ويُخالط جسومها الطيفية البائسة. وما حكمة هذا الإصرار العنيد على رؤية ما يجعلك تتألّم، ما يعذّب روحك إلى آخر ما يطيقه الألمُ منك، كأنك تقف على الموج ولا تريد الغرق، كأنّك تمسّ النار وتخشى تحريقها ولشدّة ما تخيفك الهاوية تسقط فيها.

أشياءُ كثيرة لا تدرك الحكمةَ منها وتقعُ فيها كما تقع في الخطيئة وتعلم أنّك هنا ولا مخلّص في الجوار القريب أو الجوار الأبعد. كأن تحبّ وتصدّق أنّك شُفيت من الموتِ، وأنّك شُفيتَ من الفُقدان، ومن البئرِ الّتي في داخِلك ولشدّة ما تطمئنّ إلى البئر الّتي في داخلك تعتاد أن تكون وحدك، معهم، في الجوار الّذي لهم، بينهم، لكنّك وحدك إذ تغمض عينيك فتنسكب الظلمةُ في جوفك كأنّها دَعةُ أن تعود الأشياءُ إلى جواهرها البسيطةِ وهي ليست تراباً ولا ماءً ولا هواء. سكينةُ الطين الراكدِ لا تَقبل الحياةُ ولو على هيئةِ الطحالب والأشنات. سكينةُ السكون: دعَةُ الصَّفتِ إذا كان الصمتُ الأعمق، الأبعد غوراً، المحيط، الّذي لا آخر لاتساعه. كأنّ تحبّ وتصدق أنّك شُفيتَ مما لا شفاء منه: رجاؤك أن تزول الأشياء من تلقائها، وأنت معها، أن تُذيبها الظلمةُ الّتي، ما إن تغمض عينيك، تنسكب في داخلك وتملأ

جوفك بالأطيافِ الرقيقةِ المُرهفةِ لأشياء كانت قبل أن تزول من تلقائِها.

وما حكمةُ أن تحبّ الأشياءَ الّتي تزول وليس في الأشياء حكمة إلّا زوالها؟ لكي يشفيك التوهم من رغبة الشفاء. إذ ليس في أعراضِ ما أنتَ فيه مما يُصدّق إلّا بالتوهّم. تجعل الابتسامةَ احتمالاً للإجابة وتقلّدها. ترى السابلةَ يسيرون وتجعل من السير احتمالاً (ولا وجهة لك أو مقصداً) وتقلّده. ترى الغبطةَ في عيني ابنتك الجميلتين وتقلّد الغبطةَ بعينيك الكابيتين وتصدّق أنّك شُفيت. ولولا الشفاء الّذي صدّقته ما بَلغتَ أربعينك التافهةَ كنُصبِ كَلْب أو جرادة. وفي الأربعين رجاؤك أن تزول الأشياءُ من تلقائها، ومن دون ألمٍ منك أو انتباه. كأن تودّع، عند العتبة، آخر الزوّار في ساعة متقدّمة من الليل أو تتواعدا على لقاء قريب تحدس، دون سبب، أنّ اللقاء لن يكون، ليس لأنّك لا ترغب أو لأنّ لديك من المشاغل ما يجعله مستحيلاً، بل لأنّك تعلم أنّ الأشياء قد لا تحدث، هكذا دون سبب، ولأنّ الوعدَ باللقاءِ من أوهام الشفاءِ الّتي صدّقتها حتّى بلغت أربعينك التافهة كنصب كلبٍ أو جرادة، وأنّك الآن في أربعينك التافهة، قد شُفيتَ من هذا الشفاءِ وأصبحت تدرك أنّ الأمور قد لا تحدث، هكذا دون سببٍ أو لأسباب كثيرة، ولا تُبالي إذ تغمض عينيك فتنسكب الظلمةُ في جوفك كسائلٍ من المَعدِن يَمنحكَ الثّقلَ الّذي يجعلك هنا، في الجوارِ القريب أو البعيد، معهم أو بينهم، أنت وحدك، علّك من

غير قصد منك أو منهم، إذ تغمض عينيك، تزول كما تزول الأشياء من تلقائها لكي لا تهرم الأشياءُ في عيون الأحياء ولكي لا تمكث على صبوتها في عيون الموتى. بلا ألمٍ. كأنَّها تعود إلى جواهرها البسيطة: الحصاة إلى دعة الصمت. الشجرة إلى وحشة الظلال. العراء إلى شجن بسيط. الباب إلى عزلة أكيدة. والكنبة والمشجب والخزانة والسرير إلى فقدانٍ كالهمس يتردّد على مسامع الجدران.

ما حكمةُ أن تفقد الأشياءَ دوماً؟ لأنَّ الأشياء تعثر عليك بالمصادفة وتفقدك دون انتباه. كلّها، الأشياء، هنا. وأنت؟

لَسْتُ الآن. لَسْتُ هنا.

لا غايةَ لي، أسيرُ وحَسب

«ما كان ليس شيئاً. تَذكاره أن لا تراه.
اعبُر أيُّها الطين، اعبُر وعلِّمني كيف يَسَعني
العبور».

(فرناندو بِسّوا)

ما الّذي يقودني إليه؟ كان بيتي. وأسير كالأعمى الّذي يتبع ضوءاً ليس أمامه وليس وراءه، لكنّه ذكنةُ أبصارِه المُطفَأة.

ما الّذي يدعوني إلى سيرٍ عجولٍ في السكينةِ المُعتمة لمدينة كنتُ أحسبُ أنّني أعرفُها، وكلّما مشيتُ، عابراً هواءَها الباردَ بيقظتي النحيلة، أدركتُ أنّني الغريبُ بين غرباء، حيث لا نوافذ تُضاء، ولا خبزاً أو نبيذاً يدعو الغريب إلى إلفِ الداخل؟

لَمْ أدرك حين تبعثُ نجواه الهاتفة أنّ هذه خدعة الليل الّذي، إذ يراني، يتظاهر بالسوادِ وهدأةِ الرَّغَدِ الخلوِّ من أيِّ حياة. والليلُ كلُّه مُصطنع. كأنّ غرباء جاؤوا من مكانٍ لا يعرفه أحدٌ وبسطوا ملاءة كالحةً بلا ثقوب فوق العمارات والطرق الملتوية الّتي تحاذي مضطرب البحر وصخوره وأنفاس النائمين، هانئةً، منتظمةً، رتيبةً كما في المصحّات والمشافي.

لم أدرك ذلك، لكنّ الفتنة في الليل المتباهي بسواده قادت خطواتي إلى أبعد مما أستطيع أو أدرك أو أطيق.

ودون أن أنتبه مررتُ بها كما يمرّ طيفٌ بجوار الساهرين وقوفاً على القارعة، فلا ينتبه الساهرون ولا ينتبه الطيفُ، ويقول العجائزُ منهم إذ يهبُ نَسَمُ عبورِه، إنّه ملاكٌ ضالّ. ويواصلون الأحاديث كأنّ هبوط الملاكِ عَرَضٌ ألفوا حدثانه مذ أدركوا أنّ الموت وشيكٌ وأنّ ما يفعلونه في الأثناءِ ليس أكثر من خدعةِ الحياة في أن تتظاهر بأنّ ما تبقّى منها هو الحياةُ أيضاً.

وكنت أنا نفسي العابرُ، جَعَلتني الظلمةُ طيفاً، وما تبدّل شيءٌ فيّ سوى أنّي كنت في العشرين وحجارةُ المبنى المتداعي أسنُّ منّي بمثيلاتها العشرين حيث لم أولد بعدُ.

كنتُ أعبر من هناك في الطريق الّتي أحالها الليلُ ليلاً مثله، وكنتُ في الآن معاً، أقبلُ من خَلْفِ الأجَمَة، لا أعرفُ إذا كانت حجارة تكوّمت هناك بفعل الانهيار أم إنه دغلٌ أنبته ضَجرُ الترابِ في النهاراتِ القطيرةِ، ولا أعرفُ إذا كان سوايَ لا يزال خلفَ الأجمة.

كنت أعبرُ، يتراءى الردمُ مقترباً، وكنت مقبلاً يتراءى الطيفُ مقترباً على الطريق الّتي أحالها الليلُ ليلاً مثله، وكنتُ في الأربعين حين دعاني شيءٌ لا أدركه إلى المسير، وكنت في العشرين بَعدُ، بلحيتي النابتةِ وجسمي النحيل وعينيّ المتعبتين وقلبي المُعتم كجوفٍ مغلق بإحكام. ولم ينتبه الساهرون هناك على القارعة، وربّما قال بعض العجائز إذ يهبّ الشّجَنُ في من عبوري الفتيّ في الجوار، إنّه تذكارُ الموتى لا تراه لكنّه يخالط

الهواءَ الراكدَ فيضطربُ هينهاتٍ ثمّ يرسبُ سويّةَ الأرض وتكون الدّعةُ المستعادة في خدعةِ الحياةِ الّتي تسمّيها بقيّةً ورجاءَ مَن ينتظرون على العتبة أن تكون البقيّةُ تُشبهُ الحياة.

أقبَلَتْ عليّ فيما أسيرُ في اتجاهي، جَاوَزَتْني وجَاوَزتْني والتفتُ بعينيّ المتعبتين وقلبي المعتم وما التفت بوَهَنِ أربعيني المؤرّقة. ورأيتُني من الخلفِ محنيّ الظهر قليلاً لا ألتفتُ كأنّ الطريقَ تأخذني إلى الليل الّذي صارَت ليلاً مثله فما عادت تُفضي، لكنّها، في الليلِ، تدعوني إلى المسيرِ في الجوار الّذي أرى فيه الأنقاضَ لا تزال، وأراني مُقبلاً من خلفِ الأجَمةِ لا أُبالي بالغريبِ الّذي أكونُه ولا ألتفتُ، لكنّي ألتفتُ بعينيّ المتعبتين وقلبيَ المعتمِ، وأسعفُني أقول: «عِم مساءً أيُّها الطيف، عمْ مساءً أيّها الغريبُ الّذي صِرْتُه. عمي مساءً أيّتها الأنقاضُ الّتي ليستْ من حجارةٍ وركامٍ، بل الأعوام الّتي قاسَمَني إيّاها أبي كالخُبزِ وكنتُ في العشرين وكانتِ الأنقاضُ أسنَّ منّي بمثيلاتها العشرين، وأشدّ حكمة ولا تُبالي الأنقاضُ بالغريبِ الّذي صِرْتُه. ورأيتُني متربَ الوجهِ، مترمّدَ اللّحيةِ القليلةِ بالسُّترةِ الخاكي والمرّ المقيم في فَمي، طعم نبيذ وتبغ وسقام لا أبرأ منه ويجعلني أحيا بالبقيّة الّتي هي ما تتظاهر به الحياةُ، ويقول العجائزُ إنّها انتظار غيرُ محسوب، ليس مشوباً بالغبطة الفائقة ولا الشقاء الفائق. انتظارٌ فحسب. الأشياءُ كلُّها ترتضي بأن تكون برفقة ذاتها لا

أكثر، ومثلها أرتضي أن أكون برفقة ذاتي. فما كان ليس شيئاً. وما يكون ليس شيئاً، سوى أني أنهض لأغادر الحلمَ وأقيم في المكان الّذي في الحلمِ ولا أتعرّفه ولا يتعرّفني كالأنقاض الّتي أنبتَها ضجرُ الترابِ شوكاً، ولا أعرف، إذْ أعبرُ في الجوار، إذا كانت الأنقاضُ أنقاضاً أم إنّها بيتي الّذي فيه ما أزال بلحيتي القليلة وعينيَ المتعبتين والمرّ الّذي في فمي طعم نبيذ وتبغ وسقام لا يَبرح.

لستُ أدري ما الذي يقودني إليه؟

ثمّة ما يدعوني، في البعيد، إلى سيرٍ عجول. ولا غاية لي.

أنهضُ ثمّ أسيرُ وحسب.

أحوالُ التُّراب

على الكرسيّ في ثيابِ البارِحة

حين أدركني النهار، غبَطتْه المستعارة وكان نظيفاً ومغسولاً بالمطرِ والأضواء، كنتُ لا أزالُ هنا. على الكرسي، عند زاويةِ الحائط الّتي لم أغادرها. في ثيابِ البارحة. لحيةٌ نابتة ونَفَسٌ مُبنّج وعينان تحدّقان كأنهما من زجاج معتكرٍ لا تبصران. الظلالُ الّتي كانت بقربي تلاشت، فالأشياءُ إذ يُفرغُها الظلامُ من رسومِها المستضاءةِ تُشعى خفيفةً كالأخيلةِ المستريبةِ تُغبرُ مغفلةً على صفحةِ جدارٍ أو وراءَ ستار مُسدَل. كنتُ لا أزال هنا، ساكناً بلا حراك، باردَ الجبين خاويَ الصدر مسبلَ الأطراف. بَلى، روى المقرّبون أنني كنتُ ميتاً وحين أدركني النهارُ مَكَثتْ أضواؤه الحاذقةُ على مقربةٍ من قدمي، على بُعدِ سنتيمترات قليلة، قبل أن تعثر عليّ. بلى كنت ميتاً. أو في الأقلّ كلُّ موضع منّي كان ميتاً ولم ينتبه أحدٌ إلى نظرتي الكابية المثلّجة، وإلى ساعديَّ المرخيين أسفلَ القفَص الصدريَ فيما تشتبك أصابعُ الكفَّين مُتصلّبة. الساقان ممدودتان والحذاءُ ملمّع على جاري العادة. الآن، لا أذكر شيئاً. وبالطبع زال عنّي الصداعُ ولا أشعرُ بالألم. أبسَطُ ما يوصفُ به الموتُ أنّه الحياة بلا ألم. أنّه الحياة بلا حياة. أو الشيء من قبيل ذلك. إنّها مجرّد استعارة أستعين بها الآن على غيبتي لوصفِ ما لا أدركه تماماً. بلى أسمعُ الجلبةَ من حولي. ومع الضوءِ يتدفّقُ سيلٌ مضطربٌ من الصراخ عبر النافذة. أرى الجدار جداراً، الطاولةَ طاولةً، وأراني مثلها

كما أنا. المشهدُ إيّاه لا يتبدّل. وما يقلقني في كلّ هذا: ثباتُ البرودةِ في أوصالي. لا أشعرُ بالبرد، لا أقصد ذلك، فالبرودةُ هي الحال الّتي أُقيم فيها لا أبرح! ما عدا ذلك لا شيء يدعوني إلى الخوف أو الرهبة. اعتدت الأشياء كما هي وأدركت أنّ الأمر لا يستحقّ عناءَ الإشفاق والأسى. بلى كنت ميتاً منذ البداية، وروى المقرّبون أنّ ما حدث كان جميلاً غير مؤثر ولا يستدعي الإنشاد المطوّل. لم أغادر أحداً، إذ ينبغي أن أقول أن لا أحدَ لي. كنت هنا منفرداً ومكثتُ ما شئتُ ثمّ رحلت. أقصد بمفردي كنت هنا ومكثت ما شئت لم يدركني النهار وكنت ميتاً كما روى المقرّبون، جميلاً كالموتى الذين لا نراهم. فقط 65 كيلوغراماً، أقل أو أكثر، ما عدت أدري، من البطالةِ المكدّسةِ، من الألمِ، من الضّجَر الثقيل.

ثمّ أيقظني ملاكٌ. كنت ميتاً هنا وأيقظني في منتصف كلّ شيء. رَسَم الطريقَ وقال: هذه طريق. وهذه السُبُل كلّها. هو ذا الصفصافُ وظلُّه الشاكي. هي ذي المياه. هي ذي البيوت إذ تُضاءُ بعيدة، مغلقة أبوابها، لكنّها هناك.

وقال: صدّق. إن صدّقت تكون البيوت هناك.

وقال: افرح. وفرحتُ.

أيقظني ومسح بالدفءِ على عينيّ فأبصرت.

أيقظني وأقام الميتَ فيّ.

وشُفيتُ من الخوفِ إذ عانقني، ومن البُكم إذ لَثم شفتيّ، ومن الكراهة إذ جعلني الطيفَ الأخَفَّ من

فراشة.

ثمّ دلّني حين قال: فاقدُ البَصَر مَنْ لم يُبصرني بَعْدُ. والميتُ مَن لم تمسّه يداي. وصدّقت أنّ الميتَ يحيا إذا قال الملاك.

في آخر العمر جاء الملاك وأيقظني. ثمّ أماتني. وحين أدركني النهارُ، كنت لا أزال هنا. على الكرسيّ. جَسَدٌ مهدّم. وعينان تبصران في الظلام.

تَمَارينُ مُرتجلة لِغِبطةِ الأحَد

وهذا أحَدٌ أيضاً.

أقصدُ اليومَ الّذي يَلي السبتَ، إنْ فَطنتُم، وهذا يلي الجمعةَ إذا دَرَجت أيّامُ الأسبوعِ على التصرُّم لا الثّبات.

إنّه الأحد إيّاه الّذي جعله اللّه لبطالة هانئة بين الأهل والمشاغل الأليفة، وأوّلها التدخين والتجوال بين الغرف وتقليب صفحات الكتب المملّة والابتسام الدائم لمَن يأتي ومَن يغادر وانتظار أيّ طارئ بالرويّة والأعصاب الّتي ينهكها تصنُّع الاسترخاء.

أحَدٌ جميلٌ كما ينبغي أن تكون عليه الآحادُ الطويلةُ الّتي تُفتتح صبيحتها بالأجراسِ تُقرع من بعيدٍ وهدأةِ الشوارع والسأم الّذي يسيل على الجدران كالأصفر الّذي تمقتُ بلاهته. ولا تجد ما تفعله إلّا أن تخترع له معنى ودلالة لكي تستكمل تمارين الآحادِ الطويلة، وتقول إنّ الأصفر هو اللون المعتّق من الأسود الطاغي، وإنّه خدعةُ السأم إذ تراه العينُ وتجد أنّه اللونُ الأبله بين الألوان، وأنّ نبرته أقرب إلى هذا السكون المسطح في الأشياء من حولك. ثمّ تقول إنّك أخطأتَ لأمر تجهله، وما عليك إلّا أن تستعيد التمرين لعلّك تهتدي إلى صوابٍ في منطق اللون، ولكنّ الكسلَ يغلبُك ويستبدُّ بك الرعبُ من هذا الوقت الهائل الّذي يتّسع أمامك كالهاويةِ ولا تُحسنُ له تدبيراً أو وجهة لتصرفه عنك. فهذا أحَدٌ أيضاً. أحدٌ جميل. ليس الّذي غالبك الوقت في نهاية الأسبوع

المنصرم أو الّذي سبقه، بل الآخر، ذاك الّذي يُصادف اليوم بالذات، وما كنت تعلم، على الرغم من فضائل فُسحة السبت في التأمّل والتدخين، السبت الّذي يلي الجمعة، وليس ذاك الّذي تلا الجمعة المنصرمة، بل أمس الأول وقضيت دَهرَه في التأمّل والتدخين. ليس لأنّ الضجرَ ينالُ منك في كلّ وقت، بل لأنّ الوقتَ ينال منك في كلّ وقت، وتكرارُ الوقت مملٌ كالمشهد الّذي تراه الآن مستطيلاً يترامى إلى ما بعد الناصيةِ والمباني القبيحة هناك.

أحَدٌ جميل. عطلةُ السنونوات تراها لا تدري ماذا تفعل سوى الدوران الأبله في فضاء أصمّ كالجدار وباهتٍ كأضواء الأروقة في المصحّات.

أحَدُ الحقالين في الموانئ والساحات. وأحَدُ سائقي سيارات الأجرة، وأحَدُ الموظّفين ذوي الياقات. وأحَدُ الأكياس السوداء مرميةً، متراكمةً على الأرصفةِ قُبالةَ المباني المُغلقةِ على غِبطةٍ غامضة. تسمعُ هديرَ القضعد، صريرَ الأبوابِ الحديدية الّتي تحمي خِواء الداخل، تَكّةَ المفاتيح وجلبةً مكتومة تناهت إليك عبر السقوف والجدران. فتحدس أنّ أحياء لا يزالون هناك بجوارك، لا تعرفهم، لكنّهم هناك يتدبّرون أوقات الآحاد السعيدة بالراحة والشجار الّذي لا يخلو من مودّة وأحياناً الصراخ الّذي تكتمه الحناجرُ تحرّجاً طيلة أيّام الأسبوع ثمّ تطلقه في الآحاد لأنّ الآحادَ أمداءٌ شاسعة، شاغرةٌ لا يقطن أرجاءها إلّا مَن أنهَكَت جسومَهم مسالِكُ السعي

بين أيّام الأسبوعِ، ولهم الآحادُ ملاذاتُ وَهم تُستعادُ بانتظام.

وهذا أحَدٌ أيضاً. لا أقصد واحداً بعينه. بل الوافد عرضاً بلا اتفاق أو مواضعة. المارّ بمحضِ المصادفة بالمكان الّذي تكون فيه. الغريب الّذي يرى أنّك أنت الغريب وترى أنه هو الغريب، ولا يبدّل خلاف النظرتين شيئاً من غربة كلّ منكما. ومع ذلك لا يجعل الأمر منكما غريبين في مكان واحد. أحَدٌ لا تكون فيه إلّا ظلّاً لما تكونه في أيّام الأسبوع الأخرى وإذا كنت ظلّاً فيها، فتخيّل كم يكون امّحاؤك مضاعفاً. ولكنه يوم مفيد. محيّر. خاتمةُ الأسبوع وبدايته. يتّصل ليقطع ما سبقه. ويتّصل ليستمر ما بعده. وما سبقه يليه بالتعاقب إيّاه. أحَدٌ ملغّز لهواة الكلمات المتقاطعة والنزهات، أيّام الصحو، على ضفاف الأنهر والبرك والبقع الخضراء. ثمّ إنّه علبةٌ للصمت والأصداء. فلن يتّسع الوقت لديك في أوقات أخرى لهذا القدر من التدخين والإصغاء المفتون للمياه الّتي تقطر بعصبية بالغة من الحنفية المعطّلة. وفي أوقات أخرى لن تعرف دعةَ أن يكون الوقت خالياً من أيِّ شيء، حتّى أنت، خالياً منك. لأنّ الوقت في الآحاد الطويلة لا يعود هو الوقت، بل الأبَدُ المتّصلُ لساعات ودقائق وثوانٍ تتكرر لا فاصل بينها. ولك أن تقيس الوقتَ بالخطوات طول الرواق مضروباً بعدد المرّات الّتي تجتازه فيها جيئةً وذهاباً. وتمارين أخرى كثيرة يتّسع لها، فَلَكَ المتسع فيه، كأن تجلس على

الكَئبةِ وتسند رأسك إلى الخَلفِ وتبدأ تمارين التوقُّف عن التنفّس. وكلّما طال احتمالك للاختناق، لعشرِ ثوانٍ أو عشرينَ أو ثلاثينَ أو أكثر، وكلّما أحسست بأوجاع الصدر مضاعفةً أكثر، غَلَبَتْكَ الدَّعةُ إذ تُدرك أنّها الوسيلةُ الوحيدةُ الّتي قد تجعلك قادراً على الخروج من رتابة الوقت، في الآحاد الطويلة، دون أن تقفز من مكانٍ مرتفع أو تنتقي حبلاً متيناً وسقفاً وخطّافاً متبتاً في سقف. أو أن تقول، كما في البداية، وهذا أحَدٌ أيضاً.

ويليه الاثنين.

في فَضائِلِ الصُداعِ والفُنون الجَمِيلة

في غُلبةِ الأصداءِ الّتي هي رأسي حَفنةٌ من الأفكار، وحين أفكّر يعلو الصَّخبُ، كأنّ كرةً تترجّح بين الجَنبات، مِن مؤخّرِ الرأسِ إلى الجَبين، إلى الصُدغين. فأقولُ إنّ الموجَ في الأفكارِ يُسمّى صداعاً. فأحملُ صُداعي وأسيرُ به، وأحياناً تلذُ لي صحبتُه فأسألُ مبتهلاً ألّا يزول. وأحياناً أخرى أسمي الصداعَ أفكاراً، فأقولُ إنّ الموجَ في الصُداع يُسمّى أفكاراً سوداء، أو في الأقلّ، أفكاراً يطردها الأسوياءُ من أقراني بالمُسكّنات، ومن هنا حَسناتُ الأسبيرين والغليفانون والمشتقّات الّتي لا تُحصى من أنواعِ الأقراص الصغيرة. ولكن أيضاً يحدثُ لي أحياناً أن تراودني الأفكارُ المفيدةُ، الزهريةُ المغسولةُ بماءِ الورد، وعندئذٍ لا يسعني أن أقول إنّها الصداع إيّاه، فأحسب أنه أخَلّ بي لهنيهاتٍ ريثما يعود، وأمكثُ في غيابِه منتظراً، متوسّلاً، راجياً ألّا يُطيل الغياب، وأسمّي هذا: الانتظار.

إذا كان كلُّ هذا الّذي يتردد في غلبة الأصداءِ الّتي هي رأسي، صداعاً، فمتى إذاً أفكّر؟ أو إذا جاز لي القول معتذراً: متى أستغرقُ في تفكيرٍ متواصل مُركّز في الأمور الأخرى، والحياةُ لها شؤون وفنون لا تُحصى ولا تُعدّ، وأقصد بالأمور الأخرى: تعاقبَ الفصول والليل والنهار، وأحوال الناس والمدن، والأقدار، وتصاريف العيش كما يفعل الآخرون، ومقامات الحبّ والكراهية

واللامبالاة ونظائرها من اللقاء والبعاد والسلوّ، والمشاغل الّتي أغوتني لماماً بالانتباه، والمثابرة على التشبُّثِ بحسنات الأوكسجين وفضائل الماء ورَذائلِ ثاني أوكسيد الكربون والسموم الأخرى.

ولستُ أسأل على الرغم من حُسن شارةِ الاستفهام، وأدرك، ما أتاح لي الصداعُ إدراكاً، أنّ مثل هذه الأمور ليست في وارد مشاغلكم، فاليقينُ لدى الأسوياء أنّ الصداعَ شيءٌ والأفكار شيءٌ آخر، وأنّ الخلطَ بين الشيئين تشوُّش قد يردُّه البعضُ من ذوي الدراية والاختصاص، إلى عَرَضٍ مرضيّ، أو إلى انحرافٍ في المزاج، أو خفَّةٍ في الرأس وغلبة الأبخرة الصاعدة من المعدة والأمعاء على صفاء الذهن والسريرة. وأنّ الصداعَ باطلُ الأباطيل.

ليكن ما كان أو يكون. فأمرّن رأسي على الأفكار المفيدة وأروّض نفسي عليها. الورودُ جميلةٌ والسماءُ زرقاءُ والهواءُ منعشٌ والناسُ في حُبور كأنّ الناس فراشات لخفّةٍ في الوجود ماثلةٍ للبصائر قاطبةً. لا أراها، ربما بسبب الصداع، لكنّها ههنا بلا ريب وإن كنت لا أراها: الورود الجميلة والسماء الزرقاء والهواء... إلخ. وفي تمرين آخر يفوق الأوّل مشقّةً ورعباً رحتُ أصفُ، على ورقٍ أصفر مُسطّر، نعمةَ أن أكونَ على قيد الحياة ومباهجِها كأنْ يحبّ المرءُ، وذاك أنا أو أنت أو هو، والعناية بالنباتات الرائعة على إفريزِ الشُّرفة وأن يَقبَل بدعوى الواقعية والتبصُّر والاتزان، وهي كثيرة، كالموت

والولادة والحروب والحوادث المتفرّقة في الصحف، وأن يثابر على الابتسام ومشاهدة التلفزيون ومزاولة الوظيفة. والحقّ أنّه الوصف الّذي مرّنتْ عليه لُغَتي، ليس واقعيّاً ولا أزعم أنّه من صميم الحياة (الحياة الّتي لي بالطبع) ولكنّي إذ أدركتُ ما أوقعني به التخيّل من أخطاءٍ إملائيةٍ ونحوية رجوتُ «محيطَ المحيط» أن يكون عوني وعَيلَتي وعثرتُ فيه على النّزهات والنباتات والموتِ والحياةِ والصنوفِ الأخرى الّتي لم أرها وما انتبهتُ إليها.

لكنّ هذا مما لا يعيره الأسوياءُ بالاً. فمن شأنِ الصداعِ أن يُفسدَ البهجةَ في كلّ شيء. ويذهبُ بعضهُم، وهذا البعضُ من أهل الدراية والاختبار، أنّ الأفكارَ تتفتّح مثل البراعم، وما على الراغب إلّا أن يجعل رأسه مزهرية. وعندئذٍ يكتملُ الهناءُ جسداً وروحاً. وإلّا ما جدوى أن تحمل رأساً مثل هذا كأنّه القِربة الفارغة في أيّام قحطٍ وبوار؟ الحقُّ أنّ في تمرين ثالثٍ أقعدني منهوكَ الحَيلِ، ودَدتُ أن أذكر كلّ هذا، واستعَنتُ بعددٍ من أشرطة الفيديو وبكتب ابنتي المدرسيّة، وبثوب زوجتي المشجّر المُشرق الألوان، لكنّ الذاكرة لم تسعفني. فأيقنتُ أنّ الصداع ليس عَرَضاً كما ظَننتُ، ولا بدّ أن يكون شيئاً كوشمِ الولادةِ أو الطباع المركوزة في موضعٍ من جسمي الفاني، أو ربّما كان ما لَقِنتُه على مقاعد الدراسة ومقاعد الرصيف ومقاعد الحافلات وغيرها من أماكن الجلوس المطوّل والاستغراق في التفكير

والسؤال عمّا إذا كان الصداعُ هو الفكرةُ الّتي تجعلني بائساً وتعساً على هذا النحو أم إنّها الفكرة الّتي جعلت الصداعَ ممكناً وأدخلته في رأسي البائس بعد أن أفسحت له مكاناً إلى جانبِ نظائر له في الفنون الجميلة: على غرار النّسيب، والهجاء والمديح والرثاء والفخر وأدب السيرة وأدب الرحلات وأدب الصحف والصحائف، وأدب الضجيج الّذي يولّد صداعاً من نوع آخر.

لقد حاولتُ وأخفقتُ وما زلت مقيماً على الحيرة والحصر، وفي الأخيرين ما يُضاعف الشكوى من الصداع الّذي بات الآن في عدادِ الفنون الجميلة.

كتَبَ الشاعرُ قصيدةً جميلة عن الصُداع.

كتبَ الروائيّ أنّ بطلَ قصته الّذي أحبّ امرأةً لم تبادله الحبّ، والذي قتل رجلاً بالمصادفة وأودع السجنَ، ثمّ أُفرجَ عنه وأصبح موظفاً وزوجاً صالحاً قبل أن تصدمه سيّارةُ أجرةٍ ويلقى حتفه، كتب الروائيّ إذاً، أنّ بطل قصته كان يقتله الصداعُ مراراً كلّ يوم.

وكَتَبَت الصحفُ في زاويةِ الحوادثِ المتفرّقة أنّ رجلاً كان يعاني من الصداع المُزمِن، وبعدَ علاجٍ بالأقراصِ والإبر، رمى بنفسه من الطبقة الثالثة ولكي لا يُتّهم أحدٌ بفعلته ترك رسالة يقول فيها: إنّ ما دفعه إلى الانتحار ليس الصداع الّذي أنهك رأسَه، بل الفكرة الّتي أدخلَت الصداعَ إلى رأسِه ولَمْ يُدرك إلى اللحظة ما هي.

كَتَب لي صديقٌ من عاصمة بعيدة: كلُّ الأشياء هنا

تدعو إلى الراحة والاسترخاء وبهجة العيش. لكنّ الصداع يدفعني إلى الجنون.

الجدارُ الّذي أمامي، أحسب أنّه وحده أدرك الفكرةَ الّتي تجعلُ الصداعَ ممكناً. سأفتّحه رأسي بقوّةٍ لبعضِ الوقت.

لكنّه شأنٌ آخر أنْ تعيش

[«التّعب المحض، الّذي لا علّة له،
الّذي يفجأ كما هديّة أو طاعون:
من طريقه أؤوب إلى أناي، أتعرّفني «أنا».
ما إن يتلاشى أعود جماداً لا حياةً فيه»]

(سيوران)

شأنٌ آخر أن تحشد في رأسك كلّ مساء الرغبات والدوافعَ والأسبابَ، مهما كانت صغيرة وتافهة، الّتي تجعلك قادراً على النوم بشجاعة لتنهض في الصباح التالي بشجاعة مماثلة. أقصد: في الدقائق القليلة الّتي تسبق النومَ أو الأرَق، عندما تقول، وأنت مدرك فعلتك: إنّ لديك من تحبّهم أوّلاً، الوجه الّذي يبتسم لك ما إن تفتح عينيك واليد الّتي تمسح جبينك والقبلة على الخد أو الجبين. ثمّ لديك ما تفعله، لا بل الكثير ممّا ينبغي أن تفعله، كأنْ تنهض مبتسماً وتغسل أسنانك وتستحمّ ثمّ تشرب القهوة وأنت تقاوم الرغبة القاتلة في التدخين، ثمّ ترتدي ثيابَكَ وقبل أن تغادر ترفع الستار وتلقي نظرة إلى الخارج وتطمئن: كلُّ شيء يدعوك إلى مزاولة عيش عاديّ لا يتطلّب منك أيّ جهد، ولا بدّ أنّك تستطيع إذا كان الموظفون والأجراء والباعة والبطّالون وربّات البيوت والخادمات والسعاة يستطيعون، فلماذا لا تستطيع أنت، ليس في الأمر بطولة أو شاهيّة للعيش ممّا يفوق العادة. كلُّ الأشياء في طاقتك واحتمالك،

والأسود الّذي تراه ليس خطأً في الدنيا بل الخطبُ في عينيك. فالأمور تجري كما تجري المياه إلى المسارب الجوفيّة، أو كما يعبر السابلةُ بقرب تلك الشجرة أو بجوار ذلك الحانوت. تُعتادُ الشيءَ وتمرُّ به كأنّه ليس هنا. وإن استوقفك فضوليٌ وأمسكَ بكتفيك وثبّتهما وأشار لما تنبّهت إليه. فالشيءُ المعتادُ هو الشيء الّذي تمرّ به ساهماً ولا يضيره أن تغفله ولا تراه لأنّه المعدوم الهَمَل المتروكُ لانتباهه هو، الموكولُ لغفلةٍ هي الوحشةُ الّتي فيه وليست في الآخرين الذين يعبرون بالجوار ولا يلتفتون، فطباعُ العابرين أقربُ إلى السهوِ المسترسلِ، وليست بطولة أن تكون، أو يكون الشيءُ، هنا وليست بطولة أن لا ينتبه العابرون.

وشأنٌ آخر أن تجمعَ في إرادتك وأطرافك هذه القدرةَ الهائلة الّتي تمكّن أيّ فانٍ من الأسوياء من مغادرة المكان الّذي بَذَل فيه جهداً لتدبّر ذريعةٍ للنوم وذريعة للنهوض، ليس لأنّ الذرائع قليلة، فمن شأن أيّ تلميذ في ابتدائية تجارية أن يصفَ لك مَحاسِنَ الهواءِ الطلقِ وفتنةَ الربيع الّذي حلَّ أمس الأوّل وفضائِلَ العمل والبناء ونعمةَ الأهل والأصدقاء، ناهيكَ عن محفوظات مطوّلة في البذل والكفاح وإيثار الفضائل... إلخ، من شأن أيّ تلميذ إذاً أن يبتكر الذرائع الّتي لا تجدها ولا تخطر لك ببال. وعلى الرغم من ذلك تبذل جهداً إضافياً لإقناع نفسك بضرورة أن تكون بين الأسوياء من الفانين، وليست بطولة أن تكون كالأقران من الزملاء

والجيران والأقارب والبُعداء، فما تراه ليس صحيحاً بالضرورة، وإن خالجك الشك، وما أقنعت نفسك به بَعْدَ جُهد ليس الحقيقة كلّها. فشأنٌ آخر أن تفكّر، وأنت الكائن المفكّر بامتياز، فيما العيش هو الشأن الآخر الّذي لا يدعوك إلى التفكير. وقصارى قول العارفين إنّ التفكير مفسدةٌ للقلبِ والنفس والأعصاب. وليس بطولة أن تفكّر، بأيّة حال، فأيّ جبل انتقل من مكانه مذ جَعَلْتَ تفكّر، وما الّذي تبدّل في اضطرارك كلّ مساء إلى ابتكار ذريعة للنوم وذريعة للنهوض، تعلم جيّداً أنّ بطلان الأشياء لا يزيلها وأنّ بطلانك لا يزيلك وأنّ الحياة لا تحييك.

فشأنٌ آخر أن تنهض كلّ صباح (وهذه من شؤون الدنيا)، ولكن ماذا تفعل؟ وتقول، وقولك محض افتراض، إنّها لبهجة حقّاً أن تكون هنا في هذا الصباح المشرق، وإذا كان الصباح غائماً، إنّها لبهجة أيضاً أن تكون في هذا الصباح الغائم، وإذا كان ممطراً أو عاصفاً أو مجرّد صباح عاديّ، صباح الباعة والموظفين ورجال الدرك والصيانة، إنّها لبهجةٌ حقّاً، وبالفعل لا أحَد يحلُّ في محلّك لكي يرى الأمور في صورة أخرى، ولا أحَد أنت لكي يدرك أنّها مجرّد طريقة لكي تقدر أن تنام ثمّ تنهض ثمّ تنام ثمّ تنهض، وليست بطولة مزاولة مثل هذه التمارين وليس فيها ما يفوق العادة، ولست تخوض حرباً بها ولست تنشد مستقبلاً كالذي تقوله الأغنيات والأناشيد، لكنّه شأنٌ آخر أن ترغب كلّ الرغبة

في أن تجد سبباً، وما إن تعثر عليه حتى ترغب كلّ الرغبة في أن يكون خاطئاً. وذات يوم، أقصد ذات يوم عاديّ من الأيّام المقبلة، ستدرك أنّ الأسبابَ كلّها واضحة ومقنعة وموجبة ولا عيب فيها، لكنّه شأنٌ آخر أن تكون سبباً للعيش، أقصد العاديّ، المتواصلَ، الهائلَ الّذي أنْهَكَ جِسْمَكَ.

كُنْتُ جِداراً

بلى سمعتُ جلبةَ انهيارٍ، في الصباح الباكر، ولكنّي حسبتُ أنّ الجدران، على جاري عادة الجدران، تُرَوِّضُ نَفْسَها على التداعي، بلا سبب، فقط لأنّ من طَبْعِ الجدران الوقوف ثمّ التداعي ثمّ الوقوف، كأنّ الغاية من كلّ شيء تمامُ قَدَره ولا بقاء للفانين أمثالنا والجدران. سمعتُ الجلبةَ وأصغيتُ لوقتٍ غير قصير بَعد أن هَدَأتْ، لم أشعر بآلامٍ من أيِّ نوعٍ، فكيفَ أنتبه؟ واصلتُ ما كنت فيه من انْهماكٍ بحساب الوقت والجلوس على الكنبة أُمرِّن عينيّ على أن تنظرا دون أن تريا شيئاً، بعد التحقّق، بالتلمّس أنّ الأشياء ما زالت من حولي، وأمرِّن يديَّ على خَدَرِ البطالة، وجسمي على استرخاءٍ خلوٍّ من أيِّ خاطرة. لم أنتبه، لشدّةِ استغراقي في السعي وراء نقطةٍ نقّالة في الجدار المقابل، ثمّ أدركتُ أنّه العنكبوت الّذي يشبه النقطةَ ذات القوائم، لكنّه ليس النقطة، يغادر الزّاوية العليا وينحدر متشبّثاً بخيوطه الوهميّة، ناسجاً المزيد منها في ترجُّحٍ منتظمٍ كأنّه رقّاص ساعة. لم أنتبه. الجدار قُبالتي ما زال واقفاً، وحسبت أنّه، لا بدّ، جدارٌ آخر، يتداعى لعلّة فيه، أو لعلّةٍ بي، لستُ أدري. تبدأ الأعراض على هيئة شقوقٍ وفسوخٍ سطحية ومع الوقت تُصبح أعمق فأعمق، حتّى تتخذ شكلَ الفجوات الطوليّة، وتَفُتُّ قشرةُ الإسمنت أو الكِلْس، يَفُتُّ الحَجَرُ، ثمّ يسقط حجرٌ من هنا، ويسقط حجرٌ من هناك، ثمّ تأتي كلابٌ شاردة، ومتشرّدون وأُجَراء، لقضاءِ حاجة أو

حاجتين في شتره، ثمّ يأتي محازبون يطلونه بالشعارات والأخطاء الإملائية، ثمّ يأتي متعبون ويقيلون في ظلّه، ثمّ يأتي شتاء ثمّ آخر ثمّ آخر، فيبتلُّ ويجفُّ، ويبتلُّ ويجف حتى تيبس أوصالُه، أو تأتي رشقاتُ البنادق الآلية، ورذاذ الشظايا وارتجاجات الدويّ، يتصدّع تنفلق قشرتُه الواهنةُ من الصُداع، ويفُتّ بعضُها وبعضها يَغلَق ويهتزُّ على هدي النسيماتِ كأوراق شَجَرٍ، كأوراق شجرٍ يابسة، كأوراق شجرٍ يابسة مُتَرمِّدة وحائلةِ اللون أشبه ببقعةِ غبار جَمُدَت في رقاقةٍ ولن تلبث أن تتناثر في كلّ صوب وناحية. لم أنتبه. حسبث أنّه، لا بدّ، جدار آخر. ذلك الّذي، لفرط ما صار مسنّاً، لانت حجارته وكساها الخزُّ القاتمُ وصارت زَلقةً دبقةً يأنف الكلبُ الشارد أن يتشمّمها، وإن أرغمته الظروف قضى حاجته عليها مسرعاً متقذراً، كأنّه في سرّه يسأل، لماذا لا تهرع لجان البلديات أو فرقُ الصحةِ العامة لتدفن جثة هذا الحائط أو ترممه كمثل سور المبنى البلديّ والأسوار الأخرى الّتي تزنّر المنازل الجميلة المضاءة. قلت لم أنتبه... وما يعنيني لو يسقط ألفُ جدارٍ في الدقيقة الواحدة.

وما يعني الجدار لو سقط عشرون ألفاً، أقصد مثلي ومثل آخرين، لم ينتبهوا، وحسبوا أن، لا بدّ، هي الجدران الأخرى... إلخ.

لم أنتبه. وحين استيقظت كنت مبعثراً. على حافة القناة بعضي. وعلى سيّارة جديدة. ونثارٌ في حلم ابنتي

تنشقته فأتعبها. وبعض آخر على قارعة الطريق. ليس كلّي بل البعض من أبعاضي الّذي تداركه عمّال النّفايات والأجهزة الأخرى.

استيقظتُ وما وَجَدتُني لم أنتبه في البداية ولكنني فيما بعد أدركتُ أنّ التبعثرَ هناءةٌ والفضلات.

وأدركتُ... أنّ في الإدراك حظّاً للنباهةِ.

لكنّني، أعتذر، كنت جداراً.

أخوالُ الثّراب

«... فبُعدٌ ووجدٌ واشتياقٌ ورَجْفَةٌ
فلا أنتِ تُدنيني، ولا أنا أقربُ
ولي ألفُ وجهٍ قد عَرَفتُ طريقَه
ولكِنْ بلا قَلبٍ إلى أين أذهَبُ؟»

(مجنون بني عامر)

طرفٌ من خيطٍ، أو ربّما رجاؤه الحائلُ، يُمسك بي على الحافّةِ بين أن أهوي ثقيلاً أو أمكثَ، هنا، على الحافّةِ ورجائي أن أهوي ثقيلاً إلى خفّةٍ ما أجْهَل. على الحافّةِ يُقيم الرجاءُ وأقيمُ معه إذ تخَفّف جسمي مِمّا يُرهقُ سعيَه كأحسن ما تكونُ العافيةُ، لا التنفّس ولا شهية الطعام أو الماء ولا الملذّات الّتي أوْهَمَتْهُ، قَبلَ أن يُدرك الحافّةَ، أنّه يحيا كما تحيا الأشيَاءُ بروحٍ حَجريّةٍ وحواسَ مالحةٍ كمثلِ الصخرة الّتي تكسوها.

كنت ميتاً، وميتاً لا أزال، فما الّذي أيقظ فيّ حفنة المواتِ، وهي جسمي، مَشقّةَ أن يَنهضَ قلبُه الصامتُ وروحُه الّتي اعتزلت في مشاتيها البعيدة. كنت ميتاً، وجاءت يدٌ ومسحت جلدي فَسَرَتْ لمستُها هِبَة الحياةِ وهبةَ الألمِ الّذي ظننتُ ما عاد يُدركني مُذ كنتُ ميتاً ولا شفاء. وكنتُ غائباً، لست هنا، ولست هناك، ولست بينهما، فالبَينُ مكانٌ كالغَفلةِ والسهوِ والعُزلاتِ، كنتُ غائباً فحسبْ، ثمّ أدرَكتني عينان، لستُ أدري الآن، في الحلم كان أم في اليقظة، ودلّت على الهباءِ الّذي كنتُ مقيماً

في هبائه، فانقشعَ غيابي، ولَمَسَتني باليدين، وَوَجَدَتْني:
هذا وجه لأنّها تراه، وهذا قلب لأنّه أحبّها، وهذه روح
لأنّها تقيم في ألم انتظارها، وهذا جسم لأنّه من أجلها
ينهض في الصباح، ولا ينام لكي لا يخطئ موعد
الصباح، فالصباحُ، كالأشياء الأخرى، صار المكان لا
الوقت، لأنّ الوقت ينقضي ولا ينقضي المكان، والصباح
مكانها، والصباح مكاني الّذي أعادتني إليه وكنت غائباً،
لست هنا ولست هناك ولست بينهما، لأنّ البَينَ مكانٌ هو
الآخر كالموتِ الّذي طالما أماتني ولا شفاء.

لمسةُ إصبعٍ واحدة، أو رجاؤها الّذي يُدحرج الصخرة
خفيفةً كالفراشة، مدوّرةً شفيفة كقُربان، مشعّةً كومضٍ
يشطر السوادَ نصفين، لها كسرةٌ من الليل المؤرّق، ولي
كسرة، وإذ نجمع الكسور يزول التأرُّق ويلتئم ليلُنا مضاء
برقراق عينيها، منوّرٌ به وبالضحكات خفيضة كالإسرار
بالغبطة، وليست الغبطة حالاً، بل المكان الذي أعادتني
إليه وأصبح لي الوجه الّذي تراه والكلام الّذي تسمعه
واليوم الّذي تكون فيه، والهواء الّذي يصحبها رافلاً
متقطّراً من فمها، ومن حركة يديها، ومن بَذْخِ جسمها،
ومن الانتظار الّذي تَفِدُ عليّ منه، فالانتظار ليس وقتاً بل
المكان الّذي أقيم فيه. انتظارُها، ولا ينقضي ولا يزول.
حالُ من أقام على الحافّة، لا يهوي ولكنْ رجاءُ الرجاءِ
أن يهوي ثقيلاً إلى خِفّة ما يجهل. وانتظارُها، ما أجهل
وما أعلم وما تصبو إليه المدارك جميعاً. علامة، ربّما
كانت بقية سراب، في أفق يبتعد، كالطريق في أوّلها.

وعذاب أن تدرك أنّ أقصى ما تراه طرفاً هو أوّلها حين تكون هنا وأقصى ما تراه طرفاً منها هو أوّلها حين تكون هناك وأقصى ما تراه طرفاً منها هو أوّلها أيضاً. وتسيرُ، لأنّ ما يستغرقه المسيرُ ليس وقتاً، بل المكان الّذي هو انتظارها. ولا تكون لا عند نقطة البداية ولا عند حدّ الختام، ولا بينهما. تُدرك أنّ السير إليها حالٌ، كمثلِ الغبطة، كمثل الحزن، ولا شفاءَ إذا كان الحالُ مقيماً على الحافة وجسدُك المجرّدُ من لمستها، وجسدُك المغيّبُ من غفلتها عنك، يستحيل حفنةَ حَطَبٍ، ثقيلاً كمن غَرِقَت روحُه في مياهِ بئرٍ عميقة، وماؤها ليس ماءً بل أسَنُ اليومِ الّذي من دونها، طينُ الطينِ، وفَضَلةُ الفضلاتِ وصدًى يعوي في داخلك.

كنت ميتاً، يُغبطني السكون من حولي، يغبطني الغيابُ الّذي صار مكاني، والعتمةُ الّتي أخشنت وِفادتي، ورفاق لي، وأبٌ، وأختٌ وآخرون جمعوا المسرّات الصغيرة ورحلوا إلى ما يخفيه الترابُ ولا يسُرّ به إلّا لمن يمازجه ترابَ جسمه، والترابُ ليس وقتاً، كما ظننت، والتراب ليس مكاناً، كما ظننت أيضاً، بل الحالُ الّتي أقام عليها الشوكُ والشجرُ، وأقام فيها الراحلون إلى انتظار، إلى رجاء انتظار لا ينقضي انتظارُه.

ورجائي كان أن يمازجني الترابُ ترابَه، حين أفَقتُ. جُبِلَتْ حفنة منّي بعرقِ جسدِها، وأنهَضَتني، ومَسَحَت عنّي القتامةَ، وجَعَلَتْ لي يوماً من موعِدها، وجَعَلت لي جسماً من لَمسَتِها ومِنَ الشوق إليها، وجَعَلَتْ لي وقتاً مِن

انتظارِها، وعيشاً أُقيمُ فيه على الحافّة لا أبرح.

طرفٌ من خيط، أو ربّما رجاءُ طيفِها المُقبلِ من بَعيد، يُمسك بي على الحافّة. لمسةُ إصبع رقيقةٍ أيقظتني، ألقَيتْني طيفاً لا يومَ لي، لا وقت، لا جسمَ، لا باصرة. فأعطتني أن أكون بها وصار لي يومٌ ووقتٌ وجسمٌ وباصرة.

وأنتظرُ. ليس لي إلّا انتظارها. حيث أقيم.

غيابُها ليس وقتاً. بل المكان الّذي لا أكون فيه. والمكان الّذي لا أكون في سواه.

من الأيّام، ليس كلّ يوم هو اليوم.

من الأوقات، ليس كلّ وقت هو الوقت.

فقط مسرّاتٌ هنيهةٍ، فأكون كما لا يقدر كائنٌ أن يكون.

غير ذلك، أخوالُ الثُّراب.

مُجرَّد تَعَب

[التعب: هو الملاكُ الّذي يَلمس إصبعَ ملكٍ نائم، فيما يواصلُ الملوكُ الآخرون نومَهم الخلقَ من الأحلام.]

(بيتر هاندكه)

بارقةٌ واحدة، ليس، بالضرورة، من عندِ الله.

إشارةُ يد. مُجرَّد تلميح. حتّى ولو كان الإلماحُ كاذباً.

فأُصدِّقُ أنّ كلّ هذا تَعَبٌ.

تَعبٌ فقط، تَعِبَ الرجلُ يتعبُ تعباً. فَقط. كمِثلِ ما يُصرِّف عليه الفعل. أو كمثل ما يُضني جُسومَ الحمّالين وعمّال المناجم والسائرين أبداً، والمحكومين وبغال المهزبين والقادة، والقانطين والمريدين كافة في دروب المشقّات.

فأصدّق أنّ كلّ هذا تعب ويزولُ، كما تزول الأعراضُ من كلّ شيء، لأنّها الأعراض وليست الشيء وإن كانت توهمُه (أي الشيء) لبعضِ الوقتِ أنّها هو لشدّة ما تساكنه فيصبح مظهراً لها وتصبح مظهراً له. كما يكون الصداع انفجاراً كونيّاً متواصلاً في الرأس، والعياءُ رغبة في التلاشي. تَعَبٌ فقط. ليس علّةً وأوجاعاً تروّض جسمك عليها، وتبرأ منها بعبوّات الكيمياء الملوّنة، وإرشادات الطبيب، وزمّ النفس تكابدُ أهواءها. ليس الألمُ الّذي يجعلك تشعر بشدّة ما يؤلمك. تصبح يَدُك،

مثلاً، هي اليدُ ولا شيء سواها. الرئة هي الرئة. والقلب هو القلب. فالمؤلم هو الماثل في جسمك، مستحوذاً عليه، ممتلكاً إيّاه، ويجعل من روحِك مُجرّد وعيٍ له.

ولكنّ التعب...

أحسبُ أنّه مجرّد فكرة خاطئة. عياؤها في أن تكون سبباً لزوالها، لا بل رغبة فيه. مجرّد فكرة. كأن ترغب، بالفكر وحده، أن تتلاشى، أن تتخفّف من الأحمال الّتي أصبحت، فجأةً، ثقيلة. فوق طاقتك، فوق احتمالك. حتّى الخطوات تكتسب وزناً. فكرة النهار، مثلاً. لا تجد، مهما اجتهدت، في مصنّف للثقات أنّ النهار جسم من الأجسام الّتي يتقدّم بها الكون في وجوده المادّي. وإن فَعلْتَ، سَخِرت منك القواميس وازدرتك المعارفُ، حتّى ما لا يجاوز درجةَ الصفرِ منها. فكرةُ النهار، إذاً. حين يُحصي وعيُك الشقيّ مواقيته بأعشار الثانية، لا الثانية. وبالأمتار والسنتيمترات مسار شمسه الهائل بين الشروق والمغيب. وبالأطنان، آلافها المؤلّفة، الأجسام الّتي تدبّ عليه، من إسمنت ومعدِن وبشر ودواب. وبالأرقام الفلكية مقدار ما يُقال فيه من كلام وما لا يُقال. وما قد يحدث فيه أو لا يحدث. وعدد الولادات وعدد الوفيات. والرقم الهائل في حساب الأكاذيب والمفارقات والمصادفات.

ومقدار ما فيه من الحياة، ويخيفك.

فكرة النهار، إذاً. أحسب أنّها ما يفوق صخرة. لكنّها مجرّد فكرة. وتحملها في رأسك، في مكان ما من

دماغك. وتنهض بها، وتسير بها، وتعمل بها، وتحبّ وتكره وتحزن وتفرح بها. ولا تشعر حتّى بثقلٍ في أجفانك. ثمّ يأتي التعب. يأتي، ويقول لك أحدهم: إنّه مجرّد تعب. م.ج.ر.د.ت.ع.ب. أمر بسيط. فقط ستشعر لبعض الوقت، أنّ كلّ شيء هنا، أقصد في العالم من حولك، صار له حجم وثقل. لن ترى الشروق أو الغروب كما كنت تفعل في السابق. وإن صادفت أحداً، في الشارع أو المقهى أو في مكان عملك، لن يكون كما اعتدت أن ترى أحداً في وقت آخر.

ولا بأس إذا جَعَلْتَ تبكي، بين الحينِ والآخر، لأسبابٍ تافهة، أو بلا سبب، هكذا تبكي، لأنّك أصبحت العبءَ الّذي ستحمله طيلةَ العمر على كتفيك. أو لأنّك أحببتَ ولا تقوى على العيش لأجل من تحبّ، لشدّة ما أوهنك التعب، لشدّة ما لاشاكَ وبدّدك وغيّبك وجَعَلَكَ رُكاماً. فكيف تقوى على العيش حفنةُ الركام؟

لكنّه مجرّد تعب.

تعبٌ كَمِثْلِ أن تنتبهَ فجأةً وتجدَ أنّك في المكان الخطأ، في اليوم الخَطَأ. وتجد أنّك، نفسك، الرجل الخطأ. ومع ذلك تتظاهر بأنّ ما وجدته في هذه الأخطاء كلّها هو الصواب الّذي أتاح لك أن تحيا إلى الآن، وحين تنهار الأشياء من حولك، وتقيم على العتبة طويلاً وكثيراً وبإفراطٍ ما بعده إفراط، تحسب أنّه مجرّد تَعَب. تَعِبَ الرجلُ يتعَبُ تَعَباً. كمثلِ ما يتعبُ الحمّالون... إلخ. وإنّ التعبَ فكرةٌ خاطئة، لكنّها لا تزول.

القليلُ منها وَهَنٌ يُلاشِيك عند اليقظة. والمقدارُ منها إنهاكٌ يُلاشيك عند النوم. ليست العِلّة أو المرض الّذي يقتلك. بل الفكرة الّتي تحييك، إذا كان إحياء الرميم حياةً، والفكرة التي تحيا معك، في داخلك. ليس الموت الذي يميتك بل الموت الذي يحيا في داخلك. الموتُ الّذي يحيا بك.

وتصدّقُ أنّ كلّ هذا تعبٌ.

أكاذيبُ النافذة

«جَلَت في تجلّيها، الوجودَ لِناظري
ففي كلِّ مَرئيٍّ أراها برؤية»

(ابن الفارض)

«فما غابَ من عيني خَيالُكِ لحظةً
ولا زالَ عنها، والخيالُ يَزولُ»

(جميل بن معمر)

أغيَثِني حيلةُ يدي، حين تتظاهر بالخفّةِ، وترسمُ ظلالاً على الورق، هي ظلالُ حيلتها، وليس ما أُريد أنْ أكتب. ما أريدُ أنْ أقول.

أغيَثِني الرّغبةُ في أنْ أكون هنا، بين جَفعٍ من الناسِ أو قِلّةٍ منهم، مُنصرفاً عنهم، ومنصرفاً إليهم، وفي كِلتا الحَالتين، أبادلهم بسمةَ مَن يرى الأشياءَ زائلةً، وهو معها، ومَنْ يرى أنّ الإقامةَ، ها هنا، لن تطول.

وأغيَثِني هذه الأوعيةُ الجوفاءُ الّتي تَزعم أنّها الأوقات بين الأمسِ واليوم، وهذه الأصداءُ الّتي تَزعم أنّها أطيافُ الضحكات الّتي تُلاشَت، والكلام الّذي تردّده خافتاً، ولا أسمعُ منه إلّا الهَمسَ الّذي قاد سِوايَ إلى الجُنون.

أغيَثِني الغرفُ بوحشتِها الباذخةِ. والجدرانُ إذْ تُثابر على صمتِ الجُدران. والهواءُ الّذي يُقلّد هواءً سابقاً. والنوافذُ الكاذبةُ الّتي أوهَمَتِني أنّ ما أراهُ هو الخارجُ

ومشهذه، وليس الغَبَش الّذي في عَينَيّ.

أغيَتثِني ضَخبَةُ الأشياءِ، مِنْ حَولي، أصنعُ لها سِيَراً وأعماراً، وأُخاطِبُها بِنَثرِ عَيائي الّذي جَعَلْتُ منه الأشياءَ وما شُفيتُ مِنَ العَياءِ فَخاطَبَتني الأشياءُ بِنَثر مواتِها الّذي جَعَلَتْني منه وما شُفيتُ مِنَ المَوات.

قُلتُ، لا أمكثُ في هذا المكان الّذي أرى منه الشجرة المستوحدةَ، ربَّما كانت الشجرة من أكاذيب النافذة. لا أمكثُ في هذا المكان، ربّما كان الطيفُ الّذي لاح لي على الناصيةِ من أكاذيبِ النافذةِ أيضاً، وربّما كانت عيناي.

قُلتُ ربّما أفقَدني التحديقُ في البعيدِ بَاصرةً لم أحسنْ تقليبها بين أخيلةِ الوافدين مِنْ غُبطةِ النهار إلى غبطةِ النهار. وصَرَفْتُ العامَ، تلوَ العامِ، أرى الأشياءَ الّتي ما عادَتْ هنا، لكنَّها مَكَثَتْ في عَينَيّ. ولا تُبصِرُ العينان الأشياءَ الّتي مَكَثَتْ فيها، بَل تَجْعَلُها كلَّ ما في استطاعةِ العينين أن تبصرا. حتّى إذا بَكَتْ سالتِ الأشياءُ رقراقاً في المَسيل.

إذا سالت الأشياءُ من العينِ زَالَتْ وإنْ كان زَوالُها التحريق. ولكنْ...

أغياني الغَبَش الّذي أرى فيه وجهاً على الدّوام. ولا يَسيلُ، شأن الأشياءِ الأُخَر. وَجهٌ لا تَمسّه الأنمُل ولا تحتوي دفأه اليدان. أبصرُه حينَ أبصرُ وأبصرهُ حين لا أبصِر. غَبَشٌ كَمِثلِ الضَّبابِ قَبل التلاشي لا يَسيل دمعاً، ولا يقيمُ في المشهدِ المترامي لِخدعةِ النافذةِ. وجهٌ

ليس صورة وجه. ليس ذكراه، لأنَّ الذكرى وهمُ ما يزول. وجهٌ لا يزول. لا تُخَالِطُ سِيماءَه تصاريف نِسْيانٍ يَفكُّ غَبَشاً في العينِ الَتي لا تُبصرُ ويَفكّ تحريقاً في الراحتين.

أغياني التّحديقُ في البَعيد ولا أرى وجهاً يُشبه ما يَجتمع في عينيَ من الرقراقِ الّذي لا يسيل، أو يُشبه الحرقةَ الّتي جَعَلَت يديّ حين تتظاهران بخفّة النسيان، تصنعان ظلالاً على الورق، هي حُرقةُ راحتيهما، لا الكتابة. ليس ما أريدُ أنْ أكتب. وليس ما أُريد أنْ أقول. بل الوجه الّذي أبصرُه حين أبصر، وأبصرُه حين لا أبصر.

وأعياني اليَقينُ أنّ الأشياءَ زائلةٌ مثل عينيَ. فيتراءى لي الوجهُ غبشاً كَوَسَنٍ ناعم. وأغمضُ عينيّ ريثما يُصبح غِلالةً شفيفةً فوقهما، تُغطّيهما، تكسوهما، وأغمضُ عينيّ، سيّان عندي، إلى الأبَد. فَأعْلَمُ أنّني معه، لن أكون وحيداً هناك.

ربّما كُنْتُ كالعميان.

لا أرى العتمةَ، بل أرى لوناً وحيداً.

ليس السواد، بل طيفُه المنوِّر من دونِ إضاءة.

وجهٌ لها يَدُلّني. وتَدُلّني يداي.

سوفَ تحيا مِنْ بَعْدي

«كلّ الأشياءِ الّتي أراها، سوف تحيا من بعدي»

(أنّا أخمانوفا)

أغبِطُكَ نعمةَ الخَشبِ، نعمةَ النسيانِ، أيُّها الباب.

سوفَ تحيا من بعدي.

وسوف تسألُك الأيدي، برقّةِ الأيدي وأناتِها، عن الرجلِ الّذي أغْوته فراشةُ العزلات، في الدّاخل، وأغواه الصمتُ الّذي هو عبارةُ الغياب، والتنفُّس الأعمق لروحِ الأمكنةِ الشاغرة.

أغبِطُكَ نعمةَ الحَجَرِ، نعمةَ الصّمت، أيُّها المكان.

سوف تحيا من بعدي.

وسوف تسألُك عيونُ العابرين، برقّةِ العيونِ وحَيرتِها، عن الرّجلِ الّذي كان هنا ولا يزال، قبلَ أن تهتديَ إليه أطيافُ العابرين وتَصْحَبَه، في موكب الصّمتِ، إلى المكان البعيد. وسوف تراكَ عيونُ العابرين مقيماً على صدى الضواحي، بين وَعْرٍ وأشواك، وتمرُّ بك الأطيافُ كأنّك، أيُّها المكانُ، ما كنتَ يوماً إلّا لَهَفَ الرّجلِ الّذي كان هنا، حين يعود إليك بعد تَرْحالِ الأماسي، بَعْدَ أسفارِ الظّنون.

أغبِطُك نعمةَ الصّبرِ، نعمةَ أنْ تمكثَ غفلاً، أيُّها المِشْجَب.

سوف تحيا من بعدي. والقبعةُ العتيقةُ، وفروها المسنُّ

والمعطفُ الّذي لا يزال يُكنزُ رائحة الشتاء. لن تُحمِلَ عصاهُ بعدَ اليوم، ولا سترتُه المُتعبة. وسوف تقف في الرُّكنِ بين العَتَبة وبابِ الرُّدهة. ولن يأتي زُوّارُ الليل. ولن يأتي زُوّار الصباح، ولن ينتبهَ أحَدٌ إلى عِنادِكَ البُنيّ الداكن، إلى حضورك النحيلِ الّذي يُضاعِفُ الشغورَ مِنْ حولِك.

سوف تحيا من بعدي. وسوف تحيا الأشياءُ ولا يزولُ منها إلّا العَرَضُ الّذي رَأته عينا الرجلِ الّذي كان هنا ولا يَزال. العَرَضُ الّذي أقامَتْ فيه أعواماً هي الأعمارُ كلُّها. وسوف يحيا الهواءُ مِنْ بعدي. والسّكونُ الّذي يَنام في قَلْبِ الشّجرة. والشّجرةُ الّتي تُثقِّل ظِلَّها كالمَلِكِ الخاسِرِ. وسوف يحيا الكلبُ الجاثمُ فوق حَرّ الظهيرة والحصانُ الّذي يَجرُّ العربةَ وحوذيُّها الضّرير، والسلحفاةُ والضّفدَع. والغرابُ والدوريُّ والهُدهُد. وسوف يحيا الوقتُ العائِرُ، والأرملةُ والموظّفُ والشاعرُ وصانعُ العَجَلات، وسوف يحيا الرَّجل الّذي كان هنا ولا يَزال، مِنْ بعدي. ومرّةً في كلّ عام، في 13 آب 1955، يترك باقةً من الزنبق فوق الحجر الأملَس لوحشتي. ومرّةً في كلّ عام، يَشربُ كأساً لذكراي قَبلَ أنْ تزول.

أغبِطُكَ نعمةَ الزّوال، نعمةَ التلاشي، أيُّها الضوءُ.

سوف تحيا من بعدي.

وسوف تُنير النافذةَ بوهَجٍ من الأصباح الّتي لن يراها الرَّجل الّذي كان هنا لا يزال، قَبلَ أنْ يُدركَه شَغَفُ العتمةِ إذا أُغتمت النّوافذُ مثل قَلْبِه، وإذا أعتمَ كَمِثْلِ ما تُعتِمُ

عينان كئيبتان. وسوف تنيرُ الغرفَة الّتي لن أكونَ فيها. والكرسيّ الخالي من جسمي القليل، والسريرَ الخُلوّ من أرَقي، والورقةَ الّتي لم تُكتبْ عليها قصيدتي، والوجنةَ الّتي لم أُقبّلها هذا الصباح، واليدَ الّتي لم أُصافِح، والألَم الّذي ما اعتراني لأنّه جاءَ ولمْ يَجِدني، وسوف يحيا من بعدي.

أغبِطُكَ الألَمَ، نعمةَ الألَم، أيّها الرجل الّذي كان هنا لا يزال.

سوف تحيا من بعدي.

وفي صباح، في **14** آب **1955**، سوف تجمع كلّ هذه الأوراق وتُشعلُ النّارَ فيها. وبعدَ تفكير طويل، وبعدَ سيرٍ طويل بين النواحي، سوف تُعرّج على الرّخام الأملس المصليّ لنومي وتصنع باقةً من الزنبق العاجيّ. وتمكثُ هنيهةً حائرَ اليدين، زَائِغَ النظراتِ، مُرتبكاً.

أغبِطُكَ وفاءَكَ، نعمةَ الوَفاءِ، أيُّها الرّجلُ الّذي كان هنا لا يزال.

مرّةً في كلّ عام تأتي إليّ لتزورَ قَبرَك.